

مكتبة مدبولي

الإسلاميون "طرق وحركات"

سيد قطب والتكفير

أزمة أفكار .. أم مشكلة قراء ؟

إعداد وتحرير: د. معتز الخطيب

إهداء ٢٠١٠

الاستاذ الدكتور / خالد عزب
جمهورية مصر العربية

سيد قطب والعنف والتكفير

أزمة أفكار.. أم مشكلة قرّاء؟

اسم الكتاب : سيد قطب والعنف والتكفير

أزمة أفكار.. أم مشكلة قرّاء؟

إعداد وتحرير: د. معتز الخطيب

الطبعة : الاولى

اشراف فنى أ/ محمود عبدالعزيز

رقم الايداع : ٢٠٠٩/١٩٢٤٠

الترقيم الدولى : ٩٧٧ □ ٢٠٨ □ ٧٩٨ -٧

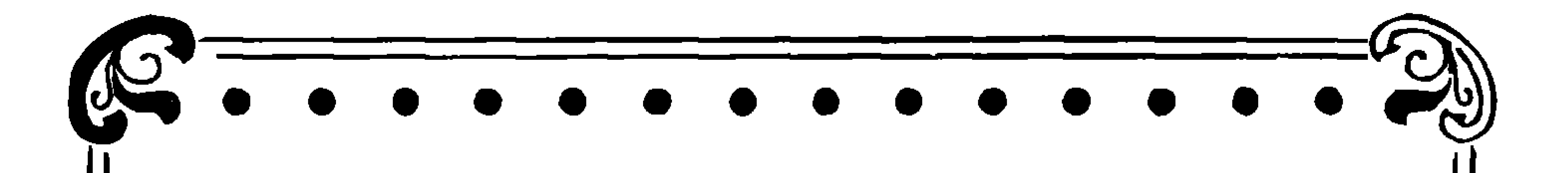
الناشر : مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب □ القاهرة

ت : ٢٥٧٥٦٤٢١ ف : ٢٥٧٥٢٨٥٤

Web site : www.madbouly books.com

E_ mail : info@madboulybooks.com



سيد قطب والعنف والتكفير

أزمة أفكار.. أم مشكلة قرّاء؟

إعداد وتحرير

د. معتز الخطيب

شارك فيه:

أ. أحمد عبد المجيد
أ. جمال باروت
أ. جمال سلطان
د. رضوان زيادة
أ. زينب الغزالي
د. سلمان العودة
أ. سيد نزيلي
المستشار طارق البشري
أ. عبد الحليم خفاجي

أ. ع. أبو عزة
أ. عمر التلمساني
د. محمود عزت
أ. مصطفى عاشور
د. معتز الخطيب
د. يحيى هاشم فرغل
أ.د. يوسف القرضاوي.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

سيد قطب فوق الاتهام.. ولكن!

قد يبدو غريبًا أن يكون شخص فوق الاتهام!. لكن هذا جاء **لِيُمايز معالجتنا هذه لموضوع (سيد قطب وفكره) عن تلك «القراءة المريضة»** - وربما سماها البعض «القراءة الظاهرية»، وفي هذا ظلم لمذهب إمامٍ كبير بوزن ابن حزم رحمه الله، مهما يكن موقفنا منه - فآفة تلك القراءة المريضة في عقول أصحابها وقلوبهم التي سوّلت لهم القول بكفر قطب نفسه أو أنه يقول بوحدة الوجود أو ما شابه ذلك!.

كما أن **نفي الاتهام وُضع ليميز بين الطعن في الأشخاص ومناقشة الأفكار**، فلسنا هنا معنيين بشخص قطب -رحمه الله- جرحًا أو تعديلًا على طريقة المتسلفين الجدد الذين شوهوا علمًا جليلًا اسمه «الجرح والتعديل» فجعلوه مطية لادعاءاتهم وتصفية حساباتهم مع خصومهم!.

إنه يجب الفصل - بحدة - بين الأفكار والأشخاص، وبين صحة الأفكار وتضحية أصحابها ومصيرهم، **فموت الأشخاص في سبيل فكرة لا يعني صحتها**، ولكن لا شك أننا نقدّر هذا الصدق والإخلاص للأفكار - مهما تكن - وقد عزّ في زماننا!. فهذان **موقفان متمايزان: موقف أخلاقي نلتزمه، وموقف فكري نناقشه ونأخذ منه وندع.**

سيد قطب فوق الاتهام بوَصْفه شخصًا دفع حياته ثمنًا لأفكاره، وشَهِد أنّ شرع الله -وفق اجتهاده وإن اختلفنا معه- أغلى من حياته، ورفض أن يشتري الحياة الزائلة بكذبة لن تزول! وقال: إنه يرفض أن يكتب بسبّابةٍ توحّد الله ما يضارّها!. وهو القائل: «إن

كلماتنا ستبقى عرائس من الشموع حتى إذا مِتنا من أجلها انتفضت حية وعاشت بين الأحياء»، وهذا ما يجعل من الفصل بين صحة الفكرة وتضحية أصحابها في سبيلها صعبًا على المستوى المنهجي، فالناس تتعاطف دائمًا مع الضحية، وأفكار الموتى تتقدس، فكيف بِمَن وُصفوا بالشهادة؟ إنها بهذا تتغذى من مَعين الثورية والقدسية معًا!. وهذا من شأنه أن يزيد الأمور تعقيدًا، ويصعّب الأمر على الباحثين في فكر سيد رحمه الله.

لم يَدُر في خلدي يومًا أن أخصص كتابًا موضوعه سيد قطب، إلا أن وقفة العلامة الشيخ يوسف القرضاوي «مع الشهيد سيد قطب» في مذكّراته التي نشرها، وقوله: إن سيدًا رَكَن إلى التكفير وتَوَسع فيه، أثار انتقاداتٍ استدعت فكر الرجل، فنهض الشيخ للدفاع عن رأيه وكتب ما نُشر تحت عنوان «هل يُكَفر قطب مسلمي اليوم؟»، فزادت الانتقادات، ووجدنا أنفسنا متورطين في الموضوع، فخصصتُ ملفًّا عن الموضوع نُشر على موقع إسلام أونلاين سنة ٢٠٠٤م، قرأه الشيخ القرضاوي كاملًا، ثم كتب ما أسماه «كلمة أخيرة حول سيد قطب»، علّق فيها على ما جاء في الملف من مقالات وشهادات وانتقادات، ثم هدأت القضية وخِلتُ أن المعالجة بهذا كَفَت وَوَفت، حتى عادت المسألة إلى ساحة المناقشة والجدل من جديد في سنة ٢٠٠٩ حينما تحدث الشيخ القرضاوي – مرة أخرى – عن موقفه من سيد قطب في برنامج «منابر ومدافع» على إحدى الفضائيات المصرية: «فراعين»، فعاد السجال سيرتَه الأولى واحتدم، وانقسم الناس فِرَقًا!. وهذا ما استدعاني مرة أخرى إلى تخصيص هذا الكتاب عن الشهيد سيد قطب – رحمه الله – وفكره.

ومن المهم هنا أن نبيّن تاريخ الاهتمام بفكرة التكفير؛ فقد بدأت في السجن أولَ الأمر، حين انتشرت بين مَن سُمّوا «إخوان ١٩٦٥م» داخل المعتقلات، وأثارت فتنةً عارمة في صفوف الإخوان استدعت – في حينها – أن تُصدر الجماعة سنة ١٩٦٩م كتاب «دعاة لا قضاة» بتوقيع المرشد العام حسن الهضيبي رحمه الله، الذي تمّ تداوله بين صفوف الجماعة حتى إنه كان يُسمى «البحث»، وذلك لمحاولة ضبط الوضع خوفًا من انتشار فكرة

التكفير والحكم على معتقدات الناس.

ويبدو أن تلك الفكرة انتشرت بعد كتاب «المعالم» الذي تم تصنيفه في السجن قبل الإفراج عنه للمرة الأولى سنة ١٩٦٤م[1]، وقد تكون تلك المحنة -أعني فكرة التكفير- من آثار ذلك الكتاب، وقد رأى جمال باروت في مقاله الآتي أن حسن الهضيبي في كتابه يردّ على «معالم في الطريق» خاصة، مع أنه لم يذكر اسم سيد قطب ولا مرةً واحدةً في الكتاب!، لكن الشيخ القرضاوي – كما سيأتي – يعتقد اعتقادًا جازمًا أن الهضيبي وإخوانَه لم يقرؤوا ما كتبه سيد في ذلك الوقت، وإلا لَردّوا عليه بالاسم، في حين أن اسم المودودي والنقد الصريح له ورد في الكتاب المشار إليه. والسبب في ذلك -كما يرى الشيخ القرضاوي- أن كتابات قطب الجديدة لم تكن انتشرت في ذلك الوقت، ولذلك كانت كل المحاورات والمجادلات تدور حول ما سمعه بعض الأشخاص من سيد مشافهة.

الموجة الثانية من فكرة التكفير- إن صح التعبير- كانت في سنة ١٩٧٢م في الذكرى السادسة على استشهاد سيد قطب -رحمه الله- فقد أفردت مجلة «الشهاب» التي كانت تصدرها الجماعة الإسلامية في لبنان، صفحاتٍ للحديث عن سيد وفكره في ذكراه، بدأت بمقالة لمحمد البدري بعنوان «سيد قطب في يوم ذكراه» نقل فيها عمن «مكث مع سيد قطب عشر سنوات لا يفرقهما إلا نداء السجان عند الغروب ليدخل كلٌّ إلى زنزانته، ويجمعهما الصباح من جديد ليقضيا يومًا كله علم وفكر ودراسة في ظلال القرآن، فكان تلميذَ السيد وحواريَّه وحاملَ فكره والداعي إليه. هكذا قال عنه السيد نفسه رحمه الله، وهكذا عرفه إخوانه».

في تلك المقالة يتحدث هذا الحواريّ عن ظروف نشأة تلك الأفكار، والضغوط والملابسات التي عاشوا فيها فولّدت تلك الأفكار، وينقل عن سيد قوله: إنه غيّر في

(١) ينبغي التنبيه إلى أن أصل كتاب المعالم مستلٌّ من كتاب «في ظلال القرآن»، مع زيادات عليه. ويظن البعض أن الكتاب كان السبب في إعدام سيد قطب، ولكن ذلك غير دقيق؛ فالكتاب نُشر في عهد عبد الناصر، ويبدو أن السلطات لم تدرك خطورة الكتاب وقتها.

الأصول لا في الفروع، ونقل فيها البدري عن حواريّ قطب هذا الذي لم يُسمِّه قوله: «وما أحسب سيد قطب والله -بما عرفته فيه وخبرته منه- لو امتدّ به الأجل، واستقبل من أمره ما استدبر، ورجع إلى دنيا الناس وواقع الحياة إلا غيّر وجدّد ورأى غير ما كان يرى، وقال غير ما كان يقول».

لكن مقالة البدري أثارت ردودًا من المتحزبين لقطب، فكتب حامد أبو ناصر: «ليس في فكر سيد ما تدعو الحاجة لتعديله»، وفيه رأى أن سيدًا «بنى آراءه وأفكاره على أصول راسخة رسوخ الجبال»، ويقدم النصح للبدري وأمثاله بالقول: «نحن ننصح لهؤلاء أن يحتفظوا بأفكارهم ويتركوا شباب الدعوة وجيلها الجديد يتسلح بهذه الأفكار ويشق طريقه من خلال ظلام الجاهلية ليعيد الصرح الإسلامي الجديد»، ويتساءل عن الشيء الذي سيغيره قطب لو امتد به الأجل، «وهل العقائد عرضة للتغيير والتبديل حسب ظروف الفسحة والشدة؟». «صحيح أن الذي يستقصي حال المجتمع من الخمسينيات وحتى السبعينيات يجد أن المجتمع قد انتقل نقلة بعيدة، ولكن في مجال البعد عن الله عز وجل، ويجد أن التجدد فيما يقدمه اليهود وأتباعهم لهذه الأمة من موضات فكرية وتقليعات في العادات واللباس».

إن صاحب هذا المقال يلح على استمرار الجاهلية، وأن المسألة مسألة عقيدة لا تتغير، ولا بد من إقامة صرح الإسلام الجديد.

في أعداد لاحقة، كتب ع. أبو عزة مقالين بعنوان: «الحركة الإسلامية في الدوامة»، رأى في جزئه الأول أن الحركة الإسلامية حققت أعمالًا مجيدة، لكنها تواجه اليوم -أي أوائل السبعينيات- فراغًا فكريًّا مريعًا، أما في جزئه الثاني (عدد ١٧ السنة السادسة ١٩٧٢) فقد استدعى وجهة نظر مخالفيه المفترضين فقال: «هؤلاء قد يحتجون - عادة - بأن هناك منهجًا حركيًّا مصوغًا مدوَّنًا متكاملًا ومطبوعًا في كتب تزخر بها المكتبة الإسلامية، وأن الحل الأمثل يكمن في تبني هذا المنهج... وهم يعنون بذلك ما تضمنه كتاب (معالم في الطريق) للشهيد سيد قطب رحمه الله».

ثم بدأ في نقد فكر قطب وكتاب المعالم فقال: «رغم قناعتي بإخلاص صاحب المعالم – رحمه الله – إلا أنني مقتنع كذلك بأنه جانَبَ الصواب في كثير من أجزاء الصورة التي تخيلها، والتي سماها الكثيرون من المتحمسين منهجًا، ورأوا فيها الخلاص». وكرر فكرة أن سيد قطب «صاغ منهجه وهو يعيش ظروفًا بالغة القسوة ويتعرض لاضطهاد بشع، ولقد استثارت فيه هذه الاضطهادات أعنف أنواع التحدي وأشد حالات الرفض، وقد عبّر عن هذه الأوضاع النفسية بعواطف مشبوبة وبأسلوب أدبي أخّاذ. وإذا كان له عذره فيما قال وكتب، فمن المؤسف أن لا يدرك بعض الشباب المخلص أن ما يقوله إنسان أو يكتبه في مثل هذه الظروف لا يمكن أن يكون معبِّرًا عن حقيقة رأيه فيما لو عاش ظروفًا طبيعية هادئة. إنها ليست منهجًا إسلاميًّا، إنها صرخات احتجاج عنيفة صادرة من قلب يتمزق ألمًا ويذوب حرقة من لهب الاضطهاد المتلاحق».

ويرسم أبو عزة ملامح التفكير الجديد المرجو من الحركة الإسلامية بإعادة تحديد موقف الفرد الإسلامي -بوضوح- من حركته، فرديًّا وجماعيًّا، وموقفه من أفراد مجتمعه من مسلمين وغير مسلمين، ومن الشعوب الأخرى، ومن العالم أجمع. ثم إعادة تحديد موقف الحركة الإسلامية من مجتمعاتها وحكام بلادها على اختلاف مسالكهم، ومن عامة المسلمين وغير المسلمين، إلى جانب ملامح أخرى.

فأبو عزّة كتب في الذكرى السادسة لقطب، نقدًا جذريًّا لفكر قطب، ومعالمه، واقترح إعادة التفكير من جديد في مجمل المسائل التي طرحها قطب بتحديد الموقف من المجتمع والحكام والأفراد وغير المسلمين والرؤية إلى العالم وغير ذلك. وهو المنهج الذي رأى أنه يغيب عن الحركة الإسلامية في وقتها، التي تعاني فراغًا كبيرًا.

أثارت كتابة أبي عزة انتقاداتٍ، فكتب محمد سلامة جبر في عدد لاحق ما عَنْوَنَه بـ«حاول أن يلغي بعشرة أسطر ما كتبه سيد قطب في عشر سنوات»، قال فيه: إن سيد قطب لقي «أحسن المعاملة بعد انتهاء البداية القاسية للمحنة، ووضع في المستشفى مدة سجنه، وسُمح له بالكتابة والنشر وزيارة الأهل له بانتظام...»، وإن سيدًا «اعتصم

بالدليل في كل ما كتب، وفي كل ما خطّ من منهاج وغاية»، وإن وجوب الرد على أبي عزة ليس مبعثه الحرص على مقام سيد في النفوس فقط، بل الحرص على عدم التشكيك في الغاية التي حددها سيد والمنهاج الذي رسمه أيضًا.

ثم كتب محمد توفيق بركات مقالًا بعنوان «النقد بين الموضوعية والتشكيك»، ردّ فيه على أبي عزة، وأعاد القول: إن الأستاذ سيدًا «كان في جو يسمح له بالكتابة مدة سبع سنوات حيث انقطع التعذيب تقريبًا في أعوام ١٩٥٨م إلى ١٩٦٥م، حين اعتُقل ثانية»، وقال: إن الموضوعات التي اقترحها للتفكير قد «أجاب عليها سيد قطب بصورة مفصلة، وأجاب على موضوعات أخرى لم يخطر لأبي عزة أن يومئ إليها!».

ثم كتب حامد الرفاعي «فكر سيد قطب يواجه التحديات»، ورأى أن هناك «هجمة عنيفة ومركزة تستهدف فكر المجاهد الشهيد سيد قطب طيّب الله ثراه»، ورأى أن تلك الهجمة مشبوهة، وتساءل في آخر المقال: «ما هي الفائدة المرجوة وفي مثل هذه الظروف القاسية المريرة التي تعانيها الحركة الإسلامية في كل مكان، من الخوض في مثل هذه الموضوعات على افتراض وجودها...»؟.

ثم كتب صالح عرفان مقالًا رأى أن سيدًا «رسم صورة حقيقية لمجتمع خبره وعرفه عشرات السنين»، وأنه قد «شهد لكتاب المعالم كبار رجال الفكر الإسلامي، بل إن الأستاذ علي الطنطاوي وصفه بأنه أفضل كتاب أُلّف في العشرين سنة الأخيرة»، وأن سيدًا «كتب المعالم في الفترة الأولى من سجنه وليس في الفترة الثانية التي تعرّض فيها لاضطهاد أبشع وأقسى، أي في نفس الفترة التي كتب فيها الظلال» [1]، وإلا علينا أن

(١) تأمل إصرار ثلاثة من الكتّاب على التخفيف من وطأة السجن أو تصويره على أنه مريح؛ للرد على فكرة أبي عزة!. مع أن محمد البدري حين نقل عن حواريّ سيد وصفه للظروف والضغوط والأجواء التي وُلدت فيها الأفكار لم يتطرق إلى فكرة التعذيب أصلًا!. فلو أخذنا برأي الناقدين أنفسهم بشخصية قطب، وأنه كان مرهف الإحساس أديبًا، فإن الأثر المعنوي للسجن أبلغ من مسألة التعذيب، ولنا في محمد الماغوط خيرُ مثال على أثر السجن في بنائه النفسي وتفكيره، مع أنه سُجن لمدة قصيرة جدًّا، ولا أعرف أنه لقي تعذيبًا ولم

نسلم بأن الظلال أيضًا صرخات!. ثم «إن كبار المفكرين وأصحاب المذاهب الفكرية والمذهبية كتبوا أحسن ما كتبوا وهم في السجون»، والمرحوم سيد هو الوحيد صاحب المدرسة الفكرية الجديدة من بين أبناء الدعوة بعد المرحوم حسن البنا، هو الوحيد الذي زوّد الدعوة بآراء واجتهادات جديدة وجريئة وواثقة.

وقد دفعت هذه الردود ع. أبو عزة إلى إثبات أن سيد قطب يكفّر عامة المسلمين، فكتب مقالًا مطوَّلًا عن «التكفير والجاهلية» نُشر على ثلاثة أجزاء[1]، أورد فيه نقولًا من كتاب المعالم تحتوي على التكفير، ثم بيَّن موقف العلماء من التكفير.

الموجة الثالثة من التكفير –إن صحّ التعبير كذلك– كانت في سنة ٢٠٠٤م حينما تَعرَّض الشيخ القرضاوي– أثناء كتابة مذكراته– إلى موقفه من سيد قطب، وأنه رَكَن إلى التكفير ومال إليه، فأثار كلامه انتقادات عديدة كان بعضها حادًّا، فاضطُرّ لجمع النصوص المؤيدة لكلامه من كتب قطب: الظلال، والمعالم، والعدالة الاجتماعية، وهذه الموجة التي ساهمتُ فيها بالإعداد والتحرير والنشر على شبكة إسلام أونلاين. ثم أُعيد فتح الموضوع سنة ٢٠٠٩م حينما تحدث في البرنامج المشار إليه سابقًا، وأثار انتقادات غلب عليها الانفعال والإنشاء، نُشرت على شبكة إسلام أونلاين ولم نتعرض لها في هذا الكتاب؛ لأنها تفتقر إلى العمق والجدية، مكتفين بانتقادات سنة ٢٠٠٤م.

وقد بدأ نَقْد القرضاوي لأفكار سيد قطب مبكرًا في بداية الثمانينيات من خلال نقده لموقف قطب من الاجتهاد الفقهي، ودوّن ذلك في كتابه «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية»[2]، وكذلك بدأ نَقده في مسألة التوسع في التكفير أثناء مشاركته في أحد مؤتمرات البحرين

يتحدث عن تعذيب، ووصف إحساسه بالسجن فقال: «أحسست أن بداخلي شيئًا تَحطّم، فكل كتابتي – بعد السجن – من مسرح وشعر وسينما وصحافة كانت حتى أرمم هذا الكسر، وما قدرت على ترميمه حتى الآن»!.

(١) نشرنا هنا في هذا الكتاب جزأيه الأول والثاني.

(٢) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٥م، وأصله بحث لملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر سنة ١٩٨٣م، ثم طوره.

مطلع الثمانينيات فيما أحسب.

والمتأمل لتاريخ الحركة الإسلامية الإخوانية تحديدًا، يدرك أن فيها علامتين بارزتين بعد مؤسسها حسن البنا، وهما قطب والقرضاوي، فأحسب أن القرضاوي شغل فراغًا كبيرًا عانى منه الإخوان، من حيث «غلبة الجانب العملي والجهادي على الجانب العلمي والفكري»[1]، وهذا الفراغ كان الدافع لمحاولة تلقيح فكر الإخوان المسلمين بفكر «الجماعة الإسلامية» في شبه القارة الهندية [2]. بل إن جهد القرضاوي يتضح بجلاء في تنظيره للحركة الإسلامية، وتأصيله لقضاياها تأصيلًا «شرعيًّا» يصل التراث بالمعاصرة، وفق مسلكيته الوسطية، وهذا ما يميزه عن كاتب بحجم الغزالي - رحمه الله - على عمق أفكار الغزالي ووضوح اتجاهه الإصلاحي.

ويتضح هذا الفراغ الذي شغله القرضاوي، في مجيئه بعد سيد قطب الكاتب الكبير الذي كسبه الإخوان في صفوفهم، لكنهم غصّوا به وبفكره، فالفراغ الذي عانوا منه، والتلاقح الذي حصل من فكر المودودي، توّجه انضمام سيد قطب إليهم، وتطويره لأفكار المودودي: الحاكمية والجاهلية، وهو ما أحدث انتقادًا واسعًا داخل الجماعة نفسها، وبقي محلّ جدل حتى الآن، إذ لا تزال تعزى ظواهر العنف والتكفير إلى سيد قطب بوصفه الأب الروحي لها[3].

وفي الواقع ساهمت جهود القرضاوي في رأب الصدع الذي أحدثته أفكار سيد قطب، التي خالف فيها دعاة الحركة الإسلامية قبله، وأبرزها أربعة أفكار بالغة الخطورة: الأولى: «الحاكمية السياسية» التي استعارها من المودودي، وعنها برزت فكرة تكفير

---

(١) القرضاوي، ابن القرية، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٢م، ١/ ٣١٩.، وانظر اجتماعه مع عدد من إخوانه بدافع شعورهم بأن الجانب الفكري في الجماعة يجب أن يُنمّى وأن يؤصّل في ٣/ ١٥٥.

(٢) انظر: القرضاوي، ابن القرية، ١/ ٣١٩، وخليل علي حيدر، الحركات الإسلامية في الدول العربية، الإمارات: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، ١٩٩٨، ص٢٣-٢٤.

(٣) سيأتي الحديث عن سيد قطب وجماعات العنف في هذا الكتاب.

الأنظمة القائمة، والثانية: أنه بنى على فكرة الحاكمية تكفير المجتمعات المسلمة وأنها لا بد أن تدخل الإسلام من جديد عبر شهادة أن لا إله إلا الله على معنى الحاكمية المطلقة، والثالثة: أنه قدم مفهومًا جديدًا للجهاد اعتبره فيه حربًا على العالم بأسره، والرابعة: أنه لا معنى – برأيه – لما يحاوله علماء العصر من تطوير الفقه الإسلامي أو تجديده أو إحياء الاجتهاد فيه، ما دام المجتمع المسلم غائبًا من أصله. فإيجاد المجتمع المسلم يسبق الاجتهاد له لحل مشكلاته.

لم يكن القرضاوي في تلك المرحلة قد برز كاتبًا مشهورًا، فهو حين خرج من مصر ١٢/ ٩/ ١٩٦١م لم يكن له إلا كتابان [(١)] هما: الحلال والحرام، والعبادة في الإسلام، وهما كتابان لا يبدو فيهما البعد الشمولي للإسلام ذي الغائية السياسية. وأحسب أن هذا البعد– على مستوى الكتابة – ظهر متأخرًا بعد إعدام سيد قطب، والنكبة، وقد قام مشروعه – في أصوله الكلية –على عكس مشروع سيد قطب تمامًا، فهو بكتابته كتاب (الحلال والحرام) لمسلمي الغرب، يجتهد لمسلمين في مجتمع غير مسلم أصلا، في حين أن قطبًا يمنع الاجتهاد للمجتمع المسلم نفسه بحجة أن إسلامه غير صحيح!. وعلاقة القرضاوي بالغرب ليست علاقة مفاصلة، والجهاد لديه دفاعي وليس هجوميًّا على عكس قطب، والمجتمعات الإسلامية إسلامها صحيح لكنه يحتاج إلى «ترشيد»، ولذلك كتب كتبه العديدة في «ترشيد الصحوة»، بل إن القرضاوي قد آثر مناقشة أفكار قطب والرد عليه في مسائل عديدة بدأت بفكرة الاجتهاد، وانتهت بفكرة تكفير المجتمعات المسلمة.

بل إن القرضاوي أدرك ذلك الفراغ الفكري في الحركة الإسلامية وراح يملؤه، أولا من حيث إنتاجه الوفير في مجالات العلم الشرعي والفكر والحركة، ثم في إدراك نقطة الضعف الأساسية في مشروع قطب وهي «أنه كان شديد الإعجاب بعلامة الهند الكبير الأستاذ أبي الأعلى المودودي وأنه اقتبس –تقريبًا– جميع الأفكار التي كانت موضع

(١) كتب بعض الرسائل الصغيرة مثل «قطوف دانية» و«رسالتك أيها المسلم» وغيرها. انظر: ابن القرية، ٢/ ٢٩١.

الانتقاد في مشروع المودودي»[1].

والقرضاوي مع هذا، أفاد من قطب ومن المرحلة التاريخية التي عاش فيها، فقد قطف ثمار الصراع مع القومية والتقط اللحظة المناسبة للكتابة في النظام السياسي الإسلامي بوصفه حلًا حتميًا، وذلك بعد إعدام قطب وفي ظل نكبة القومية العربية. جاء ذلك في سياق توسع شعبي ملموس لدائرة النشاط الديني وبروز بوادر «الصحوة الإسلامية»، ولهذا فقد «نجحت المرجعية الإسلامية في جذب جمهور واسع لأنها قادرة كعقيدة دينية على تجاوز التقسيمات التقليدية التي كانت تفرزها العقائديات الحديثة الطبقية والفكرية، وفتح المجال أمام تكوين تآلفات سياسية جديدة... لا تقبل ولا تقصي إلا على أساس معيار واحد: إعلان الانتماء للإسلام والأخذ به شعارًا سياسيًّا إضافة إلى ما يمثله بشكل طبيعي كدين»[2].

بهذا المعنى، يمكن فهم وسطية القرضاوي، وإضافته التي قدمها للحركة الإسلامية، لجهة ترشيد الحاكمية والصحوة الإسلامية، ولجهة ممارسة الاجتهاد الفقهي، وبهذا المعنى شكّل رافدًا كبيرًا لإزالة الغلو والتطرف الذي طرأ على الحالة الإسلامية بفضل تنظيرات المودودي وسيد قطب «الانفصالية»، وما لحقهما من جماعات تَغَذت على أفكارهما [3]، وهذا المعنى الذي أشرحه لم يتنبه إليه بعض دعاة العلمانية من خصومه الذين يخوضون معارك شخصية وأيديولوجية معه ومع فكره، دون إدراك للحالة الفكرية والاجتماعية العامة التي سادت منذ السبعينيات وحتى الآن، وكيف أنه شكّل صِمَام أمان حال دون توسع مزاج التشدد وأفكاره فبقي مقصورًا على جماعات وفئات معزولة هنا وهناك.

---

(1) القرضاوي، ابن القرية والكتاب، ٣/ ٦٥-٦٦.

(2) برهان غليون، نقد السياسة: الدولة والدين، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٤م، ص٢٨١-٢٨٢.

(3) يرى فهمي جدعان أن نزعة الانفصال والتقابل لم تنجم إلا مع المودودي وسيد قطب والجماعات المنعوتة بالأصولية، بفضل فكرة الحاكمية التي جعلت «الحكم الإسلامي» مبدأ لكل فعل في المجتمع والدولة. انظر: فهمي جدعان، في الخلاص النهائي، عمّان: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٧م ص٣٢٢.

باختصار، جاء مشروع القرضاوي ضد مشروع قطب الذي تعاطى مع الإسلام كتلةً واحدة لا تقبل التجزيء ورأى أن الأمة المسلمة انقطعت، وفَرْقٌ ما بينهما فرقُ ما بين الداعية المناضل، والداعية الفقيه.

إنه بالرغم من رأينا السابق، فإن فكر قطب يبقى فكرًا جدليًّا يثير الكثير من التساؤلات عن سياقاته وكيفيات تَشَكُّله وتحولاته، وعن علاقته بالتكفير، وبجماعات العنف، وبتنظيم ٦٥، وبفكر الإخوان، وغير ذلك من مفاهيم كالجاهلية والحاكمية وغيرهما.

إن هذا الكتاب حول «سيد قطب»، يتناول علاقة فكر قطب بقضيتين رئيسيتين هما: التكفير، والعنف، وهو إذ يفعل ذلك يُظهر اختلاف أنظار الناس في فهم مقولاته، وقراءة فكره في سياقه العام، ولكلٍّ وجهةٌ هو مُوَلّيها. والجدل حول «سيد» ليس جديدًا، ولا ضيقًا، ومع ذلك فهو يلقى تعاطفًا كبيرًا في أوساط الإسلاميين، مقابل خصومة شديدة من غيرهم، والبعض يرى فيه ابتعاثًا لفرقة الخوارج التي ظهرت في القرن الهجري الأول ورفعت شعار «لا حكم إلا لله». وبعضٌ آخر يرى أنه أسس للتشدد الديني ومهّد لحركات التكفير والهجرة التي عرفتها الساحة العربية والإسلامية في الثمانينيات وما بعدها.

لأجل ما سبق كله فتحنا الباب لمختلف وجهات النظر، فهو بالاعتبار الأول ربما يقرؤه البعض على أنه جدل «حزبي»، **وعلى الاعتبار الثاني نرى أنه موضوع راهن له صلة بالحديث عن العنف والدولة ورؤية حركات الإسلام السياسي والتغيير والإصلاح.**

تناول هذا الكتاب على المستوى المنهجي ثلاثة محاور:

- **مقالات تحليلية** عن فكر قطب انشغلت بأسئلة رئيسة هي: السياق التاريخي لنشأة فكر قطب والموازنة بينه وبين البنا (طارق البِشْري)، وعلاقة فكر قطب بفكر جماعات العنف والصلة الفكرية بينهما (معتز الخطيب)، ثم قضية التكفير عند قطب وهل يكفر المجتمع؟ (القرضاوي وجمال سلطان ويحيى هاشم)، وموقف حركة الإخوان من فكر قطب والقطبية (جمال باروت).

- **نصوص لقطب** من كتبه الثلاثة: في ظلال القرآن، ومعالم في الطريق، والعدالة الاجتماعية في الإسلام، تحمل -بحسب البعض- تكفيرا منه للمجتمع، وهي -بحسب آخرين- مشتبهة يجب تأويلها.

- **شهادات تاريخية**: وهي لها أهميتها المنهجية في الحديث عن فكر قطب، سواء لجهة فكر الرجل بشكل عام، أم لقضية التكفير على وجه الخصوص، وكذلك من جهة مكانة فكره، وتعاطي مَنْ حولَه مع انشغالاته وقراءتهم له، وهو ما يعتبر تأريخًا لمرحلة مهمة من تاريخ الحركة الإسلامية. وقد حَرَصتُ أن تكون الشهادات على قسمين: شهادات لأموات دوّنوها في مذكراتهم أو نحوها، وشهادات لأحياء كانوا مع سيد قطب، وخصوصًا من تنظيم ١٩٦٥م الذي ظهرت بينه قضية التكفير قديمًا سنة ١٩٦٨م لأول مرة.

وقد ختمتُ الكتاب بفصل مستقل خصصتُه للحديث عن الصراع بين السلطة والمعرفة، قدّم فيه رضوان زيادة قراءةً لذلك الجدل القديم المتجدد، من خلال الكتاب الشهير لقطب: «معالم في الطريق».

أما المشاركون في هذا الكتاب: فقد حرصتُ على تنوعهم بين إسلاميين وغيرهم، وبين إسلاميين مستقلين غير منتمين، وبين منتمين، وبين بعض الإخوان في توجههم العام وبين توجه تنظيم ١٩٦٥م، وأرجو بهذا أن أكون أتحت مختلف الآراء وَوَفيت الموضوع حقه.

وقد حرَّرت النصوص، وراجعتها، ووضعتُ لها -في الأغلب الأعم- عناوين فرعية تسهيلًا على القارئ.

واللهَ أسأل النفعَ والقبولَ والمغفرة والسداد، ورحم الله الشهيد سيد قطب وحشرنا وإياه في زمرة النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقًا.

معتز الخطيب

الدوحة ٢٢-٨-٢٠٠٩



الفصل الأول

قطب.. ومسؤولية العنف

سيد قطب.. قراءة تاريخية

المستشار طارق البشري [1]



حينما أُرتجت أبواب التعبير عن الموقف الإسلامي من حيث هو نظام شامل ومصدر للشرعية لنظم الحياة والمجتمع، كانت الاستجابة داعية للمفاصلة مع النظم السائدة، وهذا ما نلحظه في فكر المودودي وقطب، وبوجه خاص في فكر سيد قطب.

ونحن عندما نتحدث عن فكر سيد قطب إنما نقصد بوجه خاص ما أنتج هذا المفكر في الخمسينيات والستينيات دون ما صدر له من أعمال قبل ذلك؛ فإن ما يميز هذا الفكر في هذا المقام مما كان له أثر خاص في تاريخ الفكر والحركات السياسية الإسلامية الحاضرة، هو ما ورد في الصياغة الأخيرة لتفسيره «في ظلال القرآن»، وفي كتابه الذي شعر بخطره أنصاره وخصومه على السواء: «معالم في الطريق».

في الخمسينيات والستينيات كانت الحركة الإسلامية مضروبة في رجالها وتنظيماتها، وكان الفكر السياسي الإسلامي مستبعدًا عن المشاركة في تحديد المفاهيم السياسية والاجتماعية ورسم السياسات. ورغم كل تحفظات قيادة الدولة في مصر وحذرها مما أسمته «استيراد الأفكار»، وحرصها وحرص دعاتها على الترويج لِمَا سمي بالنظم المنبثقة عن واقع المجتمع وتاريخه، رغم ذلك فقد غلب الطابع العلماني في صياغة مجمل الأفكار والمؤسسات والنظم ورؤى المستقبل، واكتسب «المثال» الغربي قدرًا كبيرًا من السيادة في

(١) مفكر ومؤرخ مصري. والمقال يشكل الجزء الأخير من دراسة للمستشار البشري بعنوان «الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر»، اقتطعنا منها ما يتصل بالحديث عن «سيد قطب» فقط، وهي منشورة ضمن كتاب «الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية» لعدد من المفكرين والباحثين، تحرير د. عبد الله النفيسي.

القيم السياسية وفي العادات وأساليب العيش، وفي هذه الظروف ظهر من تحت الرماد وميض ما عُرف بفكر سيد قطب.

فكر قطب.. نهج فارق وفاصل

كان قطب يؤكد على مفهوم الحاكمية لله وحده، في جميع مجالات حياة البشر، ويؤكد على أن عقيدة الإسلام لا تتحقق بمجرد القيام بالعبادات؛ لأن طاعة الله مطلوبة في شؤون الحياة كافة، والصلاة لا تؤدي وظيفتها إذا لم تنه عن الفواحش، والتشريع لا ينفصل عن الإيمان، والشريعة لا تنفصل عن ذكر الله.

إن مجمل هذه الأفكار سائد في الفكر الإسلامي عامة، ولكن سيد قطب أقام هذا الفكر على نهج فاصل وفارق، فهو - فيما يؤكد عليه - لا يتعامل مع الأفكار المغايرة ولا يقيم معها جسورًا، ولا يتوجه إليها بحوار، فهو فكر صِيغ على وجه يهدف إلى المجانبة وليس إلى التغلغل والانتشار. وقطب يبدأ بمقولة صحيحة لا ينكرها مسلم، وهي أن الحكم لله وحده، ولكنه يستخلص من ذلك أن كل تشريع وأي قانون نضعه إنما يتضمن معنى الشرك بالله سبحانه، ومن ثَم فهو مسلك جاهلي، **واعتبر دعوته إنما تقوم لإنشاء الدين إنشاء، أي أنها دعوة لاعتناق عقيدة الإسلام، حتى لو كانت بين قوم يدعون أنهم مسلمون**، واعتبر موضوع التجديد في الفقه الإسلامي موضوعًا مرجئًا؛ لأن شرط التجديد أن يوجد الإسلام أولًا.

لا صعوبة في بيان وجوه المغالاة في هذا الفكر الذي **يحصر المسلمين في نطاق «طليعة» محدودة، ويحسر هذا الوصف عن جمهور الأمة المطلوب إنشاء الدين فيها إنشاء**، على أننا لا نريد هنا أن نحاكم فكرًا، ولا يكفينا أن نصف أي فكر أو حركة بالاعتدال أو بالتطرف ونسكت. إنما علينا أن نتساءل: لماذا يظهر نهج فكري وحركي معين؟ ولماذا ينمو أو يخبو؟ ثم علينا أن نعرف أن الاعتدال والتطرف هما حكمان يُنسبان إلى ظرف معين أو وضع خاص. وإن الفكرة الواحدة يتغير وصفها ومؤداها من حيث التطرف أو الاعتدال بتغير الظرف الذي تعمل فيه؛ لأن الحكم يتعلق في صميمه بمدى الملاءمة مع واقع الحال. بل

أكاد أقول: إن وجهي التطرف والاعتدال قد يكونان نافعين في الظرف التاريخي الواحد، وذلك إذا توجه كل منهما إلى ما يُسِّر له. ونحن هنا بصدد الحديث عن فكر وحركة سياسية، وفي السياسة يتوقف النجاح على حسن إعمال كلٍّ من سلاحي التشدد والتهاون، كل في مجاله وفي ظرفه.

نحن لا نحاول أن نُجري تلفيقًا بين فكرين، ولكننا نحاول أن نفهم وظيفة كل صيغة فكرية في إطار أوضاعها وما يلابسها، **وخطأ المدارس الفكرية في علاقاتها مع بضعها أن كلًا منها لا يدرك وظيفة الأخريات في جوانب معينة من واقع الحال**، فهي تتضارب بدلا من أن تتعاون، وهي تضع مقاييس الحكم على أساس من الصواب أو الخطأ المطلقين، رغم أن المعيار هنا نسبي يقاس بملاءمة الاستجابة للأوضاع القائمة، وما قد تقتضيه أحيانا من تعدد الأدوار.

بين قطب والبنا

إن سيد قطب صاحب فكر يختلف كثيرًا عن فكر حسن البنا -رحمهما الله- ولكن الأمر لا يقوم بالمقارنة بموازين مطلقة، إنما يجري وصف كل فكر وظروف إعماله، وفكر حسن البنا -لمن يطالعه- فكر انتشار وذيوع وارتباط بالناس عامة، وهو فكر تجميع وتوثيق للعرى. وفكر سيد قطب فكر مجانبة ومفاصلة وفكر امتناع عن الآخرين. فكر البنا يزرع أرضًا وينثر حبًّا ويسقي شجرًا وينتشر مع الشمس والهواء، وفكر قطب يحفر خندقًا ويبني قلاعًا ممتنعة عالية الأسوار، والفرق بينهما هو الفرق بين السلم والحرب.

لقد نشأت جماعة الإخوان كتنظيم علني منشور، ثم ما لبث أن ظهر بداخلها ما عرف باسم «النظام الخاص»، وهو تنظيم أكثر إحكامًا وأوثق رباطًا يمثل كتيبة صِدَام عندما تظهر الحاجة لكتائب الصدام، ولا سيما أن البلاد كانت محتلة. ولكن وجود التنظيمين في بُردة واحدة لم يكن له أن يبقى طويلا؛ لأن لكل من التنظيمين تكوينه المتميز والوسط الملائم الذي يحيا فيه، من حيث اختبار الرجال والعلاقات التنظيمية وأدوات العمل ووجوه العطاء المطلوب والمبذول.

والمفروض أن يكون لكل منهما فكر أو «فقه» يلائم وظيفته، الانتشار أو الصدام، والفكر هو ماء الحياة. وماء الحياة الذي يلزم لجماعة مفتوحة تعمل لنشر دعوة بين العامة، ليس هو ماء الحياة الذي يلزم لجماعة أعدت نفسها كتيبة صدام وعضلة امتناع ومحاربة. وليس الفكر اللازم لبناء مجلس نيابي هو عينه الفكر اللازم لبناء جيش مقاتل، ولا الرجال هم هم، ولا علاقات العمل ومستويات النظم هي هي. لذلك فقد حدث بين نظامي جماعة الإخوان ما عرفنا عن وقائع الحركة الإسلامية في نهايات الأربعينيات وبدايات الخمسينيات.

لم يكن سيد قطب في ذلك الوقت من رجال المغالاة في الفكر السياسي الإسلامي، ولم يعرف «النظام الخاص»، ولكن ظروف الخمسينيات والستينيات من بعد، والأوضاع التي خضعت لها تجربته الفكرية وملكاته الوجدانية والعقلية، كل ذلك اجتمع ليُخرج من يَراع هذا الرجل جوهر الفكرة الأساسية التي تقوم عليها كتائب الصدام، وقدم الرجل حياته ثمنًا لهذا الصنيع.

وقد تبلور فكران، فكر الانتشار وفكر الصدام، وقام كل على ساقه ليؤدي الوظيفة التي ترشحها له الظروف في كل حال وتنميها الأوضاع في كل آن. ونحن لا نقول إن السلام أفضل ولا إن الحرب أوجب هكذا على نحو مطلق، إنما الأفضلية والأولوية بينهما تكون منسوبة إلى ظروف الحال، وهكذا الحال في الفكر الذي يغذي أيا من النشاطين. وإن الواقع الحي يعلمنا أنه لا سلام إلا مع القدرة على الحرب، فكلا العنصرين مطلوب في الوقت عينه، وكلاهما يغذي الآخر ويتغذى به، شريطة أن يعرف كل منهما مجاله ومجال غيره، وشريطة أن نعرف القدر المناسب من كل منهما لعلاج الأوضاع العينية في كل عصر ومصر.

الفكر.. استجابة للتاريخ

إن الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث كما يتراءى لنا الآن هو حصيلة استجابات تاريخية لهذه المرحلة من حياة جماعة المسلمين، وإنه محصلة تراكمت عناصرها

لبنة لبنة، بواسطة عدد غير محصور من رجال الفكر والسياسة الإسلامية في عصرنا، ومنها أن الخلافات بين الاتجاهات المختلفة إنما هي خلافات تحسمها الحاجة التاريخية والاجتماعية للأمة الإسلامية في كل حال، وأن الحاسم في الحكم على الجوانب الإيجابية لكل اتجاه إنما يتعلق بمدى الاستجابة للشكل الأساسي الذي يطبع عصرنا كله، وهو مشكل التبعية ومطلب التحرر الإسلامي من هذه التبعية للأجنبي. وهذا ما يحدد وجوه التجديد ووجوه المحافظة وأنماط الوحدة والتنوع وأساليب الاعتدال والغلو وملاءمات كل وجه من وجوه النشاط.

وإن إيجابيات الاتجاهات المختلفة المختبرة يمكن أن يغذي بعضها بعضا لتتراكم في إدراك الأمة كأدوار متنوعة في نسق واحد منتظم. وإن التنوع مطلوب والأكثرية نافعة متى أمكن نظم وظائفها لتجيب على الوجوه المتباينة لواقع الحال بتعقيداته وتنوعاته، فيعين بعضها بعضا ويصوب بعضها بعضا بغير تنافٍ.

وإن الظرف التاريخي وأوضاع التحدي التي تقوم أمام الجماعة هي ما تولد أسلوب المواجهة للدفاع عن الإسلام والنهوض بالأمة الإسلامية بوصفها كيانا حيا، وهي التي تحدد وسائل الدفاع وأدواته. ونحن نحتاج في كل ذلك إلى قدر مقدور من الوحدة مع التنوع بدرجة لا يجلوها إلا التفاعل مع الواقع المعين.

سيد قطب.. وجماعات العنف

د. معتز الخطيب [1]



أول ما يُلحظ في التعامل مع فكر سيد قطب -رحمه الله- أن الكثيرين يقرؤونه بمعزل عن سياقه زمانًا ومكانًا وظروفًا، وتكوينًا شخصيًّا. وهذا يرتد إلى النزعة الإطلاقية السائدة لدى كثير من الإسلاميين حين يتصورون الأفكار متعالية تهبط من السماء، لا تنبع من الأرض. وهذه الملحوظة المنهجية لها تأثيرها الكبير في الموقف الذي سنتخذه مع أو ضد، ومن الأفكار التي سنناقشها سواء وصفناها بالتطرف أم بالاعتدال، فهما وصفان غير كافيين بذاتهما؛ دون النظر إلى بيئة تشكل ذلك الفكر، وروافده، وفي مواجهة من وماذا؟. هذا النظر سيؤدي بنا -**على مستوى الفكرة**- إلى مسألة أخرى لصيقة به وهي: هل يصلح لزماننا هذا كلًا أو جزءًا؟ وإن كان يصلح جزئيًّا فما التعديل الواجب عليه؟ وما الذي تغيّر؟.

وعلى مستوى الموقف سيؤدي بنا إلى تقدير أهمية الرجل في زمنه، وعدم غمطه حقه، لا تقديسًا ولا تهوينًا!. فقطب برز في خضمّ الصراعات الفكرية، وحصول «المثال» الغربي على قدر كبير من السيادة في القيم السياسية وفي العادات وأساليب العيش، وفي ظل صعود نجم الاشتراكية والفكر القومي لدرجة ظهور محاولات تحمل الربط بين الإسلام والاشتراكية والقومية، ولو عنوانًا.

فكر قطب.. وسياقه التاريخي

كانت الصراعات الفكرية الدائرة آنذاك، سواء التغريبية أم الإسلامية الإصلاحية، تعكس – في أحد جوانبها – حالة نفسية تجاه الغرب، انبهارًا بمنجزاته، ومع سقوط

(١) كاتب وباحث من سوريا.

الخلافة وقيام الدولة الوطنية العلمانية، سادت أجواء من اهتزاز الثقة بالنفس، وفي هذا السياق جاء السؤال الكبير والمؤثر الذي صاغه أبو الحسن الندْوي (١٩٥٠م) –رحمه الله– «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟»، واعتبره سيد قطب «من خير» ما قرأ من الكتب التي تتناول الإسلام كـ «عقيدة استعلاء، من أخص خصائصها أنها تبعث في روح المؤمن بها إحساس العزة من غير كبر، وروح الثقة من غير اغترار، وشعور الاطمئنان من دون تواكل، وتشعر المسلمين بالتبعة الإنسانية الملقاة على كواهلهم، تبعة الوصاية على هذه البشرية في مشارق الأرض ومغاربها، وتبعة القيادة في هذه الأرض للقطعان الضالة»، بعد أن انتكس المسلمون «إلى الجاهلية الأولى» –على حد تعبير سيد قطب في مقدمته للكتاب.

سيد قطب كانت كتاباته مشبعة بالحديث عن زيف الحضارة الجديدة، وجنايتها على الإنسان، وفقدان الرجل الأبيض لدوره. كان يكتب من منطلق استعلاء إيماني، **وكان مشروعه هو تجديد إيمان المؤمن بدينه، وشحذ همته، ليكون مؤهلًا لدور الوصاية**، فأعاد تعريف مفهوم «الجهاد»، وحمل على القائلين بكونه دفاعيًّا بشدة، واتخذ موقف المفاصلة من الأنظمة التي وصفها بـ «الجاهلية»، وتحدث عن ضرورة بناء الطليعة المؤمنة التي ستكون نواة للمجتمع الإسلامي على صورته الأولى، ونقاؤه لا يتأتى إلا من عزلته عن «الجاهلية» السائدة، ومن ثم فإن الحديث عن الاجتهاد الفقهي هو –بمنظوره– عبث قبل إنشاء المجتمع الإسلامي؛ فالاجتهاد يكون لمجتمع إسلامي لا جاهلي!.

كان الخيار الراديكالي للأمة حسب ما تُصوره نخبها في ذلك الوقت هو إما التغريب الذي كان يعني التقدم، أو الأسلمة والتي تعني لدى التغريبيين التخلف والرجعية، وكانت مظاهر المجتمع تسير باتجاه التغريب؛ الأمر الذي أدى إلى نشوء فكر الهوية، وهنا مثّل قطب أحد أركانه فبعث الكثير من الثقة في نفوس قرائه بدينهم ونصرته وعظمته، وزهّدهم بالنموذج الغربي وحضارته، وبين لهم أن الإسلام هو الحضارة حين رفض وصفه بـ «المتحضر». **والللافت أن قطبًا كان يرى أن دور الإسلام المنتظر يقتصر على دائرة القيم فقط**، والتي ترتكس فيها الحضارة المعاصرة، فقيادة العالم الغربي أوشكت على

الزوال؛ لأنه «لم يعد يملك رصيدًا من القيم يسمح له بالقيادة»، ولابد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التي وصلت إليها البشرية، عن طريق العبقرية الأوروبية في الإبداع المادي، وتزود البشرية بقيم جديدة جدَّة كاملة» هذه القيادة هي الإسلام كما يقول قطب[1].

لكن في المقابل لم يكن **نقاء تصورات قطب ونزعته الطهورية لتعكس بالضرورة واقعيتها، وصحتها أيضًا**، فقد كان مسكونًا بالمفاصلة الحدية مع جاهلية المجتمع، وبهاجس أن الصراع مع العالم بأسره ومع الأنظمة هو عقدي، وأن نقطة البدء في إقامة المجتمع الإسلامي هي تعبيد الناس - بحق - لله وفق مدلول الحاكمية عنده، التي هي من العقيدة (كلمة لا إله إلا الله)، ومن هنا كانت المفاهيم المركزية التي ميزت فكره هي: الجاهلية، والحاكمية، ومن باب هاتين الفكرتين (العقديتين) دخلت إلى الفكر السياسي الإسلامي والعمل الحركي جميع أفكار المقاطعة والتكفير والاستحلال واستباحة الدماء والأموال، وعدد من النتوءات التي نُسبت إلى الإسلام!.

لم تكن أفكار قطب تتناول مسائل فقهية فرعية، بل كان ينأى بنفسه عن ذلك أيضًا، ليس لأنه ليس بفقيه فقط، ولكن بناء على رؤيته الخاصة بخصوص «حضور» الفقه في المجتمع «الجاهلي»، وهو وإن لم يكن يهدف - كما يبدو وكما صرح هو في بعض نصوصه- إلى الحكم على الناس، **لكن أصول أفكاره هي أفكار عقدية، فهو قد جعل نظرية «الحاكمية» مسألة عقدية لصيقة بالإيمان والكفر، بل داخلة في مفهوم «التوحيد» الذي هو أخص خصائص مسائل الاعتقاد**، وربما يكون متأثرًا في تقرير هذا بعكوفه على كتب الإمامين الكبيرين ابن تيمية وابن القيم -رحمهما الله- في سجنه[2] حيث بلور «حاكميته»

---

(١) سيد قطب، معالم في الطريق، القاهرة، دار الشروق، المقدمة.

(٢) يقول أحمد عبد المجيد وهو من تنظيم ٦٥ الخاص في شهادته عن قطب: «حدث تغيير في أفكار سيد قطب، فعندما كان في مستشفى ليمان طرة، طلب من أسرته كتب الشهيد «حسن البنا»، والأستاذ «أبو الأعلى المودودي»، فبدأ يتنبه إلى أمور كانت غائبة عنه، خاصة في ضرورة التركيز على موضوع العقيدة، ثم بدأ

في صورتها الأخيرة في كتاب «المعالم»، وهو بهذا قدم للسلفية الجهادية المعاصرة مَعينًا ثريًّا أدركت من خلاله «الشرك المعاصر» الذي يعكر صفاء التوحيد، ولزم منه تكفير الحكام والأنظمة.

هذا فضلًا عن أنه شكّل مع المودودي - ومن قبلهما البنا - ريادةً لفكرة «النظام الإسلامي الشامل» طوالَ الخمسينيات، التي كان لها كبير أثر على رؤية الحركات الإسلامية لدورها، وذلك عندما كتبا في مكافحة الرأسمالية، ومحاسن النظام الاجتماعي والاقتصادي الإسلامي، كما كتب محمد الغزالي والسباعي -رحمهما الله- في مكافحة الشيوعية، وفي القراءة النقدية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، إلا أن قطبًا سقى ذلك النظام بفكره الثوري، وأمده ببرنامج عمل لتنفيذه في «معالمه»، وبيئة ذلك كانت أجواء القطيعة والاشتباك مع النظام الحاكم.

يقوم النزاع هنا كثيرًا حول مسألتين أساسيتين: الأولى هل لفكر قطب علاقة بجماعات العنف والجهاد التي ظهرت؟ والثانية: هل يتحمل قطب مسؤولية هذا كله؟

فكر قطب.. والفكر الحركي والجهادي

فيما يخص **المسألة الأولى**: يبدو للعديدين ولي أن **فكر قطب شكل مَعينًا لكل الفكر الجهادي والحركي**، ومن السهل أن نلحظ كاريزما قطب لدى عدد من الحركات الإسلامية بدءًا من الحديث عن علاقته بالتنظيم الخاص الإخواني ودوره في الانشقاقات التي حدثت داخله أثناء فترة سجنه حتى قيل: إن تنظيم الإخوان غصّ بفكر سيد فلا هو قدر على هضمه ولا هو قدر على لَفظه، مرورًا بعبد الله عزام رائد «الجهاد الأفغاني»، الذي يقول: «وجهني سيد قطب فكريًّا وابن تيمية عقديًّا وابن القيم روحيًّا والنووي فقهيًّا،

يطلب كتب «ابن تيمية» و«ابن القيم»، وبدأ التغير في تفكيره وكتاباته، وظهر ذلك جليًّا في الطبعة الثانية من الظلال، بدءا من الجزء (١٣) والأجزاء الأخيرة، وكتاب «خصائص التصور الإسلامي»، و«مقومات التصور الإسلامي» و«معالم في الطريق». (الشهادة منشورة ضمن هذا الكتاب).

فهؤلاء أكثر أربعة أثروا في حياتي أثرا عميقا»[١]. وكذلك يذكر أبو قتادة عن الظواهري أنه عاش شبابه «منفعلًا بما كتبه سيد قطب»[٢] إلى أن التقى شبابًا مثله وأسسوا التنظيم، كما أن أبا قتادة شديد الاحتفاء بفكر سيد قطب ويقول: إن «الحركات الإسلامية توقفت عمومًا في التقدم نحو الأفضل، ومن الأمثلة الصريحة على ذلك صنيع الإخوان المسلمين، فقد كان سيد قطب رحمه الله تعالى هو النتيجة الجيدة، والموقع المتقدم بعد حسن البنا» [٣]. وهو يعتبر الحركات «الجهادية السلفية» هي «الطائفة المنصورة»، وأن أول أسس شرعية عملها هو أن دار الإسلام «قد انقلبت إلى دار كفر وردة، لأنها حُكمت من قبل المرتدين، ولأن الكفر قد بسط سلطانه عليها من خلال أحكامه ودساتيره»[٤]، وهذا ذاته مضمون ما نجده لدى قطب في كتبه، ومع ذلك فهذا ليس حكمًا على الأفراد كما ينبه.

كما أن صالح سرية وهو صاحب أول تطبيق فعلي للعنف في مصر عام ١٩٧٤ (تنظيم الفنية العسكرية) يقول في «رسالة الإيمان» التي كتبها سنة (١٩٧٣م): «إن كل الأنظمة، وكذلك كل البلاد الإسلامية التي اتخذت لها مناهج ونظمًا وتشريعات غير الكتاب والسنّة فقد كفرت بالله واتخذت من نفسها آلهة وأربابًا. فكل من أطاعها مقتنعًا بها فهو كافر» معتبرًا هذا «الفرض الأول لأنها أساس التوحيد والشرك في هذا العصر»[٥]، ومحيلًا إلى سيد قطب. بل إنه اعتبر في مقدمة رسالته تلك أن من خير التفاسير لمعرفة التفسير الحق للقرآن «في ظلال القرآن» في طبعاته الأخيرة.

---

(١) عبد الله عزام، عملاق الفكر الإسلامي الشهيد سيد قطب، باكستان، مركز شهيد عزام الإعلامي، ط١، ص٢٧.

(٢) في تصريح مع كميل الطويل، أبو قتادة: الظواهري «حكيم الحركة الإسلامية» وكتاب الزيات عنه «انتقام» و«حالة شاذة»، الحياة ٢٠٠٤/٠٥/١٢.

(٣) أبو قتادة (عمر محمود أبو عمر)، الجهاد والاجتهاد: تأملات في المنهج، (نسخة إنترنت) فصل (الجهاد والتغيير)، ص٤٥.

(٤) المرجع السابق، ص٤٨.

(٥) انظر: صالح سرية، رسالة الإيمان، ضمن: رفعت سيد أحمد، النبي المسلح ١٩٩١م.

وبالرغم من أن محمد عبد السلام فرج صاحب الدور البارز في اغتيال السادات، لم يأت على ذكر قطب في «الفريضة الغائبة» الذي كتبه ١٩٨١م وشحنه بنقول عن ابن تيمية إلا أن جوهر الكتاب يقوم على البدء بجهاد الأنظمة الكافرة، وأن «الأحكام التي تعلو المسلمين اليوم هي أحكام الكفر» على حد قوله، ففكرة الحاكمية وروح كتابات سيد قطب غير خافية في رسالته وإن لم يذكره، فهو يتحدث عن تكفير الأنظمة وجهادها، ومفاصلة المجتمع، و«دعوة الناس إلى الإسلام» وغير ذلك.

كما أن أفكار وإصدارات الجماعة الإسلامية المصرية عن الجهاد وتحكيم الشرع والمواجهة مع الأنظمة لا بد أن تتماس مع فكر سيد قطب، وليس بالضرورة أن يكون الشكل الوحيد للتفاعل هو النقل والاقتباس، **ففكر العنف يبدو لي بطبيعته لا يقف عند مرجعية ثابتة، بل يطوّر نفسه وفق تعقيدات مختلفة تتعلق بالظرف والزمان والأشخاص، ولا يمكن السيطرة عليه**، وهو الأمر الذي يفسر الانشقاقات التي تحصل داخل بعض التنظيمات الجهادية والعنفية.

إن أي حركة جهادية أو تغييرية عنفية لا يمكن لها أن تزهد بالمعين الثوري الذي تركه قطب، ومن هنا نجد أنه حتى حركات الجهاد الحقيقي كحركة الجهاد الإسلامي في فلسطين تحتفي بسيد قطب مع علي شريعتي، ومالك بن نبي، وثلاثتهم يشكلون وفق تعبير زعيمها الشهيد فتحي الشقاقي «مثلثًا خطيرًا في الفكر الإسلامي الحديث»، وكان كتاب «المعالم» من ضمن ما استند إليه الشقاقي في «كيفية الصياغة الثورية للفكر الإسلامي». فسيد قطب تم النظر إليه في حركة الجهاد من زاوية تحقيقه «للشرط الذاتي» لعمليتي البعث والنهضة، الشرط الذاتي كمحرك للذات الإسلامية التي أرادها متميزة وواعية بأزمة التحدي الغربي للأمة [١]

(١) انظر: أنور أبو طه، حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، رسالة جامعية في علم الاجتماع السياسي، الجامعة اللبنانية، ١٩٩٩م، فصل: «أيديولوجيا الإسلام المحارب». سنة ١٩٩٩م.

إذن إن ثورية قطب وأفكاره تشظت على مجموعات ورجالات مختلفة التوجهات والعمل الحركي الإسلامي.

اعتذاريات القطبيين.. ومنهجية قراءة فكر قطب

أما فيما يخص المسألة الثانية فيميل المدافعون عن قطب، إلى أن المسألة لا تعدو أن تكون مشكلة قرائه، لا مشكلته هو. ويعتذرون بأدبيته عن فقهيته، وبليونة تعبيراته عن دقة مدلولاتها، وبأفعاله مع أقواله عن أقواله فقط، وبالجمع بين نصوصه عن بعضها فقط، وبظروف المولعين به عن مدلولات أفكاره في ذاتها، وأن الظروف أوصلتهم إلى ما أوصلتهم إليه. وهنا يحسن أن نذكر ملحوظات منهجية في التعامل مع الأفكار، ومع فكر سيد - رحمه الله - تحديدًا.

١- ضرورة النظر لملابسات تأليف الكتاب:

إنه لا بد من النظر مرة أخرى في ملابسات تأليف الكتاب الذي يُرجع إليه، وأن مصنفات كاتب ما ليست جميعها على الدرجة نفسها من العمق والتحرير **أولًا**، فمنها ما يكون في ابتداء الأمر، ومنها ما يكون لأغراض أخرى؛ فقد كان من عادة العلماء قديمًا أن يصنفوا الكتب في بداية طلبهم، لمجرد النفع الذاتي، **وثانيًا** لأن الكاتب نفسه قد يطرأ عليه تغيير في فكره فيرجع عن شيء دوّنه قبلُ. وهذا لا بد من تحريه بالوسائل المنهجية المعروفة لدى المعنيين بهذا الشأن.

نضرب مثلا للأول، بالإمام الحافظ ابن حجر الذي قال في أَخَرةٍ من حياته: «لست راضيًا عن شيء من تصانيفي لأني عملتها في ابتداء الأمر، ثم لم يتسنَّ لي تحريرها سوى شرح البخاري ومقدمته والمشتبه، والتهذيب، ولسان الميزان. وأما سائر المجموعات فهي كثيرة العَدد، واهية العُدد، ضعيفة القوى، خافية الرؤى»[1].

---

(١) قال ذلك في المعجم المؤسس له، ونقله عنه السخاوي أيضًا، ونقله: الكتاني، فهرس الفهارس، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ج١ ص٣٣٧ .

ونضرب مثلًا آخر بالإمام الحافظ الذهبي الذي قال: «كتاب مستدرك الحاكم كتاب مفيد، وقد اختصرته ويعوز عملًا وتحريرًا»[1]. وأمام هذه النصوص يتبين لنا الخطأ الذي يقع فيه عديد من الباحثين المعاصرين حين يتجاهلون هذه الكلمات أثناء تعاملهم مع تلك المصنفات، فيشنع بعضهم على الذهبي مثلًا لكونه سكت عن حديث ضعيف أو موضوع في المستدرك!، أو لخطأ وقع من ابن حجر في كتبه التي لم يحررها ومات غير راض عنها!.

وللثاني نضرب مثالًا بالإمام الكبير الشافعي رضي الله عنه، ومعلوم أنه تراجع عن مذهبه القديم ولم يُحِلّ الرجوع إليه باستثناء مسائل معدودة يعرفها أهل الفقه.

وفيما يخص سيدًا، وهو قاصر عمن سبق ذكرهم مكانةً، غير أن المنهج نفسه ينطبق عليه، فقد ذكر القرضاوي في مذكراته[2] فقال: «حدثني الأخ د. محمد المهدي البدري أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب -وكان معه معتقلا في محنة ١٩٦٥م- أخبره أن الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله، قال له: إن الذي يمثل فكري هو كتبي الأخيرة: المعالم، والأجزاء الأخيرة من الظلال، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، والإسلام ومشكلات الحضارة، ونحوها مما صدر له وهو في السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهي تمثل تاريخًا لا أكثر. فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعي لك مذهبان: قديم وجديد، والذي تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك؟. قال سيد رحمه الله: نعم، غيّرت كما غيّر الشافعي رضي الله عنه. ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيرت في الأصول!».ا.هـ

هذه الشهادة التاريخية لها قيمتها التي لا تنكر، ومع ذلك يجب أن نحتاط منهجيًّا فيها، ويكون ذلك بالدراسة المتأنية لأفكاره قبل السجن وبعده، ورصد المتغيرات التي

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج١٧ص١٦٧.

(٢) القرضاوي، ابن القرية والكتاب، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٦م، ج٣، ص٦٢. وأصل الكلام في مجلة الشهاب، سنة ١٩٧٢م، بعنوان: «سيد قطب في يوم ذكراه» بقلم محمد البدري، وقد حكاه عمن وُصف بأنه «حواريّ سيد قطب».

طرأت عليه، ويدعم تلك الشهادة شهادة أحمد عبد المجيد [1] الذي كان من الدائرة الأولى التي تجالس «قطب» وتأخذ منه مباشرة، وتأثرت بأفكاره تأثرًا كبيرًا، وهو يقرر أن التغير طرأ في السجن وفي أصول أفكاره (الجاهلية، الحاكمية، المفاصلة الشعورية،...). ولا شك أن آخر ما يكتب الرجل هو آخر ما ينتهي إليه فكره في كمال نضجه.

٢- تأريخ الأفكار وخطأ الجمع بين الأقوال:

بناء على ما سبق **فإن من الخطأ الجمعَ الاعتباطي بين أفكاره، وحمل بعض نصوصه على بعض**، فمعلوم أن فكر سيد مر بمراحل وظروف مختلفة، وتأريخ أفكاره هنا بالغ الأهمية، فلا يمكن مثلًا الاستدلال على فكره بنصوص من رسائله لأخته أيام إقامته في أمريكا (٤٨-١٩٥٠م)، التي نُشرت في كتابه «أفراح الروح» للبرهنة على أن قائل هذا الكلام لا يمكن أن يكفّر المجتمع!. فلا بد لمن يريد أن يفهم سيد قطب أن يحيط بمراحل حياته وتطوره فيها، حتى يعرف حقيقة موقفه الذي انتهى إليه.

إن مشكلة البعض [2] ممن تحدث عما أسماه بـ «المنهج الإسلامي في الجمع بين الأقوال المتعارضة» للجمع بين أقوال سيد قطب: أنه يقع في مشابهة مذمومة، فيستعير المنهج الإسلامي للتعامل مع نصوص الوحي، ليطبقها على أقوال البشر!!. والفوارق المنهجية - فضلًا عن الدينية - كبيرة، **فالجمع والترجيح والنسخ والتوقف، وهي الخيارات المطروحة بضوابطها للتعامل مع نصوص الوحي (قرآن أو سنة) المتعارضة أو التي «ظاهرها التعارض»: مبنية أصلًا على نزاهة النص الديني لأنه لا ينطق عن الهوى، وعلى براءة القائل من الوقوع في التناقض أو النسيان الذي هو شأن البشر، وعلى عصمة التشريع الإلهي من خضوعه للتطور، أو اكتشاف مجهول ونحو ذلك من الفروق، دون أن ندخل في الفروق المرجعية بين نص وحي لا مناص من الاحتكام إليه، وبين نص بشري لا يضير تجاهله**

(١) انظرها في هذا الكتاب.

(٢) كصلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب، (أعلام المسلمين)، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥٨٠

وعدم معرفته أصلًا!.

فكيف بعد هذه الفوارق لو علمنا أن فكر سيد نفسه تعرض لتطورات وتغيرات حكمت بها ظروفه النفسية والفكرية والوجدانية، قبل وبعد السجن؟ ضميمةً إلى ما نُقل من شهادة عنه سابقًا؟!.

٣- لغة الكاتب وبناؤه المفاهيمي:

مسألة أخرى تثار في الاعتذاريات عن قطب، وهي أدبيته، ولا بد أن نقرر أن المعاني تُطلب من المفاهيم لا من الألفاظ، فمن طلب المعاني من الألفاظ ضل وتاه، وقوام الأدبية قائم على التشبيه والتخييل والتمثيل، ورقة العبارة، وسعة التعبير، وفي هذا غلبة للحس على اللفظ، وللعاطفة على الفكر، ومشكلة قطب أنه خاض بعباراته المرنة هذه في قضايا عقدية، والمسائلُ العقدية يطلبها الناس من الألفاظ، والأحكام الشرعية تقوم في الحدود والعبارات، فلا يمكن تبرئة الأديب سيد قطب - رحمه الله - من مسؤولية عباراته.

ثم إن المفاهيم التي شرحها ونظّر لها حين تُضم إلى بعضها لا يمكن إلا أن تؤدي إلى نتائج عنيفة، من الجاهلية والحاكمية -على ما شرحه وأفاض فيه- والجهاد وفق شرحه، والبرنامج الحركي الذي رسمه في معالمه، ومنعه الاجتهاد الفقهي بتعليله السابق، والقول بتوقف وجود الإسلام، وبإنشاء المسلمين من جديد، وحصر الإسلام في الطليعة المؤمنة التي ستشكل نواة المجتمع المسلم المنشود، إلى غير ذلك.

إن إطلاقية قطب الصارمة في مجمل ما يصدر عنه بوصفه يقينًا لا يحمل الاجتهاد، وصوابًا لا يحمل شائبة من الخطأ، كل هذا يبني تصورًا ويُشيد قلاعًا، ويحطم كل الجسور، لأن المسألة لديه أبيض وأسود فقط والثالث مرفوع!.

أقول هذا مع علمي بأنه هو نفسه حين سئل عن التكفير قال: إن «المسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس!»[1]، وهو بالفعل كان معنيًا

(١) سيد قطب، لماذا أعدموني، الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، ص٣٦.

بهذا في فكره وكتاباته، وكذلك أنا لست معنيًّا هنا بأن قطبًا يكفر المجتمع أو لا، غير أن **مفاهيمه لم تكن لتقف عند حدود المقدمات التي تبنيها دون النتائج التي تسكت عنها**، بل كان من المنطقي أن يأتي من يستنتج من تلك المقدمات ما تحمله في طياتها وفي ذاتها!.

فكر قطب.. وضرورة المراجعة

أميل إلى النظر إلى الفكر الإسلامي- بما هو نتاج بشري- كحركة كلية بكل تنويعاته وانشقاقاته، مع ربطها في سياقاتها زمانًا ومكانًا وأفكارًا، وبأن كل فصيل يؤدي دورًا في زمنه، اتفقنا أو اختلفنا معه، وهذا يكمن في بحث التساؤل الكبير أمام نشأة كل فكر أو اتجاه: لماذا نشأ هنا والآن، زمانًا ومكانًا وفكرًا؟ وفي مواجهة من.. وماذا؟ ولماذا ينمو ولماذا يخبو؟ غير أن الحركة (الكلية) للفكر لا بد أن تحصّل فوائد في نهاية النظر، بحسب النتائج التي أنتجها هذا الفكر أو الاتجاه، والأغراض التي أداها، سلبًا وإيجابًا، وهكذا يمكن أن تُقرأ المسارات البارزة في الفكر الإسلامي من ظهور الشافعي - مثلًا - إلى ابن تيمية إلى.. سيد قطب مع حفظ التفاوت في المكانة بينهم.

وإذا كان فكر قطب نشأ في الظرف الذي شرحته ومتزامنًا مع سؤال الندوي، فنشأة **ظاهرة «الصحوة الإسلامية»** التي اكتسحت المجتمعات الإسلامية برمتها منذ منتصف الثمانينيات لا بد أن تفرض نظرًا جديدًا في تشخيصات قطب للمجتمع والأمة، **والتغير الكبير الذي طرأ على الغرب** طوال العقود الثلاثة الأخيرة جعل من تشخيصات قطب له جزءًا من التاريخ، **وقَصْر قطب الدورَ الإسلامي المنشود على إطار القيم فقط**، مُنبنٍ على ذلك التصور البسيط عن الغرب، كما كان شأن الندوي -رحمه الله- في سؤاله وتشخيصه.

أمكن الآن الحديث أيضًا عن ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين معرفيًّا أيضًا [1]؛ فقد نضج العقل العربي والمسلم عبر هذه العقود، وتعمقت معرفته بالغرب، معايشةً

---

(١) عالج هذا السؤال: عبد الرحمن الحاج، في مقاله: فلسفة العلم.. أزمة المعرفة في سياق الحداثة ، مقال منشور على موقع «إسلام أونلاين.نت».

ودراسةً، وفهمًا. فنخبنا الثقافية تعلمت هناك، وتجاوزت حالة «الانبهار» به، وبدأت حقبة جديدة أظهرت نقدًا لاذعًا وعميقًا للغرب بمختلف أطيافه، وبالتأكيد ساعد على ذلك أيضًا كتابات فلاسفة ما بعد الحداثة من أمثال هابرماس وفوكو وهايدغر.. وغيرهم. في حين أن سيد قطب عاش سنتين فقط في أمريكا، ويبدو لي تشخيصه لأزمة القيم الغربية الذي هو غير خارج عن التصور العام السائد في ذلك الحين: من خلال اعتماده على أمثال ألكسيس كاريل، الذي اعتمد عليه بكثرة في تشخيصه للحضارة الغربية والدور المنشود للإسلام [1] فضلًا عن إفادته من تشخيص الندوي الذي كانت كتبه معه في سجنه، وقد كانت معرفته بالغرب كما بدت من خلال نُقول بعض الغربيين التي اطلع عليها، ومن خلال «مشاهدات» عابرة وقعت له ولبعض من حوله. وخلص إلى أن الذي يقبله الإسلام من الحضارة الغربية المادية هو الجانب المتعلق بالأمور المادية الصناعية التكنولوجية، وهو التصور البسيط الذي كان سائدًا أيضًا.

إنه انطلاقا من نقد الحداثة، تفتَّحت معرفة العرب والمسلمين بالغرب فبصروا بالعيوب المزمنة داخل النسق الثقافي والعلمي الغربي، وأصبح ممكنًا الآن بهذه المعرفة إقامة مقارنات بين أنظمة معرفية مختلفة، والتعرف على بنية الأجهزة المعرفية (مفهوم العقل، ونظرية المعرفة)، واكتشاف مميزاتها وعيوبها. ولم تعد تلك الرؤية البسيطة للفصل بين الآلة والقيمة في الحضارة الغربية دقيقة، بل هناك حديث عن بعد أنطولوجي للتقنية الآن، وحيادية التقنية ما عادت موضع تسليم كما كانت.

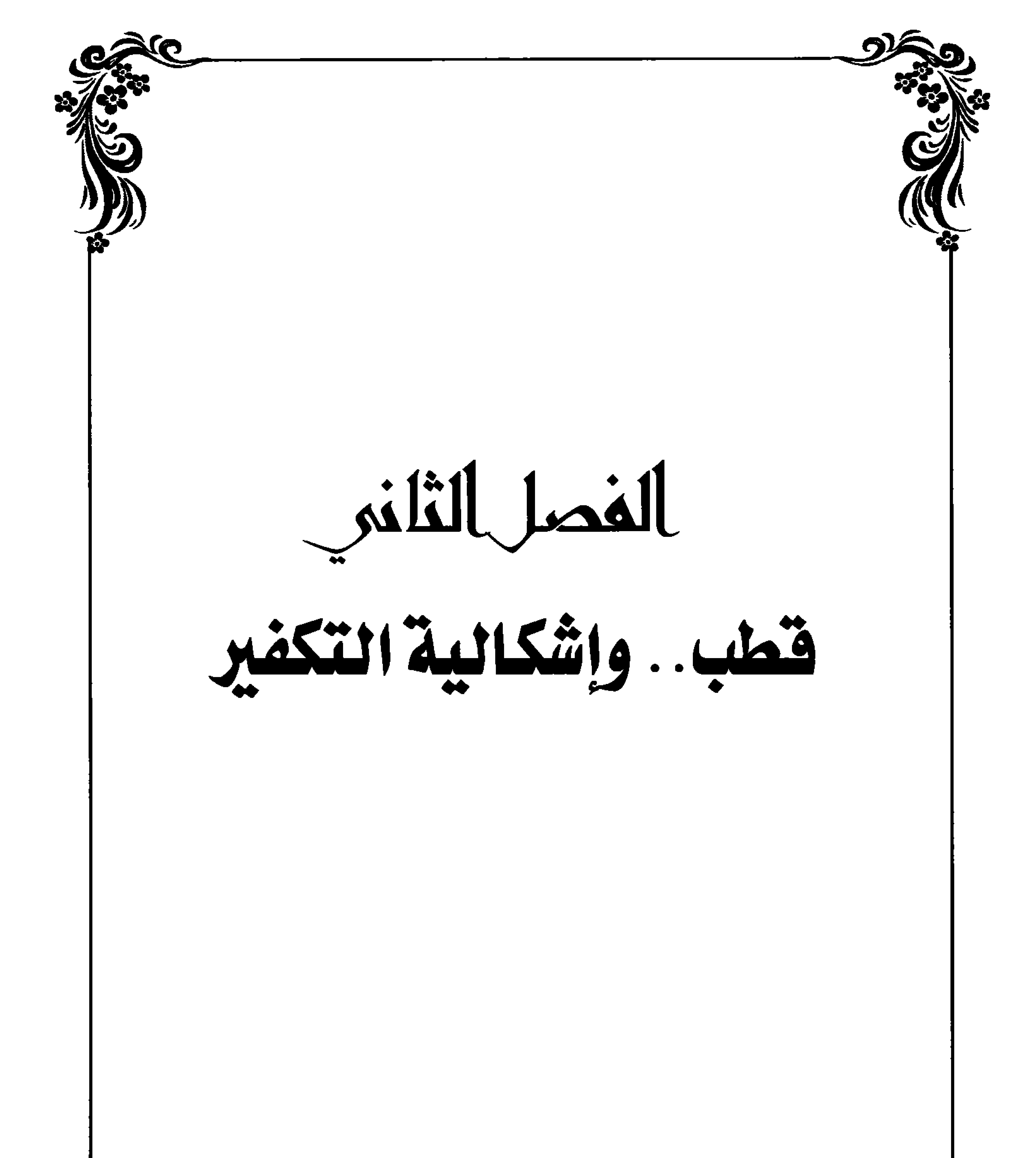
فضلًا عن أن نظرية المواجهة العنيفة مع الأنظمة الحاكمة، والمواجهة العنيفة مع «الجاهلية الغربية» - وقطب يقول بكل ذلك - أثبتت التجارب فشلها، وبينت الأحداث التي شهدناها داخليًّا في الثمانينيات والتسعينيات، وخارجيًّا بدءًا من أحداث سبتمبر،

(١) نقل عنه مثلًا في «المستقبل لهذا الدين» الذي صدر سنة ١٩٦٠م نحو ١٠ صفحات، وفي «الإسلام ومشكلات الحضارة» الذي أصدره سنة ١٩٦٢م نحو ١٥ صفحة في فصل بعنوان كتاب كاريل نفسه «الإنسان ذلك المجهول»، فضلا عن تكرار نقله عنه في مواضع متعددة من الكتاب.

كارثية هذا الخيار، وأضراره على الأمة.

كما أن الهيمنة الأمريكية العسكرية على قلب العالم الإسلامي، والمقاومة الفلسطينية، والمحن المتوالية على الأمة، والتحديات التي تواجهها الآن، واتخاذ الصراع عناوين وممارسات دينية: أدت إلى تمسك شديد بالهوية الإسلامية، فما عدنا بحاجة إلى الحفاظ على إسلامنا بالوقوف عند تخوم «المشاعر» ببث الثقة في النفوس. والوقوفُ عند فكر الهوية والعودة إليه من شأنه أن يزيد من تأخرنا ويضيّع علينا المزيد من الوقت لأجل البناء الطويل الذي نحتاجه. والتغيير والتطوير لا يمكن أن يتوقف لأجل أنه يوافق هوىً أو شعارًا خارجيًّا أو داخليًّا، المهم أن نعلم ما نحن بحاجة إليه ونعمل وفق أولوياتنا دون تجاهل لِما يجري حولنا، مع الحرص على الفصل والتمييز بين ما هو سياسي داخلي أو خارجي وما هو معرفي يمليه البحث والدرس للواقع.

***



الفصل الثاني

قطب.. وإشكالية التكفير

التكفير والجاهلية [1]

ع. أبو عزة

يقول صاحب المعالم: «إن العالم يعيش اليوم في جاهلية [2] كالتي عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية، تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية ومراجع إسلامية وتفكيرًا إسلاميًّا... هو كذلك من صنع الجاهلية» [3]. و«تدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها مسلمة» [4]، و«موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة: أنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات وشرعيتها في اعتباره» [5].

ويبدو أنه يتعيّن علينا – ونحن نمضي في عرض أفكار صاحب المعالم – أن نحدد معاني بعض الاصطلاحات التي استعملها، حتى نزيل الغموض والضباب عن مدلولاتها:

(١) هذا المقال سبق نشرُه على جزأين في مجلة «الشهاب» سنة ١٩٧٢م، في الذكرى السادسة لاستشهاد سيد قطب، وقد أثارت أفكار وانتقادات «أبو عزة» للحركة الإسلامية ولسيد قطب ردودًا عديدة، نشرتها «الشهاب» في سلسلة أعداد. ومجلة الشهاب نصف شهرية أصدرتها الجماعة الإسلامية في لبنان، ورأس تحريرها إبراهيم المصري.

(٢) معالم في الطريق، ص٩. جميع الاقتباسات المنسوبة إلى الأستاذ سيد قطب أخذت من كتاب معالم في الطريق، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، وسنعطي أرقام الصفحات لكل اقتباس.

(٣) ص٢١-٢٢.

(٤) ص١٢٤، وانظر: ص٢٠٠-٢٠١.

(٥) ص١٢٦.

١ - «المجتمع»:

ما المدلول الاصطلاحي لهذه الكلمة؟ وما الصورة التي تقفز إلى خيالك وتشغله عندما تقرؤها؟ لا أظن أن هناك خلافًا في فهم مدلول هذه الكلمة، أنها تعني: مجموع الناس الذين يحيون في قطر معين. مثال ذلك حين تقول: المجتمع المصري، المجتمع السوري، المجتمع اليمني، المجتمع السوداني، المجتمع الليبي، المجتمع السعودي.

وهذا هو المعنى الذي يُفهم من الكلمة في كل سياق وردت ضمنه في كتاب «معالم في الطريق»، وهذا هو مفهومها لدى المثقفين وعامة القراء، إلا إذا خُصصت بقرينة. ويخصص معنى هذه الكلمة للدلالة على أنواع أخرى من المجتمعات في مثل: مجتمع القاهرة، مجتمع القرية، المجتمع الأرستقراطي، المجتمع الدولي.

٢- الجاهلية يقصد بها الكفر:

وما تهمة الجاهلية هذه التي ألصقها الأستاذ سيد بالمجتمعات التي يرفض نسبتها إلى الإسلام؟ الجاهلية = الكفر = الخروج من دائرة الإسلام.

فلنقرأ بعض نصوصه:

«لا ينبغي أن تقوم في نفوس أصحاب الدعوة إلى الله تلك الشكوك السطحية في حقيقة الجاهلية وحقيقة الإسلام.. إنه لا إسلام في أرض لا يحكمها الإسلام ولا تقوم فيها شريعته.. وليس وراء الإيمان إلا الكفر، وليس دون الإسلام إلا الجاهلية، وليس بعد الحق إلا الضلال» [(١)]. «والمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان، مسألة شرك وتوحيد، مسألة جاهلية وإسلام.. إن الناس ليسوا مسلمين - كما يدعون - وهم يحيون حياة الجاهلية» [(٢)].

ونظرًا لمكانة الشهيد في النفوس، تلك المكانة التي بناها بجهاده وصموده، فقد عمد

(١) ص١٩٨.

(٢) ص٢١٣.

بعض الإخوة إلى تأويل كلامه والتخفيف من مدلوله. لكن إذا كان مثل هذا النفر استند إلى إدراك سابق لخطورة التكفير فلجأ إلى عملية تأويل لا شعورية، حتى لا يتعرض من أَحبَّه للتخطئة، فإن الحقيقة تظل هي الحقيقة، مهما تأول المتأولون.

قالوا: إن سيدًا لم يكفر الناس، لا أفرادهم ولا جمهورهم، وإنما قصد بحكم التكفير نظام الحكم. ولقي هذا التفسير قبولًا عند كثيرين، إذ لا يهون عليهم أن يُنسب خطأ مثل هذا إلى سيد. فما نصيب هذا التأويل من الصحة؟

نستطيع أن نكتشف عدم صحة هذا التأويل بدليلين على الأقل:

أولا: قول الأستاذ سيد: «إن الناس ليسوا مسلمين – كما يدعون- وهم يحيون حياة الجاهلية.. إنه لا إسلام في أرض لا يحكمها الإسلام، ولا تقوم فيها شريعته..». «ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم أناسًا ممن يسمون أنفسهم مسلمين، بينما شريعة الإسلام ليست قانون هذا المجتمع، وإن صلى وصام وحج البيت الحرام». وتأمل معي عبارة: «يسمون أنفسهم مسلمين».

«إنها نقلة بعيدة واسعة هذه النقلة من الجاهلية إلى الإسلام، وإنها هوة فاصلة لا يقام فوقها معبر للالتقاء في منتصف الطريق، ولكن لينتقل عليه أهل الجاهلية إلى الإسلام، سواء كانوا ممن يعيشون فيما يسمى الوطن الإسلامي، ويزعمون أنهم مسلمون، أو كانوا يعيشون في غير الوطن الإسلامي» [1]، وتأمل ثانية عبارة «فيما يسمى الوطن الإسلامي»، «ويزعمون أنهم مسلمون».

ثانيًا: ونستدل على أنه لا يقصد نظام الحكم فحسب، من تحديده وتمييزه للمجتمع الإسلامي عند نشأته وانفصاله عن بقية أفراد الأمة وإعلانه الحرب عليها، فهو يقول: «إن الأفراد المسلمين نظريًا، الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتمًا للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية.. ومن ثم لم يكن بد أن تتمثل

(١) ص٢١٧-٢١٨.

القاعدة النظرية للإسلام -أي العقيدة- في تجمع حركي عضوي منذ اللحظة الأولى... منفصل ومستقل عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الإسلام إلغاءه»[1].

«وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامي مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلي.. وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وُجد فعلًا.

والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مئة، والمئة يصبحون ألفًا، والألف يصبحون اثني عشر ألفًا، ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي.

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد، الذي انفصل بعقيدته وتصوره، وانفصل بقيمه واعتباراته، وانفصل بوجوده وكينونته عن المجتمع الجاهلي الذي أخذ منه أفراده، وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع» [2].

وقبل أن نواصل الرحلة مع صاحب المعالم لنرى كيف يدعو - بعد العزلة بالوجود والكينونة لا بالشعور فقط - كيف يدعو إلى عدم الدفاع عن المجتمع، وإلى العمل على هدمه، وإلى اعتباره دار حرب، قبل أن نفعل هذا نود أن نعرف بالضبط الصورتين اللتين يحدد بهما المجتمع الإسلامي والمجتمع الجاهلي:

أولا: «المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يُطَبَّق فيه الإسلام.. عقيدة وعبادة، وشريعة ونظامًا، وخلقًا وسلوكًا» [3]، «ليس المجتمع الإسلامي هو الذي يضم ناسًا ممن يسمون أنفسهم مسلمين بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وإن صلى

---

(١) ص٦٦.

(٢) ص١٥٧-١٥٨.

(٣) ص١٤١.

وصام وحج البيت الحرام»[1].

ثانيًا: «إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع الإسلامي.. إنه هو كل مجتمع لا يُخلص عبوديته لله وحده.. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية»[2]. «المجتمع الجاهلي هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام ولا تحكمه عقيدته وتصوراته، وقيمه وموازينه، ونظامه وشرائعه، وقيمه وسلوكه»[3].

وقد ظهرت من ثمار هذا التوجيه المعالمي مجموعات من الشباب تردد هذه الأفكار بحرفية وتزمت شديدين، حتى إنهم كفّروا آباءهم وأمهاتهم، رغم صلاتهم وصيامهم، بل وكفّروا إخوانهم في التنظيم لأنهم لم يوافقوا على القول بتكفير المجتمع، وتكفير الناس المصلين الصائمين الآمّين المساجد المعلِنين إيمانهم بالله.

هل صحيح أنه: إما أن تكون الصورة الإسلامية كاملة كما رسمها صاحب المعالم، وعندها يكون إسلاميًّا؟ أو تكون ناقصة فيصبح المجتمع جاهليًّا كافرًا؟ وأنه لا امتزاج ولا اختلاط بين الصورتين؟

وهل تسمح لنفسك - يا أخي - بقبول إصدار أحكام التكفير على جماهير تعلن الشهادتين وتؤدي الفرائض، رغم تحذير رسول الله ﷺ لنا بقوله: «.. ومن دعا رجلًا بالكفر أو قال عدوًّا لله، وليس كذلك، إلا حار عليه، أي رجع الكفر عليه»[4].

أَوَلا يستحق هذا الحديث أن يدفعنا إلى تدبر الأمر بجدية أكبر، وخشية لله أعظم، وتَحَرُّز أدق، مخافة أن تطولنا جريرة التكفير؟

---

(١) الصفحة ذاتها.

(٢) ص١٢٠.

(٣) ص١٤١.

(٤) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٣٨٩ هـ، ج ١، ص١٩٠.

هل صحيح أن المجتمع المسلم هو فقط ذلك المجتمع «الذي يطبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظامًا وخلقًا وسلوكًا»، وأن ما عداه مجتمع جاهلي كافر حتى لو أعلن ناسه بأنهم مسلمون، وصلوا وصاموا وحجوا البيت الحرام؟

وهل يصح القول: إن «الإسلام لا يعرف إلا نوعين اثنين من المجتمعات: مجتمع إسلامي ومجتمع جاهلي»، وأن أي مجتمع لا تحكمه عقيدة الإسلام وتصوراته وقيمه وموازينه ونظامه وشرائعه وخلقه وسلوكه جدير بأن يوصم بالكفر؟

هل صحيح أنه إما أن تكون صورة الإسلام كاملة متكاملة على النحو الذي وصفه صاحب المعالم، فتستحق صفة الإسلام، أو تكون ناقصة يختلط فيها الإيمان والكفر، والإخلاص والنفاق، فتستحق صفة الكفر، رغم أن جمهرة الناس فيها يعلنون الإسلام ويصلون ويصومون ويحجون البيت الحرام؟

هل صحيح أن الصورة إما أن تكون بيضاء مطلقة أو سوداء مطلقة، وأنه لا توسط بينهما؟

نحن نقر ابتداء بأن الصورة التي يحبها الله ويرضى بها للمجتمع الإسلامي هي صورة الكمال التي وصفها سيد، حيث يطبق الإسلام «عقيدة وعبادة، وشريعة ونظامًا، وخلقًا وسلوكًا». لكننا نختلف مع صاحب المعالم بنوع الحكم على الصورة الثانية المختلطة.. فمع أن الله لا يحبها لعباده، ولا يقبلها إلا أنه – سبحانه – لا يحكم على جمهرة الناس بالكفر، ولا يرضى بأن يكفرهم.

ذلك أن الأحكام الشرعية ليست بهذا الضيق: إما فرض يثاب فاعله أو محرم يورد صاحبه نار جهنم. كلا! هناك الفرض والواجب والمندوب والمباح في ناحية، وهناك المكروه والمنهي عنه والمحرم والصغائر والكبائر في ناحية أخرى. هناك المؤمن المسلم والمقصر والعاصي والفاسق والمنافق والكافر، بل إن كل صفة من هذه الصفات توجد على درجات متفاوتة كما سنبين بعد قليل.

نظرة أئمة الإسلام إلى قضية التكفير:

لقد أورد الإمام البخاري - رضي الله عنه - في صحيحه بابًا بعنوان «زيادة الإيمان ونقصانه»، واستشهد فيه بالقرآن الكريم والحديث الشريف؛ لأن قضية التكفير كانت شائعة في عصره، قال: «باب: زيادة الإيمان ونقصانه، وقول الله تعالى: (**وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**)، و(**يَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا**). وقال: (اليوم أكملت لكم دينكم)، فإذا ترك شيئًا من الكمال فهو ناقص.

عن أنس أن النبي ﷺ قال: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من كان في قلبه وزن بُرّة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير» [(1)].

كذلك روى البخاري «عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خَرْدل من إيمان. فيخرجون منها قد اسودّوا، فيُلقَون في نهر الحيا أو الحياة،... فينبتون كما تنبت الحبة من جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية» [(2)].

أما الإمام البيهقي فقد تناول بالتعليق الآية الكريمة التي تحدد وتعدد صفات المؤمنين ذوي الإيمان الكامل والالتزام المثالي والمستوى الأرفع: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ [الأنفال: ٢، ٣] [(3)]. وعلق الإمام البيهقي بقوله:

«فأخبر أن المؤمنين هم الذين جمعوا هذه الأعمال التي بعضها يقع في القلب، وبعضها

---

(١) الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (القاهرة: ١٣٧٨ هـ)، كتاب الإيمان، ج ١، ص١٧-١٨.

(٢) البخاري، ص١١.

(٣) الإمام أحمد بن الحسين البيهقي، الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة، بعناية الشيخ أحمد محمد مرسي، (القاهرة، ١٣٨٠ هـ، ١٩٦١م) ص٧٩-٨٠.

باللسان، وبعضها بهما وسائر البدن، وبعضها بهما أو بأحدهما أو بالمال. وفيما ذكر الله من هذه الأعمال تنبيه على ما لم يذكره، وأخبر بزيادة إيمانهم..».

وفي كل ذلك دلالة على أن هذه الأعمال وما نبه بها عليه من جوامع الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وإذا قَبِل الزيادة قبل النقصان [1]، ويتابع البيهقي كلامه بعد ذلك مباشرة: «وبهذه الآية وما في معناها من الكتاب والسنة ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أن اسم الإيمان يجمع الطاعات فرضها ونفلها، وأنها على ثلاثة أقسام:

فقسم يكفر بتركه، وهو اعتقاد ما يجب اعتقاده والإقرار بما اعتقد.

وقسم يفسق بتركه أو يعصي ولا يكفر به؛ إذا لم يجحده، وهو مفروض الطاعات، كالصلاة والزكاة والصيام والحج واجتناب المحارم.

وقسم يكون بتركه مخطئًا للأفضل، غير فاسق ولا كافر، وهو ما يكون من العبادات تطوعًا [2].

ومعنى كلام البيهقي هو أن من نطق بالشهادتين وآمن بأن القرآن من عند الله، وصدّق بالبعث والحساب، وبملائكة الله ورسله، لا يجوز أن يسمى كافرًا أو أن تنفى عنه صفة الإسلام، حتى لو ترك الصلاة وسائر الفرائض، من غير أن يجحدها. وسنجد أن مثل هذا الرأي نُسب إلى الإمام أحمد بن حنبل ضمن آراء أخرى.

وأما الإمام ابن تيمية فيقول: إن «الناس في حب الله يتفاوتون ما بين أفضل الخلق محمد وإبراهيم، إلى أدنى الناس درجة، مثل من كان في قلبه ذرة من إيمان. وما بين هذين الحدين من الدرجات ما لا يحصيه إلا رب الأرض والسماوات.. فقد أخبر الصادق المصدوق، الذي لا يجاوز فيما يقول، أن الواحد من بني آدم يكون خيرًا من ملء الأرض من الآدميين. وإذا كان الواحد منهم أفضل من الملائكة، والواحد منهم شرًّا من البهائم

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص٨٠.

كان التفاضل فيهم أعظم من تفاضل الملائكة..» [1]. «فإذا كان العبد يفعل بعض المأمورات ويترك بعضها كان معه من الإيمان بحسب ما فعله. والإيمان يزيد وينقص، ويجتمع في العبد إيمان ونفاق، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال: أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا ائتُمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. ويعلق ابن تيمية بعد ذلك مباشرة واصفًا المجتمع الذي عاش فيه هو نفسه، مجتمع القرن السابع والثامن للهجرة: «وبهذا تزول الشبهة في هذا الباب، فإن كثيرًا من الناس، بل أكثرهم، في كثير من الأمصار، لا يكونون محافظين على الصلوات الخمس، ولا هم تاركيها بالجملة، بل يصلون أحيانًا ويدعون أحيانًا، فهؤلاء فيهم إيمان ونفاق» [2].

ويعلق ابن تيمية على قول الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب، فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب، وروى عبد الله بن المبارك - بسنده - عن علي بن أبي طالب قال: إن الإيمان يبدو لُمَظَة بيضاء في القلب، فكلما ازداد العبد إيمانًا ازداد القلب بياضًا، حتى إذا استكمل الإيمان ابيضّ القلب كله، وإن النفاق يبدو لُمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد العبد نفاقًا ازداد القلب سوادًا، حتى إذا استكمل العبد النفاق اسودّ القلب..

ومثل هذا كثير في كلام السلف، وهم «يبينون أن القلب قد يكون فيه إيمان ونفاق، والكتاب والسنة يدلان على ذلك؛ فإن النبي ﷺ ذكر شُعَب الإيمان وذكر شعب النفاق وقال: من كانت فيه شعبة منهن كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها. وتلك الشعبة قد يكون معها كثير من شعب الإيمان. ولهذا قال: ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» [3].

(١) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، جمعها ورتبها عبد الرحمن بن محمد العاصمي النجدي الحنبلي، (الرياض: ١٣٨٢ هـ) مجلد ٧، ص٥٦٨-٥٦٩.

(٢) ابن تيمية، مجلد ٧، ص٦١٦-٦١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٤-٣٠٥.

ويؤكد لنا ابن تيمية أن أبرز فقهاء الصدر الأول من هذه الأمة، بل «سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر، منهم أنس بن مالك والليث بن سعد وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي، والطبري، ومن سلك سبيلهم... قالوا: الإيمان قول وعمل،.. والإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، وأهل الذنوب - عندهم - مؤمنون غير مستكملي الإيمان من أجل ذنوبهم»[1].

بل إننا نعرف أن الأعراب الذين أسلموا اتقاء السيف لم يخرجهم الله تبارك وتعالى من دائرة الإسلام، بل قال عنهم: **﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾** [الحجرات: ١٤].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّة فصبّحنا الحرقات من جهينة، فأدركت رجلا فقال: لا إله إلا الله، فطعنته. فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال: قال لا إله إلا الله وقتلته؟ قال: قلت: يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح!. قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ»[2].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. ثلاثًا. ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر**»[3].

وقد بيّن الإمام ابن تيمية أن «الدين ثلاث درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها

(١) المصدر نفسه، ص٣٣٠-٣٣١ وانظر: ص٥١٤-٥٢٢.

(٢) مختصر صحيح مسلم، ج ١، ص٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠.

الإيمان، ويليه الإسلام»[1]. وأضاف أن اسم الإيمان يُذكر مفردًا غير مقرون باسم الإسلام والعمل الصالح، وأحيانًا يرد مقترنًا باسم الإسلام[2]، ويفسر ذلك بأنه حين ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة: الشهادتان، والصلاة والزكاة والصيام والحج، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهكذا في الحديث الذي رواه أحمد عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: الإسلام علانية، والإيمان في القلب»[3].

ولم يحدث أي خلاف بين أهل السنة، سواء في ذلك التابعون أئمة المذاهب وجمهور الفقهاء، في اعتبار من أتى بالشهادتين وصلى وصام وزكى وحج مسلمًا. بل هناك من اعتبر مَنْ نطق بالشهادتين مع الاعتقاد بمضمونها مسلمًا، حتى وإن ترك الصلاة والصوم والزكاة والحج دون جحود.

ومن هذا الفريق أكثر أصحاب الحديث، كما يخبرنا الإمام البيهقي[4]، وكل أهل السنة متفقون على أن مرتكب الكبيرة سُلِب كمال الإيمان، أيّ نقص بعض إيمانه، لكنه لم يفقده كله، ومع ذلك فهو يدخل ضمن المخاطبين بقوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)**[5].

لكن الخلاف حدث بين فقهاء السنة حول اعتبار الفرد مسلمًا أو كافرًا فيما لو ترك إحدى العبادات الأربع أو تركها جميعًا. وهناك آراء كثيرة فيما يتعلق بهذا الحكم، حتى لقد نُسب إلى الإمام أحمد وحده خمسة آراء متباينة، أحدها أنه لا يكفر من نطق بالشهادتين مقتنعًا، حتى لو ترك الصلاة والزكاة والصيام والحج من غير جحود.

في ضوء هذه الآيات والأحاديث، وفي ضوء هذا التحوط والحذر - من جانب أئمة

---

(١) ابن تيمية، مجلد ٧، ص٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤.

(٤) الإمام البيهقي، الاعتقاد، ص٨٠.

(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مجلد ٧، ص٢٥٨.

هذه الأمة - من إطلاق صفة الكفر على فرد واحد من المسلمين؛ حتى لو ترك الفرائض الأربع دون جحود، في ضوء هذه الشواهد التي سقناها، هل يجوز لمسلم أن يستسهل رمي مجتمع بكامله بالكفر ويُخْرجه من الإسلام، متجرِّئًا بإثبات عبارة: «وإن صلى وصام وحج البيت الحرام»!. وهل تستسهل أن تردّد مع صاحب المعالم واصمًا جمهرة الناس بالكفر قائلًا: «إن الناس ليسوا مسلمين، وإن صاموا وصلوا وحجوا البيت الحرام»؟!.

***

وقفة مع الشهيد سيد قطب

أ.د. يوسف القرضاوي

لا يشك دارس منصف ولا راصد عدل في أن سيد قطب مسلم عظيم، وداعية كبير، وكاتب قدير، ومفكر متميز، وأنه رجل تجرد لدينه من كل شائبة، وأسلم وجهه لله وحده، وجعل صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين لا شريك له. ولا شك في إخلاص سيد قطب لفكرته التي آمن بها، ولا يشك في حماسه لها، وفنائه فيها، وأنه وضع رأسه على كفه، وقدم روحه رخيصة من أجلها.

ولا ريب أنه قضى سنوات عمره الأخيرة وهو في السجن يجلي الفكرة، ويشرحها بقلمه المبدع، وبيانه العذب، وأسلوبه الأخاذ. كما لا ريب أن كتبه تعطي قارئها شحنة روحية وعاطفية دافقة ودافئة ودافعة، توقظه من رقود، وتحركه من سكون؛ لما فيها من حرارة وإخلاص.

وهذه الفكرة هي التي انتهى إليها تطوره الفكري والعلمي، بعد مسيرة حافلة بالعطاء، في مجال الأدب والنقد، وفي مجال الدعوة والفكر.

ولا بد لمن يريد أن يفهم سيد قطب أن يحيط بمراحل حياته وتطوره فيها، حتى يعرف حقيقة موقفه الذي انتهى إليه.

مرحلة الأدب والنقد

أول ما ظهر سيد قطب ظهر أديبًا شاعرًا، ثم ناقدًا أدبيًّا.

كان شاعرا رقيقا مرهف الحس، دافق العاطفة، يحسبه الناقدون على «الاتجاه الرومانسي» في الشعر، وعده د. محمد مندور في جماعة «أبولو» ذات الاتجاهات الرومانسية المعروفة.

ومن المعروف أنه كان في أدبه النثري محسوبا على «مدرسة العقاد»، وكان العقاد يمثل «المدرسة الليبرالية» والفكر الحر، ولم يكن قد ظهر توجهه الإسلامي الذي اتضح في كتاباته الأخيرة.

وكان الذي يمثل «المدرسة الإسلامية» في الأدب هو مصطفى صادق الرافعي. وكان بين الاتجاهين أو المدرستين صراع دامٍ؛ سلاحه القلم، وميدانه المجلات الأدبية كالرسالة والثقافة وغيرهما، والكتب الأدبية، وقد هاجم الرافعي العقاد في مقالات نشرت بعد ذلك في كتاب سماه «على السفود».

لم يكن سيد قطب في هذه المرحلة قد عُرف بتوجه إسلامي واضح، رغم أنه خريج «دار العلوم» وقد عاصر حسن البنا، وإن لم يتعرف عليه وعلى دعوته إلا بعد استشهاده.

وقد ذكر الأستاذ محمود عبد الحليم في كتابه «الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ»[1] واقعة عن سيد قطب في هذه المرحلة، ما زلت في شك من أمرها [2]، وهي: أنه كتب مقالة في الأهرام تدافع عن «العرْي»، وأنه من الحرية الشخصية للإنسان، على غرار ما يكتبه دعاة الإباحية، وهذا نَفَس غريب على مسيرة سيد قطب، فلم يكن الرجل -على ما أعلم- في أي فترة من حياته من دعاة التحلل. وأرجو من إخواننا من شباب الباحثين أن يحققوا ويبحثوا في مدى صدق هذه الواقعة.

وقد توج هذه المرحلة من مراحل مسيرته عملان كبيران من الأعمال الأدبية الأصيلة التي لم يقلد سيد قطب فيها أحدًا، بل كان فيها نسيج وحده.

أولهما: كتابه عن «أصول النقد الأدبي» وهو- باعتراف مؤرخي الأدب العربي- عمل متميز، وإن لم يأخذ حقه من الظهور، ربما كان سبب ذلك هو تحول صاحبه إلى الدعوة

---

(١) انظر: «الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ» لمحمود عبد الحليم «١/ ١٩٠-١٩٢». طبعة دار الدعوة - الإسكندرية.

(٢) بل ثبتت، وقد رأيتها بنصها. (المحرر).

الإسلامية، وأمسى محسوبًا على عالم الدعاة، لا على عالم الأدباء والنقاد.

وثانيهما: عمله الأصيل المتميز في خدمة القرآن، وإعجازه البياني، بمنهج لم يسبق له نظير، وهذا العمل يتمثل في كتابيه الرائعين:

أ- التصوير الفني في القرآن.

ب- مشاهد القيامة في القرآن.

والكتاب الأول يجسد النظرية، والثاني بمثابة التطبيق لها.

وهذان الكتابان يمثلان تمهيدا أو همزة وصل للمرحلة القادمة؛ مرحلة الدعوة إلى الإسلام.

مرحلة الدعوة الإسلامية

والمرحلة الثانية في حياة سيد قطب هي مرحلة الدعوة إلى الإسلام؛ بوصفه عقيدة ونظاما للحياة يقيم العدالة الاجتماعية في الأرض، ويرفع التظالم بين الناس، ويرعى حقوق الفقراء والمستضعفين بوسيلتين أساسيتين، هما: التشريع القانوني، والتوجيه الأخلاقي.

وكان هذا التطور له مقدمات وعلامات، منها: اهتمامه بقضية المظالم الاجتماعية في مصر، وسيطرة الإقطاع المتجبر في الأرياف، والرأسمالية الاحتكارية المستغلة في المدن على الاقتصاد المصري، وضياع الفلاحين والعمال -وهم جل المصريين- بين تجبر أولئك وتسلط هؤلاء.

وقد بدا هذا التوجه واضحًا في مشاركته في مجلة «الفكر الجديد» التي كانت تعنى بهذا الجانب الاجتماعي، والتي لم تدم طويلا، وقد أشرنا إلى ذلك في الجزء الثاني من المذكرات.

ولعل كتابيه السالفين في خدمة البيان القرآني قد مهدا له الطريق؛ ليطل على «المضامين» الإصلاحية العظيمة التي اشتمل عليها القرآن، وإن كانت دراسته أساسا تهتم بالشكل والأسلوب.

ظهر أول كتاب له في هذه المرحلة، وهو: كتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام» الذي عرض الموضوع بطريقة منهجية، بين فيه أسس العدالة الاجتماعية في الإسلام، وإن كان الشيخ الغزالي - رحمه الله - له فضل السبق بتناول هذه الموضوعات في مقالاته التي كان ينشرها في مجلة «الإخوان المسلمون»، ثم جمعها في كتبه: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، «الإسلام والمناهج الاشتراكية»، «الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين»، ولكن هذه الكتب لم تكتب بالطريقة المنهجية التي كتب بها سيد قطب؛ لأنها في الأصل مقالات، تجلي جوانب مهمة في هذا الجانب الاجتماعي والاقتصادي في الإسلام.

ولا شك أن الشهيد سيد قطب قد استفاد من كتب الغزالي، وإن لم ينقل منها بالحرف، وإنما اقتبس كثيرا من الأفكار. ولهذا جعل من مصادره في الطبعة الأولى للكتاب: «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية». ثم حُذفا بعد ذلك مع قائمة المصادر كلها.

استقبلت الأوساط الإسلامية كتاب «العدالة» بالحفاوة والترحيب؛ باعتباره أول مولود لسيد قطب في عهده الجديد، واستبشروا بأن التيار الإسلامي قد كسب كاتبا له وزنه الأدبي، وقلمه البليغ؛ فهو يعتبر إضافة لها قيمتها إلى هذا التيار، تعوض الخسارة التي لحقت به بانضمام الشيخ خالد محمد خالد إلى التيار العلماني؛ فكأن عدالة الأقدار عوضت عن خالد بسيد، وعن كتاب «من هنا نبدأ» بكتاب «العدالة الاجتماعية في الإسلام».

وغمرت الإخوان خاصة فرحة بهذا القلم الجديد الذي انضم إلى القافلة الإسلامية، وكأنه كان مكافأة لهم بعد خروجهم من معتقلات الطور و«هايكستب» وسقوط وزارة إبراهيم عبد الهادي قاتلة حسن البنا، وصاحب التاريخ الأسود، والعسكري الأسود!

ولم يكتفِ سيد قطب بهذا الكتاب بل أتبعه بكتب أخرى: «معركة الإسلام والرأسمالية» و«السلام العالمي والإسلام»، ومقالات عدة كتبها في مجلة «الدعوة» التي يصدرها الإخوان، ومجلة «الاشتراكية» التي يصدرها حزب العمل، ومجلة «اللواء» التي

يصدرها الحزب الوطني، ولكن هذه المقالات كانت كلها «تحت راية الإسلام». وهي التي جمعت بعد ذلك تحت عنوان «دراسات إسلامية».

ومنها مقال عن «حسن البنا وعبقرية البناء»، نقلت خلاصته في كتابي «الإخوان المسلمون: سبعون عاما في الدعوة والتربية والجهاد».

وفي هذه الفترة بدأ يكتب تفسيره الشهير الذي لم يسمه تفسيرا، ولكنه رضي أن يسميه «في ظلال القرآن» وصدق في تسميته، فلم يكن في طبعته الأولى يحمل الطابع الرسمي للتفسير، ولكنها وقفات عقل متدبر، وقلب حي، ووجدان مرهف أمام القرآن، يلتمس عظاته، ويجلي إعجازه، ويبين حقائقه، وينبه على مقاصده، وإن تغير ذلك في الأجزاء الأخيرة، وفي الطبعة الثانية للأجزاء الأولى، فقد بدأ يهتم بالجانب التفسيري، حتى أحسب أنه أفرغ خلاصة تفسير ابن كثير في «ظلاله».

وفي هذه الفترة بدأ سيد قطب يقترب من الإخوان، ويرى بعينيه نشاطهم والتزامهم، وما بينهم من رباط وثيق، وإخاء عميق، وما يتميز به كثير منهم من وعي دقيق، وشعور رقيق، وكان المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي يصطحبه معه في رحلاته، ليرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويحكم بعد ذلك بعقله، ويختار لنفسه.

وقد اختار بملء إرادته الانضمام إلى دعوة الإخوان، ولا سيما بعد أن خاب ظنه في رجال الثورة، الذين علق عليهم في أول الأمر آمالا وأحلاما، فتبخرت وضاعت، كما تبخرت أحلام الشاعر العاشق الذي قال:

كأني من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

وأحيل القارئ إلى ما ذكرته في الجزء الثاني من المذكرات عن سيد قطب وانضمامه إلى الإخوان، وتسلمه رئاسة قسم نشر الدعوة في الجماعة، ورئاسة تحرير مجلتهم، إلى أن دخل معهم في محاكمات محكمة الشعب وحكم عليه بعشر سنوات.

مرحلة الثورة الإسلامية

وهذه مرحلة جديدة تطور إليها فكر سيد قطب، يمكن أن نسميها «مرحلة الثورة الإسلامية»، الثورة على كل «الحكومات الإسلامية»، أو التي تدعي أنها إسلامية، والثورة على كل «المجتمعات الإسلامية» أو التي تدعي أنها إسلامية، فالحقيقة في نظر سيد قطب أن كل المجتمعات القائمة في الأرض أصبحت مجتمعات جاهلية.

تكَوَّن هذا الفكر الثوري الرافض لكل من حوله وما حوله، والذي ينضح بتكفير المجتمع، وتكفير الناس عامة؛ لأنهم «أسقطوا حاكمية الله تعالى» ورضوا بغيره حكما، واحتكموا إلى أنظمة بشرية، وقوانين وضعية، وقيم أرضية، واستوردوا الفلسفات والمناهج التربوية والثقافية والإعلامية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية وغيرها من غير المصادر الإسلامية، ومن خارج مجتمعات الإسلام.. فبماذا يوصف هؤلاء إلا بالردة عن دين الإسلام؟!

بل الواقع – عنده – أنهم لم يدخلوا الإسلام قط حتى يحكم عليهم بالردة، إن دخول الإسلام إنما هو النطق بالشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وهم لم يفهموا معنى هذه الشهادة، لم يفهموا أن «لا إله إلا الله» منهج حياة للمسلم، تميزه عن غيره من أصحاب الجاهليات المختلفة، ممن يعتبرهم الناس أهل العلم والحضارة.

أقول: تكون هذا الفكر الثوري الرافض، داخل السجن، وخصوصا بعد أن أعلنت مصر وزعيمها عبد الناصر عن ضرورة التحول الاشتراكي، وحتمية الحل الاشتراكي، وصدر «الميثاق» الذي سماه بعضهم «قرآن الثورة»! وبعد الاقتراب المصري السوفيتي، ومصالحة الشيوعيين، ووثوبهم على أجهزة الإعلام والثقافة والأدب والفكر، ومحاولتهم تغيير وجه مصر الإسلامي التاريخي.

هنالك رأى سيد قطب أن الكفر قد كشف اللثام عن نفسه، وأنه لم يعد في حاجة إلى أن يخفيه بأغطية وشعارات لإسكات الجماهير، وتضليل العوام.

هنالك رأى أن يخوض المعركة وحده، راكبا أو راجلا، حاملا سيفه «ولا سيف له غير القلم» لقتال خصومه، وما أكثرهم. سيقاتل الملاحدة الجاحدين، ويقاتل المشركين الوثنيين، ويقاتل أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويقاتل المسلمين أيضا، الذين اغتالتهم الجاهلية، فعاشوا مسلمين بلا إسلام!

وأنا برغم إعجابي بذكاء سيد قطب ونبوغه وتفوقه، وبرغم حبي وتقديري الكبيرين له، وبرغم إيماني بإخلاصه وتجرده فيما وصل إليه من فكر، نتيجة اجتهاد وإعمال فكر - أخالفه في جملة توجهاته الفكرية الجديدة، التي خالف فيها سيد قطب الجديد سيد قطب القديم.. وعارض فيها سيد قطب الثائر الرافض سيد قطب الداعية المسالم، أو سيد قطب صاحب «العدالة» سيد قطب صاحب «المعالم».

ولقد ناقشت المفكر الشهيد في بعض كتبي في بعض أفكاره الأساسية، وإن لامني بعض الإخوة على ذلك، ولكني في الواقع، كتبت ما كتبت وناقشت ما ناقشت، من باب النصيحة في الدين، والأعذار إلى الله، وبيان ما أعتقد أنه الحق، وإلا كنت ممن كتم العلم، أو جامل في الحق، أو داهن في الدين، أو آثر رضا الأشخاص على رضا الله تبارك وتعالى.

ونحن نؤمن بأنه لا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ، وكل أحد غيره يؤخذ من كلامه ويُرَدّ عليه، وأن ليس في العلم كبير، وأن خطأ العالم لا ينقص من قدره إذا توافرت النية الصالحة والاجتهاد من أهله، وأن المجتهد المخطئ معذور، بل مأجور أجرا واحدا، كما في الحديث الشريف، سواء كان خطؤه في المسائل العلمية أو العملية، الأصولية أم الفروعية، كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما.

وأخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة في هذه المرحلة لسيد قطب، هو ركونه إلى فكرة «التكفير» والتوسع فيه، بحيث يفهم قارئه من ظاهر كلامه في مواضع كثيرة ومتفرقة من «الظلال» ومما أفرغه في كتابه «معالم في الطريق» أن المجتمعات كلها قد أصبحت «جاهلية». وهو لا يقصد بـ «الجاهلية» جاهلية العمل والسلوك فقط، بل «جاهلية العقيدة»، إنها الشرك والكفر بالله، حيث لم ترضَ بحاكميته تعالى، وأشركت معه آلهة

أخرى، استوردت من عندهم الأنظمة والقوانين، والقيم والموازين، والأفكار والمفاهيم، واستبدلوا بها شريعة الله، وأحكام كتابه وسنة رسوله ﷺ.

وعلى هذا، ليس الناس في حاجة إلى أن نعرض عليهم نظام الإسلام الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو السياسي، أو القانوني، ونحو ذلك؛ لأن هذه الأنظمة إنما ينتفع بها المؤمنون بها، وبأنها من عند الله. أما من لا يؤمن بها، فيجب أن نعرض عليه «العقيدة أولا» حتى يؤمن بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالشريعة حاكمة.

وهذا ما أشار إليه في كتابه «المعالم» وفصّله في كتاب «الإسلام ومشكلات الحضارة». وشبّه مجتمعاتنا اليوم بمجتمع مكة في عهد الرسالة، وأن الرسول لم يعرض عليه النظام والتشريع، بل عرض عليه العقيدة والتوحيد.

كما رأى - عليه رحمة الله - أن لا معنى لما يحاوله المحاولون من علماء العصر لما سموه «تطوير» الفقه الإسلامي أو «تجديده» أو «إحياء الاجتهاد» فيه؛ إذ لا فائدة من ذلك كله ما دام المجتمع المسلم غائبا، يجب أن يقوم المجتمع المسلم أولا، ثم نجتهد له في حل مشكلاته في ضوء واقعنا الإسلامي.

وقد ناقشت أفكاره عن «الاجتهاد» وعدم حاجتنا إليه قبل أن يقوم المجتمع الإسلامي، في كتابي «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» وبينت بالأدلة خطأ فكرته هذه.

وكما ناقشت الشهيد سيد قطب في رأيه حول قضية «الاجتهاد» ناقشته في رأيه في «الجهاد» وقد تبنى أضيق الآراء وأشدها في الفقه الإسلامي، مخالفا اتجاه كبار الفقهاء والدعاة المعاصرين، داعيا إلى أن على المسلمين أن يعدوا أنفسهم لقتال العالم كله، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون!

وحجته في ذلك آيات سورة التوبة وما سماه بعضهم «آية السيف»، ولم يبال بمخالفة آيات كثيرة تدعو إلى السلم وقَصْرِ القتال على من يقاتلنا، وكفِّ أيدينا عمن اعتزلنا ولم يقاتلنا ومدَّ يده لمسالمتنا، وتدعو إلى البر والقسط مع المخالفين لنا إذا سالمونا، فلم يقاتلونا

في الدين، ولم يخرجونا من ديارنا، ولم يُظاهروا على إخراجنا.

هذا ما تدل عليه الآيات الكثيرة من كتاب الله مثل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠،١٩١]. ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]. ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩١]. ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [الأنفال: ٦١]. ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

[الممتحنة: ٨].

والأستاذ سيد - رحمه الله - يتخلص من هذه الآيات وأمثالها بكلمة في غاية السهولة: أن هذه كان معمولًا بها في مرحلة، ثم توقف العمل بها، والعبرة بالموقف الأخير، وهو ما يعبر عنه الأقدمون بالنسخ، وقولهم في هذه الآيات: نسختها آية السيف.

ولا أدري كيف هان على سيد قطب -وهو رجل القرآن الذي عاش في ظلاله سنين عددا يتأمله ويتدبره ويفسره- أن يعطل هذه الآيات الكريمة كلها، وأكثر منها في القرآن، بآية زعموها آية السيف؟ وما معنى بقائها في القرآن إذا بقي لفظها وألغي معناها، وبطل مفعولها وحكمها؟!.

ويقول الشهيد - رحمه الله-: إننا لا نفرض على الناس عقيدتنا، إذ لا إكراه في الدين، وإنما نفرض عليهم نظامنا وشريعتنا، ليعيشوا في ظله، وينعموا بعدله.

ولكن بماذا نجيب الناس إذا قالوا لنا: إننا أحرار في اختيار النظام الذي نرضاه لأنفسنا، فلماذا تفرضون علينا نظامكم بالقوة؟ إن كل شيء يجرعه الإنسان تجريعا رغم

أنفه يكرهه وينفر منه، ولو كان هو السكر المذاب، أو العسل المصفى!.

وما الحكم إذا كنا نحن -اليهود أو النصارى أو الوثنيين- أصحاب القوة والمنعة، وأنتم الضعفاء في العدة أو الأقلون في العدد؟ هل تقبلون أن نفرض عليكم نظامنا ومنهج حياتنا؟ كما هو شأن أمريكا اليوم، وتطلعاتها للهيمنة على العالم؟.

ومما ننكره على الأستاذ سيد - رحمه الله - أنه يتهم معارضيه من علماء العصر بأمرين:

الأول: السذاجة والغفلة والبله، ونحو ذلك مما يتصل بالقصور في الجانب العقلي والمعرفي.

والثاني: الوهن والضعف النفسي، والهزيمة النفسية أمام ضغط الواقع الغربي المعاصر، وتأثير الاستشراق الماكر مما يتعلق بالجانب النفسي والخلقي.

والذين يتهمهم بذلك هم أعلام الأمة في العلم والفقه والدعوة والفكر، ابتداء من الشيخ محمد عبده، مرورا بالشيخ رشيد رضا، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ محمد مصطفى المراغي، والمشايخ: محمود شلتوت، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد إبراهيم، وعبد الوهاب خلاف، وعلي الخفيف، ومحمد أبو زهرة، ومحمد يوسف موسى، ومحمد المدني، ومحمد مصطفى شلبي، ومحمد البهي، وحسن البنا، ومصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، وعلي الطنطاوي، ومعروف الدواليبي، والبهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق، وعلال الفاسي، وعبد الله بن زيد المحمود، ومحمد فتحي عثمان، وغيرهم من شيوخ العلم الديني.

هذا فضلا عن الكتاب والمفكرين «المدنيين» الذين لا يحسبون على العلوم الشرعية، من أمثال: د. محمد حسين هيكل، وعباس العقاد، ومحمد فريد وجدي، وأحمد أمين، ومحمود شيت خطاب، وعبد الرحمن عزام، وجمال الدين محفوظ، ومحمد فرج، وغيرهم وغيرهم في بلاد العرب والمسلمين.

على أية حال، كانت هذه هي الأفكار المحورية في هذه المرحلة من حياة سيد قطب،

وفيها عَدّل من أفكاره واتجاهه تعديلا جذريا، وأصبح ما كتبه قديما في «العدالة الاجتماعية» وغيرها، يمثل مرحلة من حياته، ولا يمثل الخط الأخير الذي يتبناه ويدعو إليه، ويدافع عنه.

وقد حدثني الأخ د. محمد المهدي البدري أن أحد الإخوة المقربين من سيد قطب - وكان معه معتقلا في محنة ١٩٦٥م- أخبره أن الأستاذ سيد قطب عليه رحمة الله، قال له: إن الذي يمثل فكري هو كتبي الأخيرة: المعالم، والأجزاء الأخيرة من الظلال، والطبعة الثانية من الأجزاء الأولى، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، والإسلام ومشكلات الحضارة، ونحوها مما صدر له وهو في السجن، أما كتبه القديمة فهو لا يتبناها، فهي تمثل تاريخا لا أكثر.

فقال له هذا الأخ من تلاميذه: إذن أنت كالشافعي لك مذهبان: قديم وجديد، والذي تتمسك به هو الجديد لا القديم من مذهبك.

قال سيد رحمه الله: نعم، غيرت كما غير الشافعي رضي الله عنه. ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيرت في الأصول!.

فالرجل يعرف مدى التغيير الذي حدث في فكره. فهو تغيير أصولي أو «إستراتيجي» كما يقولون اليوم.

وهو على كل حال مخلص في توجهه، مأجور في اجتهاده، أصاب أم أخطأ، ما دام الإسلام مرجعه، والإسلام منطلقه، والإسلام هدفه. وأشهد أن الرجل في المرحلة الأخيرة من حياته، كان كله للإسلام، عاش للإسلام، ومات في سبيل الإسلام! فرضي الله عنه وأرضاه، وجعل الفردوس مثواه، وغفر له ما نحسب أنه أخطأ فيه، وأجره عليه أجر المجتهدين الصادقين.

وغفر لنا معه أجمعين ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

تحامل على سيد قطب في فكرة الحاكمية

ولقد اتهم بعض الكاتبين سيد قطب بأنه تبنى فكرة «الحاكمية» التي أخذها عن المودودي، وجعلها من صلب عقيدة التوحيد، ورتب عليها أحكاما خطيرة، منها أن الدولة التي تقوم على أساسها أشبه ما تكون بالدولة الدينية، التي تقوم على الحكم بالحق الإلهي. وهذا تحامل ظالم على الرجل.

والحق أن فكرة الحاكمية أساء فهمها الكثيرون، وأدخلوا في مفهومها ما لم يُرِده أصحابها. وأود أن أنبه هنا على جملة ملاحظات حول هذه القضية:

١- **الملاحظة الأولى**: أن الحاكمية التي ركز عليها سيد قطب والمودودي، هي الحاكمية بالمعنى التشريعي، ومفهومها أن الله سبحانه هو المشرع لخلقه، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحل لهم ويحرم عليهم، وهذا ليس من ابتكار المودودي ولا سيد قطب، بل هو أمر مقرر عند المسلمين جميعا؛ ولهذا حين قال الخوارج لعلي: لا حكم إلا لله، لم يعترض علي رضي الله عنه على المبدأ، وإنما اعترض على الباعث والهدف المقصود من وراء الكلمة، فقال ردًّا عليهم: «كلمة حق يراد بها باطل».

وقد بحث في هذه القضية علماء «أصول الفقه» في مقدماتهم الأصولية التي بحثوا فيها عن الحكم الشرعي، والحاكم، والمحكوم به، والمحكوم عليه.

فها نحن نجد إماما مثل أبي حامد الغزالي يقول في مقدمات كتابه الشهير «المستصفى من علم الأصول» عن «الحكم» الذي هو أول مباحث العلم، وهو عبارة عن خطاب الشرع، ولا حكم قبل ورود الشرع، وله تعلق بالحاكم، وهو الشارع، وبالمحكوم عليه، وهو المكلف، وبالمحكوم فيه، وهو فعل المكلف...

ثم يقول: «وفي البحث عن الحاكم يتبين أن لا حُكم إلا لله وأن لا حكم للرسول، ولا للسيد على العبد، ولا لمخلوق على مخلوق، بل كل ذلك حكم الله تعالى ووضعه، لا

حكم لغيره»[1].

ثم يعود إلى الحديث عن «الحاكم» وهو صاحب الخطاب الموجه إلى المكلفين، فيقول: «أما استحقاق نفوذ الحكم، فليس إلا لمن له الخلق والأمر، فإنما النافذ حكم المالك على مملوكه، ولا مالك إلا الخالق، فلا حكم ولا أمر إلا له، أما النبي ﷺ، والسلطان والسيد والأب والزوج، فإذا أمروا وأوجبوا لم يجب شيء بإيجابهم، بل بإيجاب من الله تعالى طاعتهم، ولولا ذلك لكان كل مخلوق أوجب على غيره شيئا كان للموجَب عليه أن يقلب عليه الإيجاب، إذ ليس أحدهما أولى من الآخر، فإذن الواجب طاعة الله تعالى، وطاعة من أوجب الله تعالى طاعته»[2].

وبهذا نعلم أن فكرة «الحاكمية» ليست من اختراع سيد قطب ولا المودودي، بل هي فكرة إسلامية أصيلة، قررها علماء الأصول، واتفق عليه أهل السنة والمعتزلة جميعا.

٢- **الملاحظة الثانية:** أن «الحاكمية» التي قال بها المودودي وقطب، وجعلاها لله وحده، لا تعني أن الله تعالى هو الذي يولي العلماء والأمراء، يحكمون باسمه، بل المقصود بها الحاكمية التشريعية فحسب، أما سند السلطة السياسية فمرجعه إلى الأمة، هي التي تختار حكامها، وهي التي تحاسبهم وتراقبهم، بل تعتزلهم. والتفريق بين الأمرين مهم، والخلط بينهما موهم ومضلل، كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد كمال أبو المجد، بحق.

فليس معنى الحاكمية الدعوة إلى دولة ثيوقراطية، بل هذا ما نفاه كل من سيد قطب

(١) المستصفى: «١/ ٨» طبع دار صادر ببيروت، مصورة عن طبعة بولاق.

(٢) المستصفى: «١/ ٨٣» طبع دار صادر ببيروت، مصورة عن طبة بولاق. وفي فواتح الرحموت: مسألة: لا حكم إلا من الله تعالى، بإجماع الأمة لا كما في كتب بعض المشايخ، إن هذا عندنا، وعند المعتزلة الحاكم العقل، فإن هذا مما لا يجترئ عليه أحد ممن يدعي الإسلام، بل إنما يقولون: إن العقل معرف لبعض الأحكام الإلهية، سواء ورد به الشرع أم لا، وهذا مأثور عن أكابر مشايخنا أيضا «يعني الماتريدية» «١/ ٢٥» مع المستصفى.

والمودودي رحمهما الله.

وحسبي هنا أن أذكر قول سيد قطب في «معالمه»: «ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم -هم رجال الدين- كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يُعرف باسم الثيوقراطية أو الحكم الإلهي المقدس!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة».

٣- **الملاحظة الثالثة:** أن الحاكمية التشريعية التي يجب أن تكون لله وحده، وليست لأحد من خلقه، ونادى بها المودودي وقطب، هي الحاكمية «العليا» و«المطلقة» التي لا يحدها ولا يقيدها شيء، فهي من دلائل وحدانية الألوهية، بل من مقومات التوحيد، كما بين القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

وهذه الحاكمية -بهذا المعنى- لا تنفي أن يكون للبشر قَدْر من التشريع أذن به الله لهم. إنما هي تمنع أن يكون لهم استقلال بالتشريع غير مأذون به من الله، وذلك مثل التشريع الديني المحض، كالتشريع في أمر العبادات، والتشريع الذي يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويسقط ما فرض الله. أما التشريع فيما لا نص فيه، أو في المصالح المرسلة، وفيما للاجتهاد فيه نصيب، فهذا من حق المسلمين، ولهذا كانت نصوص الدين في غالب الأمر كلية إجمالية لا تفصيلية، ليتاح للناس أن يشرعوا لأنفسهم، ويملئوا الفراغ التشريعي بما يناسبهم(١).

---

(١) انظر: كتابنا «بينات الحل الإسلامي» ص١٦٣-١٦٧.

هل يكفّر «سيد قطب» مسلمي اليوم؟

(نصوص لسيد قطب من كتبه، جمعها وعلّق عليها د. القرضاوي)



مقدمة المحرر:

هل يكفّر الشهيد سيد قطب - رحمه الله تعالى - عامة المسلمين؟ وهل في نصوصه من كتبه ما يدل على ذلك أم أن الأمر لا يعدو استنتاجات بُنيت على كلامه؟ يورد الشيخ د. يوسف القرضاوي — حفظه الله تعالى - هنا نصوصًا جَمَعها من كتب سيد قطب («ظلال القرآن»، و«معالم في الطريق»، و«العدالة الاجتماعية في الإسلام») تحمل تكفير مسلمي اليوم بشكل صريح وواضح لا يدع مجالًا للشك، ويبين خطأها بإيجاز في بعض المواضع، ويسكت معتمدًا على «فطرة» المسلم في مواضع أخرى.

وقد قسمنا نصوص قطب التي جمعها الشيخ القرضاوي إلى ثلاثة محاور مع بعض التجوّز [1]، نظرًا لعبارات «قطب» الأدبية المسترسلة، وتكراره لفكرته في أكثر من موضع وفي أكثر من كتاب. المحاور هي: أولوية تمييز المؤمنين من المجرمين عند سيد، وغياب المجتمع الإسلامي.. وأولوية إيجاد «مسلمين»!، وجاهلية المجتمع وضرورة الجهر بتوقف «وجود» الإسلام!.

تتضمن هذه المحاور الثلاثة -على مرونتها- عددًا من الجزئيات، ففي كتابه «ظلال القرآن» يعتبر سيد أن تمييز المؤمنين من المجرمين أُولى المهام، ومن ثمّ فهو يشرح مفهوم

---

(١) جَمَع الشيخ القرضاوي هذه النصوص بعد ردود الأفعال الغاضبة أو المعاتبة له لأجل «وقفته مع سيد قطب»، وقولِه: إن سيدًا رَكَنَ إلى التكفير وتَوَسع فيه، والبعض طالبَه بنصوص واضحة، فاستجاب لذلك. وقد حررتُ هذه النصوص وصنفتها على هذا الشكل ونشرتُها له في صفحة «الإسلام وقضايا العصر» من موقع إسلام أونلاين، سنة ٢٠٠٤م، ثم أعاد نشرها - بصيغتها الأولى - في ملحق مذكراته سنة ٢٠٠٦م، ج٣، ص٤٤١.

شهادة التوحيد في الإسلام (بل عنده!)، ويؤكد على أن تكفير المسلمين إنْ هو إلا جَهْر بكلمة الفصل!، ومع القول بجاهلية المجتمع الإسلامي اليوم يتوجب – عند قطب- مفاصَلة «العصبة المسلمة» –كما يسميها ووفق شرحه هو- للجاهلية من حولها، معتبرًا مسلمي اليوم كمشركي الجاهلية!

إن «قطب» ينكر وجود مجتمع إسلامي ذي كيان قائم اليوم.. ومن ثمّ يرى أن نقطة البدء – كأول عهد الإسلام- إيجادُ «مسلمين»! شارحًا معنى الدين الحق ومظاهر شرك (المسلمين) ومساواتهم لأهل الكتاب! مؤكدًا على ضرورة تعرية الجاهلية وتكفير (المسلمين).. لبعث الإسلام؛ إذ إن رفع لافتة «مسلم» مع عدم وجود إسلام حقيقي هو تخدير للبعث الإسلامي كما يرى!

ويكرر قطب التأكيد على جاهلية المجتمع شارحًا منهج الإسلام – (بل رؤيته هو!) – في مواجهته، ومكررًا التأكيد على أن الجهر بتوقف «وجود» الإسلام اليوم هو ضرورة!.

بقي أن التعليقات القصيرة التي تسبق أو تعقب نصوص قطب هي من كلام الشيخ القرضاوي.

١- تمييز المؤمنين من المجرمين.. أولى المهام!

من قرأ (ظلال القرآن) لسيد قطب في طبعته الأولى لم يجد فيه شيئا يدل على هذه الفكرة: تكفير المسلمين الذين يعيشون في العالم الإسلامي اليوم. ولكن من قرأ الأجزاء الأخيرة منه، التي كتبها وهو في السجن بعد تغير اتجاهه الفكري، وكذلك الأجزاء الأولى التي عدلها، وظهر ذلك في طبعته الثانية ومن بعدها: يجد هذه الفكرة المحورية تسري في الكتاب في عشرات المواضع، بل في مئاتها، يذكرها ويؤكدها كلما جاءت مناسبة، بل في أدنى مناسبة لها.

وسنكتفي هنا بالاقتباس من تفسير سورة الأنعام، من الجزء السابع، ومن سورة الأنفال والتوبة من الجزء العاشر، على اعتبار أن سورة الأنعام من القرآن المكي، وسورتي

الأنفال والتوبة من القرآن المدني.

وحسبنا هذا النص الصريح المعبر عن فكرة الشهيد رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى: (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين).

قال رحمه الله:

(إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح. واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات. ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم. فهما صفحتان متقابلتان، وطريقان مفترقتان.. ولا بد من وضوح الألوان والخطوط.

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين؛ ووضع العنوان المميز للمؤمنين، والعنوان المميز للمجرمين، في عالم الواقع لا في عالم النظريات. فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون، بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم، بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين..

وهذا التحديد كان قائما، وهذا الوضوح كان كاملا، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية. فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول – ﷺ– ومن معه. وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين.. ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان الله – سبحانه– يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة – ومنها ذلك النموذج الأخير– لتستبين سبيل المجرمين!

وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة في

الديانات ذات الأصل السماوي بعدما بدلتها وأفسدتها التحريفات البشرية.. حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل: كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك.. لا يجدي معها التلبيس!

مفهوم شهادة التوحيد.. عند سيد قطب

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا.. **إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين، في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام**، يسيطر عليها دين الله، وتحكم بشريعته.. ثم إذا هذه الأرض، وإذا هذه الأقوام، تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه اسما، وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا. وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله – وحده- هو خالق هذا الكون المتصرف فيه، وأن الله – وحده- هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله.

وأن الله –وحده- هو الذي يتلقى من العباد الشرائع، ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله.. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول- **فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد**، كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه. **وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فهي أرض لم تَدِن بدين الله، ولم تدخل في الإسلام بعد..**

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين؛ وهم من سلالات المسلمين، وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام، ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول.

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام!

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام في جانب؛ وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر.

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين؛ واختلاط الشارات والعناوين؛ والتباس الأسماء والصفات؛ والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق!

تكفير المسلمين.. جَهْر بكلمة الفصل!

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة. فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتلبيسا وتخليطا، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام!.. تهمة تكفير (المسلمين)!!! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله!

هذه هي المشقة الكبرى.. وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل!

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين.. ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة. وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف؛ وألا تقعدهم عنها لومة لائم، ولا صيحة صائح: انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن والكفر بيّن.. الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول- فمن لم يشهدها على هذا النحو؛ ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين.. المجرمين.. (وكذلك نفصل الآيات، ولتستبين سبيل المجرمين).

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة؛ كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة، ولا يعوقها غبش، ولا يميعها لبس. فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم (المسلمون) وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم (المجرمون)..

كذلك فإنهم لن يتحملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنهـا قضـية كفـر وإيـمان. وأنهـم وقومهم على مفرق الطريق، وأنه على ملـة وقـومهم عـلى ملـة. وأنهـم في ديـن وقـومهم في دين: (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين)[1]. انتهى.

هذا هو الرجل يصرح – بل يصرخ- بما لا يدع مجالا للشك والاحتمال: أن الأوطـان التي كانـت تعتبر في يـوم مـن الأيـام (دارا للإسـلام) وأن هـؤلاء الأقـوام (مـن سـلالات المسلمين) أن الذين كان أجـدادهم مسـلمين في يـوم مـن الأيـام: لم يعـودوا مسـلمين، وإن ظنوا أنهم يدينون بالإسلام اعتقـادا، في حـين أنهـم ليسـوا مسـلمين لا عمـلا ولا اعتقـادا، لأنهـم لم يشـهدوا أن (لا إلـه إلا الله) بمـدلولها الحقيقـي كـما حـدده هـو، وأشـق مـا تعانيـه الحركـات الإسـلامية: أنهـا لم يتضـح لهـا هـذا المفهـوم الجديـد: أن الـذين يظنـون أنفسـهم مسلمين اليوم هم كفار في الحقيقة، وهو يريد من هذه الحركات ودعاتها: أن يجهروا بكلمة الفصل ولا يبالوا بـ(تهمة تكفير المسلمين) فالحقيقة أنهم ليسوا مسلمين!!.

مفاصلة «العصبة المسلمة» للجاهلية من حولها

وفي موضـع آخـر مـن تفسـير السـورة عنـد قولـه تعـالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال رحمه الله:

(وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض، وضرورة مسارعتها بالتميز عن الجاهلية المحيطة بها – والجاهلية: كل وضع وكل حكم وكل مجتمـع لا تحكمـه شريعـة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهيـة والحاكميـة- وضرورة مفاصـلتها للجاهليـة مـن حولها؛ **باعتبار نفسـها أمـة متميـزة مـن قومهـا الـذين يـؤثرون البقـاء في الجاهليـة**، والتقيـد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

إنـه لا نجـاة للعصـبة المسـلمة في كـل الأرض مـن أن يقـع عليهـا هـذا العـذاب: (**أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**)، إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديا وشـعوريا

(١) في ظلال القرآن ج٧ ص٢٣٨-٢٤٠ طبعة عيسى الحلبي الثانية.

ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها - حتى يأذن الله لها بقيام (دار إسلام) تعتصم بها – **وإلا أن تشعر شعورا كاملا بأنها هي (الأمة المسلمة) وأن ما حولها ومن حولها، ممن لم يدخلوا فيها دخلت فيه: جاهلية وأهل جاهلية.** وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج؛ وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين.

فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة، ولم تتميز هذا التميز: حق عليها وعيد الله هذا. وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع، ولا تتبين نفسها، ولا يتبينها الناس مما حولها، وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد؛ دون أن يدركها فتح الله الموعود!

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات.. غير أن هذه التضحيات والمشقات، لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب، الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها..

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره، وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم.. لم يقع في مرة واحدة، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة – أي الدين– وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها – أي نظام حياتها– وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعا) [1].

النص واضح تمام الوضوح: إن الكاتب لا يعتبر مسلما إلا من آمن بفكرته هذه، وهي الفئة التي يسميها (العصبة المسلمة) وهي التي يجب أن تشعر بأنها وحدها هي (الأمة المسلمة) وأن ما حولها ومن حولها، ممن لم يدخلوا فيها دخلت فيه: جاهلية وأهل جاهلية، أي هم مشركون وكفار، ليس لهم في الإسلام نصيب، وإن كانوا يصلون

(١) الظلال ج٧ ص٢٦٩.

ويصومون ويزكون ويحجون! فكأنما المسلمون جميعا بمثابة مشركي مكة عند البعثة المحمدية، وكأنما دعوته بمثابة دعوة محمد ﷺ، من آمن بها دخل في الإسلام، ومن لم يؤمن بها فهو جاهلي كافر حلال الدم!!.

مسلمو اليوم.. كمشركي الجاهلية؟

ومن أجل ذلك أكد سيد قطب مرات ومرات: العناية بدعوة الناس الذين (يسمون أنفسهم مسلمين) إلى اعتناق العقيدة قبل كل شيء، قبل أن تدعوهم إلى التشريع الإسلامي، أو النظام الإسلامي، بل الواجب الأساس: أن ندعوهم ليسلموا أولا، ليشهدوا أن لا إله إلا الله بمفهومها القطبي الجديد، وبهذا يخرجون من الجاهلية التي ارتكسوا فيها، ويدخلون في الإسلام.

والحق أننا لم نر الرسول ﷺ، ولا الصحابة، ولا التابعين، ولا أحدا من السلف أو الخلف، فسر كلمة التوحيد بما فسرها به سيد رحمه الله. إنما كانوا يدعون الناس من العرب والعجم إلى (لا إله إلا الله). التي يعرف الناس مدلولها بفطرتهم، فحين يدعى المجوسي إلى (لا إله إلا الله) يفهم أن معناها: أن يترك عبادة النار، وأن لا يقول بإلهين اثنين، إله للخير والنور، وإله للشر والظلمة، ويتجه بصلاته ونسكه وتذلله لله وحده.

والهندوسي حينما يدعى إلى (لا إله إلا الله) يفهم منها: أن يدع عبادة البقر وغيرها من الحيوانات وقوى الطبيعة المختلفة، ويتجه بعبادته لله رب العالمين.

وننقل هنا هذا النص من تقديم سورة الأنعام، يقرر هذا المعنى الذي ألمحنا إليه. قال صاحب الظلال:

(والذين يريدون من الإسلام اليوم أن يصوغ قوالب نظام، وأن يصوغ تشريعات حياة.. بينما ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شريعة الله وحدها ورفض كل شريعة سواها مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه.. الذين يريدون من الإسلام ذلك لا يدركون طبيعة هذا الدين، ولا كيف يعمل في الحياة؟ كما يريد له الله.

إنهم يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه أنظمة بشرية، ومناهج بشرية. ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم، إنما تنشئها الهزيمة الداخلية في أرواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة.. إنهم يريدون منه أن يصوغ نفسه في قالب فروض، تواجه مستقبلا غير موجود.. والله يريد لهذا الدين أن يكون كما أراده: عقيدة تملأ القلب، وتفرض سلطانها على الضمير، عقيدة مقتضاها ألا يخضع الناس إلا لله، ولا يتلقوا الشرائع إلا من الله. وبعد أن يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم، ويصبح لهم السلطان في مجتمعهم تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك.

كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين، **يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة ـ حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين! وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ـ** يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة: لا إله إلا الله بمدلولها الحقيقي، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم.. إقرارها في ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها في أوضاعهم وواقعهم.

ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس إلى الإسلام، كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة.. هذه الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة.

فإذا دخل في هذا الدين ـ بمفهومه هذا الأصيل ـ عصبة من الناس، فهذه العصبة هي التي تصلح لمزاولة النظام الإسلامي في حياتها الاجتماعية؛ لأنها قررت بينها وبين نفسها أن تقوم حياتها على هذا الأساس؛ وألا تحكّم في حياتها كلها إلا الله).[1]

النص من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعليق، فالكاتب ينظر إلى مسلمي اليوم نظرته

(١) في ظلال القرآن ج٧ ص٨٧.

إلى مشركي العرب في الجاهلية تماما عند البعثة، لا فرق بين هؤلاء ولا أولئك، إلا أن هؤلاء يسمون أنفسهم مسلمين وهذه لا تغني عنهم شيئا، ولهذا كان على أصحاب الدعوة الإسلامية: أن يدعوا الناس إلى اعتناق العقيدة أولا، حتى ولو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، وتشهد لهم شهادات الميلاد أنهم مسلمون!

وقد اعتسف الشهيد رحمه الله في إلزامه الناس جميعا بتفسيره لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) والمسلمون جميعا يفهمون معناها: أنه لا معبود بحق إلا الله. والعبادة تعرفها الأمم جميعا، فمنهم من يوجهها إلى الله وحده وهم المسلمون، ومنهم من يشرك مع الله غيره، ومنهم من يعبد هذا القبر من دون الله، ولا يمكن أن نسوي بين المسلم والهندوسي الذي يعبد البقرة، أو البوذي الذي يعبد (بوذا)!

ومشكلة الأستاذ سيد: أنه لا يعرف إلا الإيمان أو الكفر، ولكن يوجد بينهما منزلة هي الفسوق والعصيان، فقد يوجد اليوم مئات الملايين من المسلمين ولكنهم - كلهم أو جلهم - عصاة مفرطون، في حاجة إلى أن يتوبوا، أو جهلة بدينهم في حاجة إلى أن يعلموا.

فلو قال الأستاذ سيد: لا يوجد مسلمون كاملون في إسلامهم فهما وسلوكا إلا القليل: لكان كلامه مقبولا، أما أن يقول: لا يوجد مسلمون قط، وإنما يوجد أقوام من سلالات المسلمين، وأن الوجود الإسلامي قد انتهى أو توقف من زمن طويل، فهذا إسراف في النظر إلى الأمة، التي لم تكفر بربها ولا بقرآنها ولا برسولها، ولا تزال تتجمع بالملايين في شهر رمضان لصلاة التراويح، وفي مواسم الحج والعمرة.

فمن يقول: إن هؤلاء جميعا كفار؟! بل نقول ما قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ**﴾ [فاطر:٣٢].

٢- ليس هناك مجتمع إسلامي ذو كيان قائم!

وفي تفسيره لآية: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾ [الأنفال:

٤١]. وإشارته إلى ما روي فيها من خلافات حول توزيع الخمس الذي يبقى بعد أخذ المقاتلين أربعة أخماسهم، وما ورد فيه من أقوال، يقول رحمه الله:

(ونحن على – طريقتنا في هذه الظلال – لا ندخل في هذه التفريعات الفقهية التي يحسن أن تطلب في مباحثها.. هذا بصفة عامة.. وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعا إسلاميا يواجهنا اليوم أصلا.. فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد في سبيل الله، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها! لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة؛ ورجع الناس إلى الجاهلية التي كانوا عليها، فأشركوا مع الله أربابا أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعو الناس من جديد إلى الدخول فيه.. إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان. والتلقي في هذا الشأن عن رسول الله وحده! وإلى التجمع تحت قيادة مسلمة تعمل لإعادة إنشاء هذا الدين في حياة البشر، والتوجه بالولاء كله لهذا التجمع ولقيادته المسلمة؛ ونزع هذا الولاء من المجتمعات الجاهلية وقيادتها جميعا.

هذه هي القضية الحية الواقعية التي تواجه اليوم هذا الدين؛ وليس هناك – في البدء– قضية أخرى سواها.. ليس هناك قضية جهاد! بل ليس هناك قضية تنظيمية واحدة، لا في العلاقات الداخلية ولا في العلاقات الخارجية، وذلك لسبب بسيط: هو أنه ليس هناك مجتمع إسلامي ذو كيان قائم مستقل، يحتاج إلى الأحكام التي تضبط العلاقات فيه والعلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى!!!

والمنهج الإسلامي منهج واقعي، لا يشتغل بقضايا ليست قائمة بالفعل؛ ومن ثم لا يشتغل أصلا بأحكام تتعلق بهذه القضايا التي لا وجود لها من ناحية الواقع!.. إنه منهج أكثر جدية وواقعية من أن يشتغل بالأحكام! هذا ليس منهج هذا الدين. هذا منهج الفارغين الذين ينفقون أوقات الفراغ في البحوث النظرية وفي الأحكام الفقهية، حيث لا مقابل لها من الواقع أصلا! بدلا من أن ينفقوا هذه الجهود في إعادة إنشاء المجتمع المسلم

وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين نفسه: دعوة إلى لا إله وأن محمدا رسول الله؛ ينشأ عنها دخول فئة في هذا الدين من جديد - كما دخل فيه الناس أول مرة - كما ينشأ عن هذا الدخول في الدين تجمع حركي ذو قيادة مسلمة وذو ولاء خاص به وذو كينونة مستقلة عن المجتمعات الجاهلية.. ثم يفتح الله بينه وبين قومه بالحق.. ثم يحتاج حينئذ - وحينئذ فقط - إلى الأحكام التي تنظم علاقاته فيما بينه؛ كما يحتاج إلى الأحكام التي تنظم علاقاته مع غيره.. وحينئذ - وحينئذ فقط - يجتهد المجتهدون فيه لاستنباط الأحكام التي تواجه قضاياه الواقعية - في الداخل وفي الخارج - وحينئذ - وحينئذ فقط - تكون لهذا الاجتهاد قيمته، لأنه تكون لهذا الاجتهاد جديته وواقعيته!

من أجل هذا الإدراك لجدية المنهج الحي الواقعي الحركي لهذا الدين، لا ندخل في تلك التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم؛ حتى يحين وقتها عندما يشاء الله؛ وينشأ المجتمع الإسلامي، ويواجه حالة جهاد فعلي، تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام!)[1].

وأود أن أقول للأستاذ سيد هنا: إن الحاكمية التي يلح عليها ويستدل عليها بآيات القرآن تعني أمرين: الحاكمية الكونية، والحاكمية الشرعية، فمن أقر بالحاكمية الكونية القدرية، فقد أقر بالحاكمية، ولم يعطل اللفظ عن معناه، بمعنى: أنه لا يتصرف في الكون كله إلا الله، إذا قضى أمرا، إنما يقول له: كن فيكون، على أن المرء قد يقر بحاكمية الله الأمرية التشريعية وبنصه ولا ينفذ أحكامه.

نقطة البدء - كأول عهد الإسلام - إيجادُ «مسلمين»!

وفي تعقيباته على تفسير آية الجزية من سورة التوبة، يقول رحمه الله:

ولا نحب أن نستطرد هنا إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم. ولا عن مقادير هذه الجزية. ولا عن طرق ربطها ومواضع هذا الربط.. ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم، كما كانت معروضة على عهود الفقهاء

(١) في ظلال القرآن ج١٠ ص١٠، ١١ - طبعة الحلبي الثانية.

الذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم في وقتها.

إنها قضية تعتبر اليوم «تاريخية» وليست «واقعية».. إن المسلمين اليوم لا يجاهدون!.. **ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون!.. إن قضية «وجود» الإسلام ووجود المسلمين هي التي تحتاج اليوم إلى علاج!**

والمنهج الإسلامي - كما قلنا مرارا- منهج واقعي جاد؛ يأبى أن يناقش القضايا المعلقة في الفضاء؛ ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تطبق في عالم الواقع - لأن الواقع لا يضم مجتمعا مسلما تحكمه شريعة الله، ويصرّف حياته الفقه الإسلامي- ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذه المباحث في أقضية لا وجود لها بالفعل؛ ويسميهم «الأرأيتيين» الذين يقولون: «أرأيت لو أن كذا وقع فما هو الحكم؟».

إن نقطة البدء الآن هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام.. أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق؛ فيشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع؛ ويطبقون هذا في واقع الحياة.. ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان.. ويومئذ - ويومئذ فقط- سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية في مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات.. ويومئذ -ويومئذ فقط- يجوز الدخول في تلك المباحث الفقهية، والاشتغال بصياغة الأحكام، والتقنين للحالات الواقعة التي يواجهها الإسلام بالفعل، لا في علم النظريات!

وإذا كنا قد تعرضنا لتفسير هذه الآية - من ناحية الأصل والمبدأ- فإنما فعلنا هذا لأنها تتعلق بمسألة اعتقادية وترتبط بطبيعة المنهج الإسلامي. وعند هذا الحد نقف، فلا نتطرق وراءه إلى المباحث الفقهية الفرعية احتراما لجدية المنهج الإسلامي وواقعيته وترفعه على هذا الهزال)[1].

(١) في ظلال القرآن ج١٠ ص١٩٠، ١٩١ طبعة عيسى البابي الحلبي الثانية.

وقد ناقشنا الشهيد رحمه الله مناقشة مفصلة حول هذه النقطة حينما عرضنا لرأيه في (إحياء الفقه الإسلامي)، وتجديد الاجتهاد ومدى جديته وجدواه، وبينا انفراده رحمه الله - أو قل شذوذه - عن سائر علماء الأمة بهذا الرأي الذي يتبنى فيه جانب الغلو والتعسير على الأمة، ولكنه لا يرى الأمة موجودة، حتى تستحق منه التيسير لا التعسير، وأنصح قارئي أن يراجع هذه المناقشة في كتابي (الاجتهاد في الشريعة الإسلامية) أو كتابي (الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط).

الدين الحق.. وشرك (المسلمين)!

وفي تفسير قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. نقل ما رواه أحمد والترمذي وابن جرير عن عدي بن حاتم (وكان قد تنصر في الجاهلية) لما سمع الآية من النبي ﷺ يتلوها، قال: يا رسول الله! إنهم لم يعبدوهم! قال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم..».

والحديث- وإن بلغ درجة الصحة - قد اعتمده المفسرون، وقبله العلماء في الجملة، ونقلوه بعضهم عن بعض.

وقد كان هذا الحديث عمدة وركيزة أساسية عند الشهيد، وبنى عليه ما بنى، وهو من ناحية سنده كما ترى، قال في الظلال:

(ومن النص القرآني الواضح الدلالة، ومن تفسير رسول الله ﷺ - وهو فصل الخطاب - ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين: تخلص لنا حقائق في العقائد والدين ذات أهمية، نشير إليها هنا بغاية الاختصار:

ـ أن العبادة هي الاتباع في الشرائع، بنص القرآن وتفسير الرسول.. فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا، بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم، أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم.. ومع هذا حكم الله سبحانه عليهم بالشرك في هذه الآية، وبالكفر

في آية تالية في السياق؛ لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها..

- أن النص القرآني يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقادا وقدموا إليه الشعائر في العبادة. فهذه كتلك سواء في اعتبار فاعلها مشركا بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين..

- أن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده؛ ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهيته؛ ولا تقديم الشعائر التعبدية له.. كما هو واضح من الفقرة السابقة.. ولكنا إنما نزيدها هنا بيانا!

وهذه الحقائق – وإن كان المقصود الأول بها في السياق هو مواجهة الملابسات التي كانت قائمة في المجتمع المسلم يومذاك من التردد والتهيب للمعركة مع الروم، وجلاء شبهة أنهم مؤمنون بالله لأنهم أهل كتاب – هي كذلك حقائق مطلقة تفيدنا في تقرير «حقيقة الدين» عامة..

إن دين الحق الذي لا يقبل الله من الناس كلهم دينا غيره هو «الإسلام».. والإسلام لا يقوم إلا باتباع الله وحده في الشريعة – بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده- فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله: صح فيهم ما صح في اليهود والنصارى من أنهم مشركون لا يؤمنون بالله – مهما كانت دعواهم في الإيمان- لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله، بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم، لا طاقة لهم بدفعه، وأنهم لا يقرون هذا الافتئات على الله..

إن مصطلح «الدين» قد انحسر في نفوس الناس اليوم، حتى باتوا يحسبونه عقيدة في الضمير، وشعائر تعبدية تقام! وهذا ما كان عليه اليهود الذين يقرر هذا النص المحكم – ويقرر تفسير رسول الله ﷺ أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله، وأنهم أشركوا به، وأنهم خالفوا

عن أمره بألا يعبدوا إلا إلها واحدا، وأنهم اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله.

إن المعنى الأول للدين هو الدينونة - أي الخضوع والاستسلام والاتباع - وهذا يتجلى في اتباع الشرائع كما يتجلى في تقديم الشعائر. والأمر جد لا يقبل هذا التميع في اعتبار من يتبعون شرائع غير الله - دون إنكار منهم يثبتون به عدم الرضا عن الافتئات على سلطان الله - مؤمنين بالله، مسلمين لمجرد أنهم يعتقدون بألوهية الله سبحانه ويقدمون له وحده الشعائر.. وهذا التميع هو أخطر ما يعانيه هذا الدين في هذه الحقبة من التاريخ؛ وهو أفتك الأسلحة التي يحارب بها أعداؤه؛ الذين يحرصون على تثبيت لافتة «الإسلام» على أوضاع، وعلى أشخاص، يقرر الله سبحانه في أمثالهم أنهم مشركون لا يدينون دين الحق، وأنهم يتخذون أربابا من دون الله.. وإذا كان أعداء هذا الدين يحرصون على تثبيت لافتة الإسلام على تلك الأوضاع وهؤلاء الأشخاص؛ فواجب حماة هذا الدين أن ينزعوا هذه اللافتات الخادعة؛ وأن يكشفوا ما تحتها من شرك وكفر واتخاذ أرباب من دون الله.. «وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا، سبحانه عما يشركون»..)[1].

إن سيد قطب أديب من كبار أدباء العربية، وله قدرة هائلة على التعبير عن الفكرة الواحدة، بصيغ متعددة، وأساليب شتى، فلا عجب أن نرى (الظلال) حافلا بفكرته المحورية عن انقطاع الإسلام من الأرض، وغياب أمته من الوجود، رغم وجود مئات الملايين الذين ينسبون إلى الإسلام، ويزعمون أنهم مسلمون!؟

تعرية الجاهلية وتكفير (المسلمين).. لبعث الإسلام!

وبعد حديث عن اللافتات التي تحمل عنوان الإسلام، لتوضع على المجتمعات والدول والأوضاع والمؤسسات، يحذر الشهيد رحمه الله من الانخداع بهذه العناوين الكاذبة والمضللة فيقول في (الظلال):

(والسذج ممن يدعون أنفسهم «مسلمين» يخدعون في هذه اللافتة.. ومن هؤلاء

(١) الظلال ج١٠/ ٢٠٣- ٢٠٥.

السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام في الأرض! فيتحرجون من إنزالها عن «الجاهلية» القائمة تحتها، ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة.. صفة الشرك والكفر والصريحة.. ويتحرجون من وصف الناس الراضين بهذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك! وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية مواجهة صريحة؛ لا تحرج فيها ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة!

بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطرة لحركات البعث الإسلامي؛ كما تقوم حاجزا دون الوعي الحقيقي، ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة جاهلية القرن العشرين التي تتصدى لسحق الجذور الباقية لهذا الدين[1].

هؤلاء السذج – من الدعاة إلى الإسلام- أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين، الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الدين!

إن هذا الدين يغلب دائما عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة – في أي زمان وفي أي مكان- والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامنا في أن يكون له أعداء أقوياء واعون مدربون؛ بقدر ما يكون في أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون، يتحرجون في غير تحرج؛ ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام؛ بينما هم يرمون الإسلام من وراء هذه اللافتة الخادعة!

إن الواجب الأول للدعاة إلى هذا الدين في الأرض، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية، والتي تحمي هذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعا! وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي: تعرية الجاهلية من

(١) راجع كتاب: «جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب.

ردائها الزائف؛ وإظهارها على حقيقتها.. شركا وكفرا.. ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم؛ كيما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة.. بل كيما يتنبه هؤلاء الناس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم، وهي الحقيقة التي انتهى إليها حال أهل الكتاب كما يقررها الحكيم الخبير) [1].

٣- «المجتمع الجاهلي» ومنهج «قطب» في مواجهته!

ويعود الشهيد سيد قطب إلى الموضوع في كتابه (معالم في الطريق) ليتحدث عنه في أكثر من مناسبة. ونختار هنا فقرات من فصل (لا إله إلا الله منهج حياة) يقول رحمه الله:

ولكن ما هو «المجتمع الجاهلي»؟ وما هو منهج الإسلام في مواجهته؟

(إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم! وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده.. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية..

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار «المجتمع الجاهلي» جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلا!!

تدخل فيه المجتمعات الشيوعية.. أولا: بإلحادها في الله - سبحانه - وبإنكار وجوده أصلا، ورجع الفاعلية في هذا الوجود إلى «المادة» أو «الطبيعة»، ورجع الفاعلية في حياة الإنسان وتاريخه إلى « الاقتصاد » أو « أدوات الإنتاج» ، ثانيا: بإقامة نظام العبودية فيه للحزب - على فرض أن القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة! - لا لله سبحانه!

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية - وهي ما تزال قائمة في الهند واليابان والفلبين وأفريقية - تدخل فيه - أولا: بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله - معه أو من دونه - وتدخل فيه ثانيا: بتقديم الشعائر التعبدية لشتى الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها.. كذلك تدخل فيه بإقامة أنظمة وشرائع، المرجع فيها لغير الله وشريعته. سواء

---

(١) من (ظلال القرآن) ج١٠/ ٢١٤، ٢١٥ طبعة الحلبي الثانية.

استمدت هذه الأنظمة والشرائع من المعابد والكهنة والسدنة والسحرة والشيوخ، أو استمدتها من هيئات مدنية «علمانية» تملك سلطة التشريع دون الرجوع إلى شريعة الله..

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء الأرض جميعا.. تدخل فيه هذه المجتمعات أولا: بتصورها الاعتقادي المحرف، الذي لا يفرد الله – سبحانه – بالألوهية بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك، سواء بالبنوة أو بالتثليث، أو بتصور الله سبحانه على غير حقيقته، وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها.

وأخيرا يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها «مسلمة»!

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، ولا لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا، ولكنها تدخل في هذا الإطار لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها. فهي – وإن لم تعتقد بألوهية أحد إلا الله – تعطي أخص خصائص الألوهية لغير الله، فتدين بحاكمية غير الله، فتتلقى من هذه الحاكمية نظامها، وشرائعها وقيمها، وموازينها، وعاداتها وتقاليدها. .وكل مقومات حياتها تقريبا!.

كما أنه – سبحانه – قد وصف اليهود والنصارى من قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده، واتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دونه، لمجرد أن جعلوا للأحبار والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن أنفسهم إنهم «مسلمون» لناس منهم! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى شركا كاتخاذهم عيسى بن مريم ربا يؤلهونه ويعبدونه سواء. **فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده، فهي خروج من دين الله، ومن شهادة أن لا إله إلا الله.**

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة «علمانيته» وعدم علاقته بالدين أصلا، وبعضها يعلن أنه «يحترم الدين» ولكنه يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلا، ويقول:

إنه ينكر «الغيبية» ويقيم نظامه على «العلمية» باعتبار أن العلمية تناقض الغيبية! وهو زعم جاهل لا يقول به إلا الجهال، وبعضها يجعل الحاكمية الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه: هذه شريعة الله!.. وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده..

وإذا تعين هذا، فإن موقف الإسلام من هذه المجتمعات الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة: إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتباره.

إن الإسلام لا ينظر إلى العنوانات واللافتات والشارات التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها.. إنها كلها تلتقي في حقيقة واحدة.. وهي أن الحياة فيها لا تقوم على العبودية الكاملة لله وحده. وهي من ثم تلتقي - مع سائر المجتمعات الأخرى - في صفة واحدة.. صفة «الجاهلية»).[1]

الجهر بتوقف «وجود» الإسلام.. ضرورة!

ولا تقتصر النصوص التي تحمل معنى تكفير مسلمي اليوم في مشارق الأرض ومغاربها – إلا من آمن بأفكار الشهيد حول معنى (لا إله إلا الله) وما يتعلق بالحاكمية، ودخل فيما دخلت فيه «العصبة المؤمنة» التي تقوم بما قام به الصحابة من قبل – على (الظلال) و (المعالم) بل نجد ذلك في كتب أخرى كثيرة. ومنها: كتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام) الذي ألفه في المرحلة السابقة على مرحلته الأخيرة هذه، ولكنه أضاف إليه فصلا مهمًّا ضمّنه أفكاره الأخيرة تحت عنوان (حاضر الإسلام ومستقبله) ونكتفي هنا بنقل فقرات منه قال:

(نحن ندعو إلى استئناف حياة إسلامية، في مجتمع إسلامي، تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي، كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي.

ونحن نعلم أن الحياة الإسلامية – على هذا النحو – قد توقفت منذ فترة طويلة في

(١) معالم في الطريق ص ٨٨-٩٣ طبعة دار الشروق ١٩٦٨م.

جميع أنحاء الأرض؛ وأن «**وجود**» **الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك!**

ونحن نجهر بهذه الحقيقة الأخيرة – على الرغم مما قد تحدثه من صدمة وذعر وخيبة أمل للكثيرين ممن لا يزالون يحبون أن يكونوا «مسلمين»[1]! – ونجهر بها على هذا النحو في الوقت الذي ندعو فيه إلى استئناف حياة إسلامية، في مجتمع إسلامي، تحكمه العقيدة الإسلامية والتصور الإسلامي كما تحكمه الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي.

ولا نرى أن في رؤية تلك الحقيقة والجهر بها كذلك ما يدعو إلى خيبة الأمل؛ أو اليأس من هذه الدعوة ومن هذه المحاولة. على العكس نرى أن الجهر بهذه الحقيقة المؤلمة – حقيقة أن الحياة الإسلامية قد توقفت منذ فترة طويلة في جميع أنحاء الأرض، وأن «وجود» الإسلام ذاته من ثم قد توقف كذلك- **نرى أن الجهر بهذه الحقيقة ضرورة من ضرورات الدعوة إلى الإسلام، ومحاولة استئناف حياة إسلامية.. ضرورة لا مفر منها.**

إن الأمر المستيقن في هذا الدين أنه لا يمكن أن يقوم في الضمير «عقيدة»، ولا في واقع الحياة «دينا» إلا أن يشهد الناس: أن لا إله إلا الله. أي لا «حاكمية» إلا الله.. حاكمية تتمثل في قضائه وقدره كما تتمثل في شرعه وأمره – وهذه كلها سواء في كونها أساسا للعقيدة لا تقوم – ابتداء – في الضمير إلا به- كذلك هو لا يمكن أن يقوم في واقع الحياة «دينا» إلا أن تتمثل العقيدة في نظام واقعي للحياة هو «الدين»، فتتفرد فيه شريعة الله بالهيمنة على حياة الناس جملة وتفصيلا؛ ويبرأ فيه الحاكم والمحكوم من ادعاء حق «الألوهية» عن طريق ادعاء حق «الحاكمية» ومزاولة التشريع فعلا بما لم يأذن به الله؛ مما يتخذه البشر لأنفسهم من أنظمة وأوضاع وتشريعات وقوانين؛ غير مستمدة من شريعة الله، نصا حين يوجد النص، واجتهادا – في حدود المبادئ العامة- حين لا يوجد نص. طاعة لأمر الله سبحانه: **﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** [النساء: ٥٩]..

---

(١) هم إذن ليسوا مسلمين!!

ونحن لا نحدد مدلول «الدين» ولا مفهوم «الإسلام» على هذا النحو من عند أنفسنا.. ففي مثل هذا الأمر الخطير، الذي يترتب عليه تقرير مفهوم لدين الله؛ كما يترتب عليه الحكم بتوقف «وجود» الإسلام في الأرض اليوم؛ وإعادة النظر في دعوى مئات الملايين من الناس أنهم «مسلمون».. في مثل هذا الأمر لا يجوز أن يفتي الإنسان فيما يقصم الظهر في الدنيا والآخرة جميعا!

إنما الذي يحدد مدلول «الدين» على هذا النحو، ومفهوم «الإسلام» هو الله- سبحانه- إله هذا الدين ورب هذا الإسلام.. وذلك في نصوص قاطعة لا سبيل إلى تأويلها ولا الاحتيال عليها:

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:٥٩].

وكلها تقرر حقيقة واحدة. أنه لا إسلام لا إيمان بغير الإقرار بالحاكمية لله وحده؛ والرجوع إليه فيما يقع عليه التنازع – مما لم يرد به نص- إذ لا رأي مع النص ولا نزاع – والحكم بما أنزل – دون سواه- في كل شئون الحياة؛ والرضى بهذا الحكم رضى قلبيا بعد الاستسلام له عمليا.. وأن هذا هو «الدين القيم»..وهذا هو «الإسلام» الذي أراده الله من الناس.

وحين نستعرض وجه الأرض كله اليوم – على ضوء هذا التقرير الإلهي لمفهوم الدين والإسلام – لا نرى لهذا الدين «وجودا».. إن هذا الوجود قد توقف منذ أن تخلت آخر مجموعة من المسلمين عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية في حياة البشر؛ وذلك يوم أن تخلت عن الحكم بشريعته وحدها في كل شؤون الحياة.

ويجب أن نقرر هذه الحقيقة الأليمة، وأن نجهر بها، وألا نخشى خيبة الأمل التي تحدثها في قلوب الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا «مسلمين».. فهؤلاء من حقهم أن يستيقنوا: كيف يكونون مسلمين!

إن أعداء هذا الدين بذلوا طوال قرون كثيرة وما يزالون يبذلون، جهودا ضخمة ماكرة خبيثة، ليستغلوا إشفاق الكثيرين الذين يحبون أن يكونوا مسلمين، من وقع هذه الحقيقة المريرة، ومن مواجهتها في النور! وتحرجهم كذلك من إعلان أن «وجود» هذا الدين قد توقف، منذ أن تخلت آخر مجموعة مسلمة في الأرض عن تحكيم شريعة الله في أمرها كله؛ فتخلت بذلك عن إفراد الله سبحانه بالحاكمية – [أو بالألوهية] – فهذه مرادفة لتلك، أو لازمة لها لا تتخلف.

هؤلاء الأعداء الماكرون الخبثاء يستغلون ذلك الإشفاق وهذا التحرج لتخدير مشاعر الكثيرين في الأرض، الذين يحبون أن يكونوا «مسلمين» وإيهامهم أنهم ما يزالون «مسلمين» فعلا! وأن «الإسلام بخير»! وأن الناس يمكن أن يكونوا «مسلمين» دون أن تحكمهم شريعة هذا الدين؛ بل دون أن يعتقدوا أن الحاكمية لله وحده، من ادعاها لنفسه فقد ادعى الألوهية، وكفر، وخرج من هذا الدين!

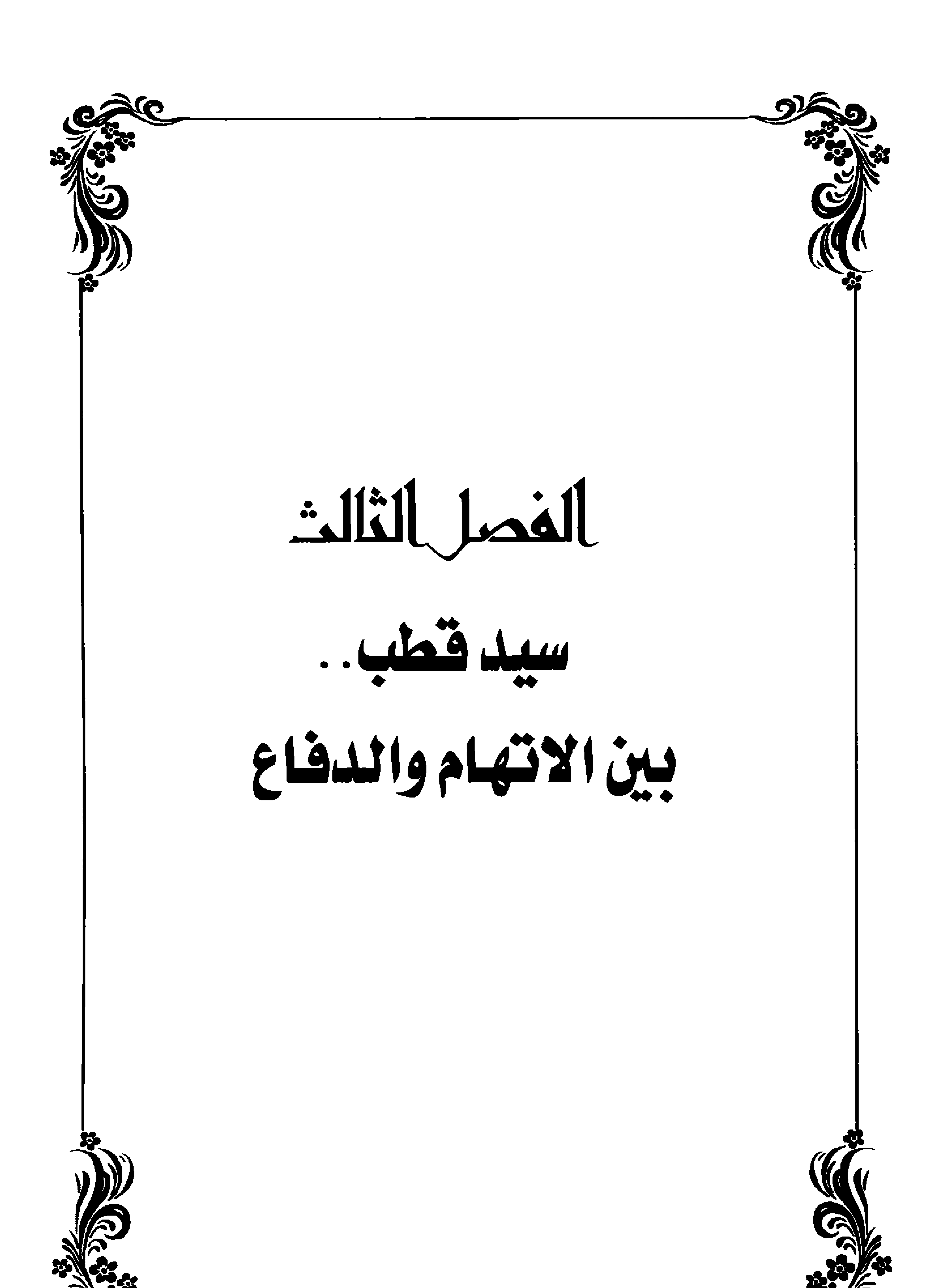
وكذلك ينبغي أن نجهر نحن بالحقيقة المقابلة، التي قد يشفق منها الكثيرون ممن يحبون أن يكونوا مسلمين؛ وممن يتحرجون أن يعلنوا أن وجود هذا الدين قد توقف.. لنبطل مفعول «المخدر» الخبيث، الذي يخدر به أعداء هذا الدين محبي هذا الدين!!!)[1].

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام: ص٢٤٤ – ٢٤٧ الطبعة السابقة ١٩٦٧م.

الإسلام إذن غير موجود اليوم على الأرض، والمسلمون غير موجودين، وإن كان الكثيرون منهم يحبون أن يكونوا مسلمين، ولكن يجب أن نصارحهم بالحقيقة المرة – وإن كانت مؤلمة – أنهم ليسوا مسلمين، هم إذن كفار ومشركون، ويجب أن يدخلوا في الإسلام من جديد، على أساس جديد!!!

* * *



الفصل الثالث

سيد قطب..
بين الاتهام والدفاع

عتاب للشيخ القرضاوي..!

جمال سـلطان [1]

أخذني العجب الشديد من عالم كبير بحجم الشيخ يوسف القرضاوي - حفظه الله - وهو يكتب عن الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - سواء في مذكراته أو بعض مقالاته وكذلك في كتبه؛ إذ كان ملاحَظًا ذلك الإلحاح الغريب من قبل الشيخ على اتهام سيد قطب بأنه كان «تكفيريًّا»، متطرفًا يكفر المسلمين جماعاتٍ وأفرادًا، حكومات ومحكومين، دولًا وشعوبًا، وخاصة في مرحلته الأخيرة (مرحلة المعالم)، حيث يقسم الشيخ حياة سيد قطب الفكرية إلى مرحلتين: مرحلة العدالة الاجتماعية في الإسلام، ومرحلة: معالم في الطريق.

وعلى الرغم من أن الشيخ يوسف قدم الكثير من التبجيل والتوقير والإجلال لسيد قطب وعطائه وتضحياته في تلك الكتابات، إلا أنها كانت أشبه بمقدمة اعتذار عن القسوة اللاحقة في الكتابة عن الرجل وتاريخه وفكره، ولقد تعجبت كثيرًا من إجهاد الشيخ يوسف نفسَه - مع كثرة مشاغله وأعبائه - لكي يثبت للقارئ بأن سيد قطب كان تكفيريًّا، ويأتي بنصوص كثيرة مطولة من كتاباته، خاصة مما يتحدث فيه عن الجاهلية والكفر والردة التي رآها انتشرت في جنبات الأرض في العصر الحديث، ويطالب القارئ بأن يتأمل بعض العبارات والمصطلحات، لكي يلفت ذهن القارئ إليها ويستحثه على تأمل تطرفها وروح التكفير فيها، ويدقق لكي يثبت له أن الرجل ليس كاتبًا معتدلًا أو حادًّا في عبارته فقط، وإنما كان كاتبًا تكفيريًّا، وبالتالي متطرفًا.

الشيخ لم يذكر - للأمانة- صفة التطرف أو الإرهاب، ولكن الأمر لا يحتاج إلى كثير

---

(١) كاتب مصري، رئيس تحرير مجلة «المنار الجديد».

شرح لكي يطبق القارئ الذي يرى الشيخ يوسف -على قدره- يثبت له ويحاصره بالشواهد والسقطات التي تؤكد أن الرجل كان تكفيريًّا، أقول: لا يحتاج القارئ كثير جهد لكي يطلق صفة «المتطرف» على سيد قطب، ومن ثم: الإرهابي بالضرورة. هل هذا هو المآل الذي يقصده الشيخ يوسف من جهده المتتالي والمتكرر من أجل إثبات أن سيد قطب كان تكفيريًّا يكفر المجتمعات والحكومات والأفراد والشعوب؟. الأمر محير للغاية.

ثم ما هي القيمة العملية التي يمكن أن يحصّلها الشيخ القرضاوي أو قارئه من هذا الجهد المضني الذي يثبت به – بكل سبيل – أن سيد قطب كان تكفيريًّا؟ هل هو تحذير القارئ من كتابات سيد قطب، والنظر إلى كتاباته بحذر وريبة، والتشكك في كل سطر يقرأه له، ولا يدع مجالا لحديثه أن يصل إلى قلبه ووعيه؟ هل المقصود هو تنفير المثقف المسلم من كتب سيد قطب ودعوته إلى الارتياب في كتاباته والتحقير من رشده الدعوي ومكانته في الفكر الإسل» أمي؟ هل هذا هو المطلوب؟.

أنا لا أتصور أن الأمر فيه من حظوظ النفس أو ما يعرف بالغيرة بين العلماء من القبول الواسع لأحدهم دون سواه، وذلك أنه على الرغم من البون الكبير بين الرجلين، والحضور المهيب لسيد قطب في أجيال الإسلاميين على مدار نصف قرن كامل، إلا أن الشيخ القرضاوي أيضا له مكانته الكبيرة في قلوبنا وقلوب أبناء الحركة الإسلامية والمثقفين الإسلاميين بغزارة إنتاجه وعلمه وسعة أفقه، فما هو السبب إذن الذي يجعل الرجل يُجهد نفسه وقارئه كل هذا الإجهاد من أجل أن يثبت له أن سيد قطب كان تكفيريًّا؟

هل هي بقايا التوتر الحزبي القديم بين الفصيل الذي انتمى إلى سيد قطب من الإخوان المسلمين، والفصيل الآخر الذي انتمى إلى الشيخ مصطفى مشهور ـ رحمه الله ـ ومجموعة التنظيم الخاص، وهي التوترات التي بدأت في المعتقلات وتفجرت في أوائل السبعينيات الميلادية بعد الخروج من سجون عبد الناصر، حيث سرت موجة غامضة بين الفصيل الثاني من أجل تحقير سيد قطب وشأنه ومكانته وقيمته؟ وأذكر أن حوارًا دار بيني

وبين شخصية كبيرة في ذلك الفصيل، كان يعمل أستاذا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ورأيته يحقر بشدة من سيد قطب وقيمته ومكانته، ويصر على تكرار وصف: شخص عادي جدا في الإخوان، لم يكن له أي دور قيادي أو توجيهي، وأدركت يومها أن هناك مرارة شديدة مرجعها إلى آفة الحزبية البغيضة، نفست عن نفسها في الطريق الخطأ؛ إذ إن سيد قطب لا يمكن قياس قيمته ومكانته بالمقاييس الحزبية أو التنظيمية، كما أنه حتى بذلك القياس فمن الصعب أن نتصور أن الرجل الذي اختارته قيادة الجماعة كمسؤول أول عن الدعوة والتوجيه يكون شخصا مريبا أو لا قيمة له، كذلك الشخص الذي تختاره الجماعة رئيسا لتحرير صحيفتها الرئيسية أيضا لا يمكن التهوين من أمره تنظيميا، لكن المسألة ـ كما قدمنا ـ أبعد من هذا المقياس ضيق الأفق.

والمؤسف أن هذه الروح المريضة تسللت إلى كتابات عديدة ممن حاولوا التأريخ لتجربة الإخوان من أبنائها، وعفا الله عنه الأستاذ محمود عبد الحليم، في كتابه «الإخوان المسلمون.. أحداث صنعت التاريخ» أتى بالأعاجيب من أجل إهانة سيد قطب وتشويه صورته، فقد ذكر ـ على سبيل المثال ـ أن سيد قطب كان في السابق من الدعاة إلى العري والإباحية، ولكي يستدل على هذا الكلام الموجع والفاحش ادعى أن سيد كتب مقالًا في جريدة الأهرام قديمًا ذهب فيه هذا المذهب ودعا فيه إلى الإباحية والعري ودافع عن الحرية في ذلك، ومنذ ذكر عبد الحليم هذه الفرية المؤسفة، ونشط عدد من الباحثين يبحث عن هذه المقالة المذكورة فلم يعثر لها على أثر، وهو أمر مدهش [1]. إن هذا الأمر لو كان حدث بالفعل من أحد في مرحلة ما قبل التزامه، فإنه بلا شك أمر يشينه كمسلم وحتى كإنسان عربي ذي مروءة بعيدا عن الالتزام الشرعي، وبالتالي فنبل المؤرخ أن يتحاشى مثل هذه السوءات وأن يسترها إن وجدت، خاصة وأنها لا قيمة لها أبدا في سياق تسجيل تطور تاريخ الرجل؛ لأن له كتابات وكتبا أخرى شهيرة تقول بأنه كان أديبا يميل إلى

(١) هذا تسرعٌ في النفي من دون بحثٍ، ربما حَمَل عليه الاستبعاد العقلي أو التنزيه وفَرْط التبجيل، وإلا فالمقال ثابت وقد رأيت نسخة منه. (المحرر).

المذهب الرومانسي ونحو ذلك، وكان من مدرسة العقاد، أما أن يذهب الباحث «الأمين» لكي ينقب في قمامة التاريخ الأدبي لكي يَخرج بما يشين الرجل، إن كان حقيقيًا بال«فعل» فهذا ما يصعب تبريره أو فهم أسبابه، فكيف والأمر كله كذب وافتراء[1] ما كان يليق بباحث «إسلامي» ينتمي إلى جماعة كبيرة، ويسجل تاريخها أمام الرأي العام؟

الأمر الذي يزيدك حيرة أن الشيخ القرضاوي يُصر هو الآخر على ذكر هذه الفرية وتكرارها أمام القارئ بدون أي مبرر، وهو لا يعرفها، وإنما يحكيها منسوبة إلى محمود عبد الحليم، إلا أنه يحاول التشكيك فيها، ويؤكد أن أحدا لم يعثر على مثل هذه المقالة المزعومة، فلماذا ـ وهي على هذا القدر من التفاهة والقبح ـ تصر على ذكرها، وتنقلها عن باحث غير حصيف، ولا أقول غير ذلك تأدبا. لماذا يعيد الشيخ القرضاوي ذكر هذه الحكاية الكاذبة والترويج لها حتى لو كان يذكر تشككه فيها بعد ذلك؟ هل ضاق بنا الكلام فيما هو ثابت ومسجل وشهير، لكي ننقب في قمامة التاريخ الأدبي والشاذ فيه والعجيب؟

إن الشيخ القرضاوي ـ حفظه الله ـ كتب وأكد على قيمة تراث سيد قطب وأهميته وعلوه، فإذا كان الأمر كذلك، فإنه حتى لو وقعت شبهة في الأسلوب قد يخطئ فهمها أحد من الشباب فينزع إلى التطرف أو التكفير، فإن الحكمة أن ننبه الشباب إلى خطأ مثل هذا الفهم، وأن نوجهه إلى أفضل ما يمكن فهمه– في هذا الجانب– من كتابات سيد قطب، وأن الرجل عند حديثه عن الكفر والردة والجاهلية ونحوها، فإنما كان يصف أفكارا وسياسات ونظما شاذة ومعادية للدين حقيقة، ويصف حالًا من الجهالة الحقيقية كانت منتشرة في مجتمعات المسلمين توارثت الإسلام دون بذل جهد متجدد لإحياء جوهره وروحه، وهو مفهوم شائع لدى كثير من أهل العلم في تلك الأوقات وتكررت عبارة أن الناس اتخذت العبادات عادات، ولكن سيد قطب لم يكن يكفر أشخاصًا أو أعيانا، وهو أمر لا يختلف كثيرا عن وصف حالات القبوريين وهم بالملايين في العالم

---

(١) هذا اتهام أخلاقي لا يليق، ولاسيما أن المقال ثابت كما سبقت الإشارة!. (المحرر).

الإسلامي بأنهم يقعون في وجه من أوجه الشرك والجاهلية، من غير أن نصف أعيانا بالشرك والجاهلية، فتلك قضية أخرى.

ولو كان الأمر أمر تحذير للشباب من شبهات التطرف ومخاطره، فهناك أكثر من أسلوب وطريق لتحذير الناس من الغلو والتطرف والتفسير المغلوط للكتابات، مهما كانت الشبهة فيها، وهناك كثيرون ممن كتبوا وعلقوا على كتابات سيد قطب بحب وأمانة وإخاء وفقوا في هذا الجانب وأعادوا تفسير بعض عباراته مضمومة إلى أخرى لتنفي عنها شبهة تكفير الأعيان، وللتأكيد على أن الأسلوب الأدبي الذي كتب به سيد قطب من الخطأ التعامل معه بعيدا عن «روح» النصوص الأدبية، ومثل هذا التأويل ليس عسيرا على عالم بحجم الشيخ القرضاوي عهدنا فيه التماس الأعذار والتأويلات للاجتهادات القديمة والجديدة سواء، ولكنه- مع الأسف- الأمر الذي غاب عنه عندما نظر في كتابات سيد قطب، ولو كان المجال متسعا لبسطت النصوص التي أوردها من كلام قطب رحمه الله، وكشفت سهولة تأويل النص بما يدفع عن الرجل شبهة التكفير، وأيضا بما يحمي شبابنا من الوقوع فريسة للتأويلات المتطرفة التي تدفع بهم في اتجاه التكفير والتطرف، ولكن حسبنا الإشارة إلى خطأ منزع التشهير بالرجل، وخطورة التأسيس لمثل هذا المبدأ الذي يجهد فيه العلماء أنفسهم من أجل إثبات ضلال الآخرين لتحذير الناس منهم.

وإنه من جانبي، كقارئ ومثقف مسلم يدين بالكثير لسيد قطب وتراثه وكتاباته، ولم أجد في ضميري ووعيي منها أي صدى لنزعات تكفير أو تطرف، أقول: إنني ما أزال أؤكد على ما كتبته من قبل وأفضت فيه: يخطئ من يتصور أن مشروع سيد قطب قد انتهى، أو أن واقعه وزمانه قد تجاوزه عالم الواقع وعالم الفكر، ومن يتصور ذلك لا يبعد كثيرا عن فهم الغلاة في سيد قطب، الذين حولوه إلى مجرد نصوص ودلالات فقهية أو عقدية، وليس هكذا مشروع سيد قطب، فمشروع الرجل هو تجديد إيمان المؤمن بدينه، وشحذ همته نحو نهضة أمته وصناعة مستقبل أفضل لها وللبشرية، والتحذير الدائم من الخضوع لنمطية الواقع، أو التقولب في عصر من العصور البائسة، وإنما العصر الحقيقي

هو «عصر الجيل القرآني» هو عصر الإسلام الذي يؤسس لحضارة جديدة يظللها شرع الله وهديه.

فكر سيد قطب ثورة متجددة في عالم الفكر وعالم الواقع، وهي تزهر في عقول ووجدانات من قرأوه ويقرأونه على مر الأيام، ولا يوجد أديب إسلامي من بعده، ولا مفكر إسلامي، ولا داعية إلا وكان للرجل بصمته في فكره وفي مواقفه، حتى من تكلف مخالفته أو التحفظ على بعض كتاباته، ومن ثم يبقى مشروع سيد قطب مشروعًا مستقبليا تجديديًّا، يلهم الأجيال الجديدة بروح العطاء للإسلام والعمل على نهضة أمته، ويجعل نفوسهم مفعمة بالهمم العالية المستعلية على ضغوطات الواقع وتحديات الطريق، وموصولة بمسيرة التاريخ الفذ والأمة الواحدة منذ آدم عليه السلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك لا يعيد القارئ لكتاب الظلال على سبيل المثال قراءته الآن، إلا ويجد فيه ذات الروح التي وجدها منذ سنوات بعيدة، يقرأها الشيخ أو الكهل فيستحضر بها مشاعره وهو شاب متدفق الحماسة والإقبال وتنفعل بها نفسه من جديد، وهذه خصيصة يصعب حضورها في أية كتابات فكرية أو أدبية أخرى.

وللأمانة فإن توالي الأحداث الجديدة في العالم وانكشاف مواقف السياسات الدولية ومعها الأخلاق والطموحات عارية مفضوحة بصورة لم تشهدها البشرية من قبل: هي من الأمور الواضحة التي تعيد الاعتبار لسطور سيد قطب عندما عرى هذه المعاني كلها قبل أربعين سنة مضت، في الوقت الذي كان ينظر الكثيرون - حتى من أهل الإسلام - إلى ما يقوله نظرة شفقة واستهتار.

***

دفاع عن «قطب» أمام محكمة الإخوان

أ.د. يحيى هاشم حسن فرغل [1]

من الإنصاف أن نعترف للشهيد بثباته المتميز وتماسكه الفريد أمام الغزو الفكري والاجتياح الثقافي، كما يجب أن نعترف بعبقريته - بين المفكرين الإسلاميين في القرن العشرين - في نظرته الشمولية للمعرفة، ومن ثم في صنع «الحضارة» وعلاقتها بالعلم التجريبي من ناحية - وهو من صلاحية العقل البشري - والإيمان من ناحية أخرى: كبديل إلهي عن حتمية عجز هذا العقل عن التشريع خاصة، أو الخوض في العلوم الإنسانية عامة، مما قاده منطقيًّا في تسلسل معين إلى وصف المجتمع الإنساني المعاصر بـ «المجتمع الجاهلي»، أو «جاهلية القرن العشرين»، ومن ثم إلى تشكيكه في جدوى الاجتهاد الفقهي لهذا المجتمع.

تورط مجتمع «قطب» بمقولات تنافي الشهادتين !

أحسب أن المجتمع الإسلامي في الثلث الثاني من القرن العشرين خاصة – قبل الصحوة الدينية التي ينسب الفضل فيها إلى حسن البنا والغزالي وسيد قطب والقرضاوي وأمثالهم الكرام – كان متورطًا على نطاق واسع فيما لا يتفق – اعتقادا – مع الشهادتين من طريق اللزوم غير البين من مقولات عن:

ذاتية الطبيعة في وجودها وتطورها، والرجعية الدينية، والتقدمية التنويرية، والتطورية الحيوية، والإنسانية والتاريخية والاجتماعية والأخلاقية والتشريعية والعلمانية.. والحداثة بما تعنيه من القطيعة مع الماضي، وتعددية الأديان السماوية هكذا بغير تفرقة بين معنى الدين ومعنى الرسالة، و«تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والأعراف» هكذا بغير

(١) العميد السابق لكلية أصول الدين بالأزهر بطنطا.

تمحيص لمحتوى الزمان والمكان والعرف ومدى ارتباطه بالشريعة أصلًا. و«حيثما تكون المصلحة تكون الشريعة» هكذا دون تحرير لمعنى المصلحة ومدى تطابقها مع الشريعة أو انبثاقها عنها، والذين باعوا المجاهدين – والشهيد – بفتاوى عن الحرابة بثمن بخس ... وما لقيته هذه الفتاوى من قبول واسع جماهيريا آنذاك، مع التعتيم المتعمد على خطر مجموعة العقائد والأفكار والنظريات المنتشرة التي تدخل تحت حكم الكفر: بدعوى محاربة التطرف.

كنت تجد هذه الاتجاهات والتيارات واسعة الانتشار، على مستوى المفكر وعلى مستوى رجل الشارع، كلٌّ بطريقته، وعلى تفاوت في العلم والوعي والإرادة.. إلا من رحم ربك. ومن هنا جاءت مصداقية وصف المجموع بالجاهلية أو جاهلية القرن العشرين، في نطاق أوسع من العمل والسلوك، دون وصفه بالكفر الصراح بالضرورة.

بين الجاهلية والتكفير

إن جاهلية المجتمع لا تعني التصريح بكفره ما دمنا التزمنا بالمصطلحات العلمية الشرعية، ولا أحسب الشهيد إلا قاصدا للبعد عن مصطلح التكفير عمدا. والحكم على «المجموع» –مجموع المجتمع– لا يعني الحكم على الجميع: جميع الأفراد، وهي قاعدة مقررة منطقيا وشرعيا. ولا أعلم أن الشهيد سيد قطب صرح بتكفيره مسلمًا بعينه. وإن يكن.. فقد يكون له سند فيما قد يكون داخلًا من ذلك تحت مفهوم قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم **إلا بحقها** وحسابهم على الله» (صحيح مسلم وللبخاري مثله).

وله مخرج فيما اشترطه فيمن «لا يكون مؤمنا» حيث صرح بأن هذا الوصف إنما يلحقهم إذا كان اتّباعهم لتشريع العباد لهم (بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لا يتبعون إلا عن إكراه واقع بهم لا طاقة لهم بدفعه)، وهو شرط محوري لا يصح التعتيم عليه ونحن نعرض فكر الشهيد. وله فسحة فيما اصطلح عليه العلماء من القول بدرجات من الكفر

«لا تخرج من الملة»، وله فسحة في بعض أحاديث الرسول ﷺ من تكفير لا يُخرج من الملة.

أحسب أنه لم يقل الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي بأن سيد قطب كفَّر مسلما بعينه، لأنه يعلم أن من كفر مسلمًا فقد باء بها أحدهما، وتقريظه للشهيد سيد قطب وثناؤه عليه ودعاؤه له لا يسمح بذلك.

أما ما ينسب إلى الشهيد سيد قطب من نقد طائفة من العلماء والمفكرين المحدثين مثل محمد عبده ومحمد مصطفى المراغي ومحمد فريد وجدي إلخ فمقبول مبدئيا على أساس التشكيك، والتشكيك يعني أن الأفراد يشتركون في أصل المعنى ويتفاوتون في حظهم منه: شدة أو لينًا، قوة أو ضعفا، يقظة أو غفلة، ظهورًا أو خفاء، كثرة أو قلة إلخ. وعلى سبيل المثال فقد كان بعض هؤلاء قد انتسب في فترة من حياته إلى الماسونية، وتعاون بعضهم تعاونا واضحا مع رأس الاستعمار كما هو معروف.

الجاهلية والاجتهاد الفقهي

ينبهنا الشهيد إلى سؤال يأتي سابقا – في تقديره – على سؤالنا الذي يتردد كثيرا ويبحث كثيرا في المؤتمرات ومجالس البحوث: عمن تصدر الاجتهادات الفقهية والإصلاحية؟ في أي شيء تكون الفتوى الاجتهادية أو الرأي الإصلاحي؟ وهذا السؤال الذي ينبغي أن يأتي أولا هو: إلى من توجه هذه الفتاوى والاجتهادات؟.

وذلك إذ نبه الشهيد إلى أن المجتمع الإسلامي –في وقته– كان قد انحط إلى درجة غير مسبوقة، وهي أنه صار مجتمعًا جاهليًا حسب وصفه – وهو وصف لا يقتضي بالضرورة تكفير الجميع – وأنه قبل الخوض في بعض الاجتهادات الفقهية أو الإصلاحية الجديدة التي تساق لهذا المجتمع يجب أن يتأهل المجتمع للتعامل معها بإيجابية، وشرط ذلك أن يخرج المجتمع أولا من حالة الجاهلية، وإلا فالتجربة ظهرت أمام أعيننا في اجتهادات تتخبط في موضوعات الاقتصاد والجهاد والسياسة والتعليم والمرأة والفن والثقافة، وهي لا مفر من أن تتأثر باتجاهات هذا المجتمع في حالته الراهنة: إما أن «تيسر» له جاهليته وهذا هو الغالب، وإما أن تنحرف عند التنفيذ إلى ما لم يكن مقصودا عند الفتوى:

أ – ومن ذلك ما حدث في الفتاوى التي أقامت البنوك الإسلامية إذ تعامل معها الجمهور بالنفسية الربوية ذاتها التي ذاق فوائدها في البنوك الربوية مما أدخل البنوك الإسلامية في مأزق حتمية توزيع الأرباح، وأصابها بالأنيميا أوالتبعية.

ب – من تلك الفتاوى أو الاجتهادات ترديد مصطلح «التكفير» و«التكفيريين» و«الفكر التكفيري» وصما لبعض المفكرين ممن يتهمون بالتطرف – ومنهم الشهيد جدلًا – مما وصل إلى طرح مصطلح: «تعددية النجاة» في ذيل «تعددية الأديان»، ويكاد يضعنا في تصور مغلوط عن دين الإسلام، وأصبح يوحي بعدم جواز اتهام الكافر بالكفر، وهو أمر خطير يقول فيه أبو حنيفة ﷺ: «من قال لا أعرف الكافر كافرا فقد كفر»، والله سبحانه وتعالى يخاطب من يقول لهم: (لكم دينكم ولي دين).. بتصدير قوله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾.

ج – ومن ذلك محاولات الإصلاح في مؤسسة كالأزهر لن يستقيم حالها ما لم تعد إلى ما كانت عليه في عنفوانها من إمكانية استمداد طلابها من المستوى الأرقى أو الأعلى ذكاء وتعليما وتدينا، وهيهات في مجتمع كالذي يصفه الشهيد سيد قطب.

د – والمقاومة والثورة أتكون بشرط كفر الحاكم البواح أم يسبقها العصيان بحكم قوله ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

هـ – ويمكن تحليل أمثلة أخرى في مجالات المرأة والتعليم الديني والدعوة والترفيه والسياسة إلخ وهي مواطن تتعثر فيها الخطوات أو تطيش لا لمحض العجز عن الاجتهاد الفقهي أو الإصلاحي، ولكن لأمراض في المجتمع أبعدته عن جو العقيدة والشريعة: مما كان الدعاة قبل الشهيد وبعده يلحون في وعظهم على «**شدة بُعد المجتمع عن الدين**» واستحقاقه من ثم للهزيمة والبلاء، مما سماه الشهيد جاهلية القرن العشرين، والخطب فيما اصطلح عليه الشهيد يسير لو كنا قد تابعنا مصطلحه بالتوضيح والتفسير.

المسامحة مع عبارات الشهيد

إنه لا مفر من التسامح أو المصالحة أو الإصلاح!! مع بعض عبارات الشهيد التي تأتي في سياق النحت الأدبي والاسترسال الأسلوبي الرفيع بعيدا عن المصطلحات العلمية والفقهية المقررة: مثل قوله بـ «توقف وجود الإسلام» فهو تعبير ينبغي أن يؤخذ بتجوّز، وهو لا يصلح- إن أردنا الدقة- حتى على مذهبه في وصف المجتمعات الإسلامية المعاصرة بالجاهلية، لأنه بالرغم من ذلك فهو- أي الشهيد- يفترض وجود «العصبة الإسلامية» حسب تعبيره، التي تنطلق منها «عودة الإسلام كما بدأ» كما جاء في الحديث الشريف.

ومن مثل تشبيهه المجتمع الإسلامي الذي يصفه بالجاهلية.. تشبيهه إياه بمشركي الجاهلية حيث ينبغي أن يفهم على أساس أن التشبيه غير تام، وهكذا.

سبيل التغيير عند قطب

أما عن رأي الشهيد في كيفية خروج المجتمع من حضيض «جاهلية القرن العشرين» حسب تصوره، فقد قدم فيها نظريته حسب رؤيته وحددها متكاملة في كتابه «معالم الطريق» خاصة - بعيدا عن تلمس الفتاوى الجديدة والتواءاتها واجتهاداتها وتيسيراتها، وتسامحاتها..- وفيها تكمن شخصية الشهيد وتميزه وتفرده وإيجابيته.

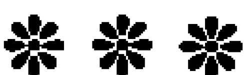
وهي للأسف لم تأخذ ما تستحقه من المناقشة الجادة شرعيا وسياسيا واجتماعيا ونفسيا وتاريخيا وحركيا وعمليًّا.. بعيدا عن المقتطفات المتناثرة التي تأتي حول هذا المصطلح أو ذاك.

إن كتاب «معالم في الطريق» هو في تقدير الكثيرين الإنجاز الفكري الإسلامي الوحيد تقريبا، الذي يرسم طريقا حركيا إيجابيا للتغيير يقوم على بساطة مبدأ «المفاصلة» بأبعادها المختلفة في العلاقة مع خصوم الدعوة الإسلامية. ومن هنا جاءت خطورة الكتاب الثورية كما أدركها قاتلوه، ومن هنا حاكموه وأعدموه لا لشيء من مصطلحات

يجهلونها حول التكفير وعدمه وإن استغلوا ذلك إعلاميًّا، ومن هنا كذلك جاءت أهمية الكتاب وتميزه.

لقد كان من واجب المفكرين والعلماء ورفاق الدرب ممن لم يحملوا ضغنًا للشهيد أن يبادروا إلى إزالة ما علق بأفكاره من أوهام الظاهر وحقد الخصوم: حدبًا عليه، وتبرئة له، وتحصينا للأفهام السطحية التي يمكن أن تحوم حوله وفي أسلوبه ما يشجعهم، وخاصة أن الرجل عاجلته المحاكمة، ولم يمتد به العمر لهذه المهمة. ومن هنا كان لإعدامه -لسوء الحظ- أثر في من يقترب من فكره.

والله أعلم.



سيد قطب في الميزان!

سلمان العودة[1]

سيد قطب - رحمه الله - اختلف في منهجه الكثيرون، فالبعض أسماه مكفِّرا والبعض الآخر أسماه مشبِّهًا والبعض الآخر أسموه متكلمًا؛ والأدهى من ذلك والأَمَر أن البعض يكفره ويمزق كتبه ويكفرونه ويسمون كتابه (في ظلال القرآن) الظَّلال بالفتح!! علمًا بأنه حمل لواء الجهاد في سبيل الله بالكلمة الصادقة - كما نحسبه والله حسيبه - ومات وهو على كلمة الحق التي دعا إليها. فما صحة ما يقوله المتقولون؟.

«سيد».. بين معتدل وغالٍ

أما عن سيد قطب فقد قرأت معظم كتبه، وإن شئت فقل: كل كتبه، كما قرأت كثيرًا مما كُتِبَ عنه، ولعل أوفى كتاب في هذا الباب هو كتاب (سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد) للدكتور صلاح الخالدي، وللدكتور عناية خاصة بالأستاذ سيد، وآخر مؤلفاته حوله رسالة كبيرة نشرت ضمن سلسلة أعلام المسلمين.

والملحوظ أن الناس في سيد، وفي غيره، يكون فيهم المتوسط المعتدل، الذي ينظر بعين الإنصاف والتجرد والتحري، ويكون فيهم المتطرف الذي يقع في التعصب والهوى؛ وسيان أن يكون التعصب ضد الشخص مما يحمل على رد الحق الذي معه وتصيد الأخطاء عليه وتفسير كلامه على أسوأ الوجوه وعدم الاعتبار بالمتقدم والمتأخر من كلامه ... أو أن يكون التعصب له مما يحمل على أخذ أقواله دون تحفظ، والغفلة عن أخطائه وعثراته، والدفاع عنه بغير بصيرة، بل: وربما اعتقاد العصمة في المتبوع بلسان الحال، أو بلسان المقال.

(١) داعية سعودي، والعناوين الفرعية - كما هو الشأن في جُلّ مقالات الكتاب - من صنع المحرر.

وقد قال النبي ﷺ - كما في صحيح مسلم من حديث ابن مسعود -: (الكِبْر بَطَر الحق وغَمْط الناس). والذي يخاف الله يتورع عن أعراض عامة المسلمين، فضلًا عن خاصتهم من أهل العلم، والدعوة والجهاد والدين.

والذي أدين الله به أن الأستاذ سيد قطب من أئمة الهدى والدين، ومن دعاة الإصلاح، ومن رواد الفكر الإسلامي... سخّر فكره وقلمه في الدفاع عن الإسلام، وشرح معانيه، ورد شبهات أعدائه، وتقرير عقائده وأحكامه، على وجه قلّ من يباريه أو يجاريه في هذا الزمان. وكان حديثه حديث المعايش الذي لابس همّ الإسلام قلبه، وملك عليه نفسه، قد شغله الحزن على الإسلام، والغضب له، حتى عن ذاته وهمومه الخاصة.

«الظلال».. تفسير مختلف!

وكتابه «الظلال» يعتبر إضافة كبيرة لدراسة التفسير، واستطاع فيه أن يستوعب كثيرًا مما كتبه المتقدمون، وأن يبني عليه رؤيته الخاصة المتميزة، وفهمه الثاقب، ودرسه الغزير، وأن يقرن آي الكتاب بحياة الناس المعاصرة حتى يشعر قارئه أن القرآن ليس كتابًا نزل لبيئة خاصة في المكان والزمان، ولكنه هداية للناس أجمعين، أيًا كان زمانهم أو مكانهم.

ولقد استفاد الأستاذ سيد من تفسير ابن كثير فائدة غنية، ونقل عنه، وربما اعتمد عليه خصوصًا في باب المرويات والأقاويل، بل وفي أوجه الاختيار والترجيح. كما انتفع بما كتبه الشيخ محمد رشيد رضا في المنار فيما يتعلق بربط هداية القرآن بنتائج العلم والبحث الإنساني والاجتماعي والعمراني، وفيما يتعلق بالتجرد عن التعصب والتقليد. ولكن يبقى الظلال شيئًا آخر، غير هذا وذاك.

نعم؛ ليس الكتاب تفسيرًا لآيات الأحكام، ولهذا فهو لا يغني عن مثل كتاب القرطبي، أو ابن العربي، أو الجصاص، أو غيرهم، خصوصًا للمهتمين بمعرفة المذاهب الفقهية، والترجيح بينها، وليس تقريرًا مفصلًا أو تعليميًا لكليات العقيدة وجزئياتها، فهو لا يغني عن قراءة ما كتبه الإمام الفذ ابن تيمية، أو تلميذه العَلَم ابن القيم، في تقرير العقيدة، والذب عنها، ومناظرة خصومها.

بل ووقع في الظلال عثرات في هذا الباب وفي غيره، ولكنها يسيرة إلى جنب ما فيه من الخير والعلم والإيمان.

ومن ذلك – تمثيلًا – اضطرابه في باب الاستواء – كما يعرفه من راجع تفسير هذه الآية في مواضعها السبعة المعروفة– ووقع منه في بعضها أن الاستواء كناية عن السيطرة والاستعلاء، وهذا خطأ، والصواب أن الاستواء، كما قال مالك: معلوم من حيث المعنى، مجهول أو غير معقول من حيث الكيفية، وقد ذكر الأئمة في معناه: العلو، والاستقرار، والارتفاع، والصعود، والله أعلم.

ومن ذلك أنه يسمى توحيد الألوهية – الذي هو توحيد العبادة – باسم توحيد الربوبية، ويسمي توحيد الربوبية باسم توحيد الألوهية، وهذا خطأ في اللفظ، لكنه –رحمه الله– كان شديد الوضوح في إدراك هذه المعاني والحقائق وتقريرها.

القراءة الحرفية.. مشكلة القارئ!

ومن ذلك أنه كتب فصولًا موسعة في موضوع الدعوة ومنهجها، والموقف من المجتمعات المعاصرة، وكتب ذلك بعاطفة مشبوبة، ولغة قوية، وغيرةٍ على الدين، وعلى المسلمين.. **حمّلها بعض قارئيه ما لا تحتمل من المعاني واللوازم، وتعاملوا معها على أنها نصوص تقرأ بحروفها وألفاظها، وتحفظ وتتلى ويستشهد بها في مواطن النزاع، ومضايق الجدل والمناظرة والخصام. وبنى بعض هؤلاء على هذه القراءة الحرفية الضيقة تكفير الناس كافة، أو التوقف بشأنهم أو الهجرة من ديارهم... إلى أين؟ لا أدري!**

وبنى آخرون عليها فكرة الانفصال عن المجتمعات وترك العمل فيها واعتزالها، وفهمت كلمة سيد –رحمه الله– عن (العزلة الشعورية) بتكثيف قوي، وترميز شديد، جعلها بؤرة العمل والانطلاق.

والحق أن القراءة الحرفية الظاهرية لتراث كاتب ما، ليست أمرًا خاصًا وقع مع سيد قطب –رحمه الله– وحده، لكنها مشكلة تراثية يعاد إنتاجها الآن مع عدد كبير من رموز

العلم والفقه والدعوة والاجتهاد، من المتقدمين والمعاصرين.

ولقد يكتب العالم بحثًا، أو يقدم اجتهادًا، أو ينتحل رأيًا في مسألة، وينتصر له بحسب ما توفر لديه آنذاك، فيأتي الخالفون فيقرؤون نصه بقدسية تأسر عقولهم، وتجعل همهم مقصورًا على إدراك النص وفهمه، ثم تقريره وتوسيع دائرته، ثم الاستشهاد له ومدافعة خصومه.

ولذلك يدري كل أحد، أن الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية وغير الفقهية، لم يكونوا يشعرون أنهم يؤسسون مذهبًا، ويقيمون بناءً خاصًا، راسخ القواعد، مكتمل الأركان، حتى جاء من بعدهم فأصّل وفصّل، وجمع النظير إلى النظير، وتعامل مع كلام الأئمة بحرفية بالغة، بل عدّ بعضهم كلام الإمام ككلام الشارع، من جهة المنطوق والمفهوم، واللازم، والقياس عليه، والناسخ والمنسوخ، والظاهر والنص.... الخ. هذا مع شدة نهي العلماء عن التقليد، حتى إن منهم من كان ينهى عن تدوين آرائه الفقهية، ويحذر من تناقلها.

وكلما كان العالم أوسع انتشارًا، وأكثر أتباعًا، وأوغل في الرمزية - لأي سبب - كان الأمر بالنسبة له أشد، وكانت المشكلة أظهر، لكنها تخف تدريجيًا بتقدم الزمن، ولو من بعض الوجوه. **هذه ليست مشكلة العالم أو المفكر، بقدر ما هي مشكلة القارئ أو المتلقي؛** وأيًا ما كانت فهي مما يحتاج إلى بحثٍ ودراسة. وقديمًا كان علي ﷺ يقول قولته المشهورة: يهلك فيّ رجلان: غالٍ وجاف.

ردّ النصوص إلى بعضها

والخلاصة: أن سيد قطب وغيره من أهل العلم يؤخذ من قولهم ويترك، ويصيبون ويخطئون، ويَردون ويُرد عليهم، وهم إن شاء الله بين أجر وأجرين، ولئن حرموا أجر المصيب في عشر مسائل أو مائة مسألة، فلعلهم - بإذن الله - ألا يحرموا أجر المجتهد.

ومن أفضل ما كتبه سيد قطب كتاب (خصائص التصور الإسلامي)، والذي ظهر

جزؤه الأول في حياته، وأخرج أخوه الأستاذ محمد قطب - حفظه الله - جزءه الثاني بعد وفاته. وهو كتاب عظيم القدر في تقرير جملة من أصول الاعتقاد، معتمدًا على نصوص الكتاب الكريم بالمقام الأول، مؤيدًا لها بحجج العقل الظاهرة، رادًا على مقالات المخالفين والمنحرفين. وفيه رد صريح ومباشر على أصحاب مدرسة وحدة الوجود، والحلولية، وأضرابهم، وحديث واضح عن الفروق العظيمة بين الخالق والمخلوق، وبيان أن هذا من أعظم خصائص عقيدة التوحيد، كما بينها الإسلام. فلا مجال مع هذا لأن يحمل أحدٌ الفيض الأدبي الذي سطره سيد في تفسير سورة الإخلاص على تلك المعاني المرذولة، التي كان هو -رحمه الله- من أبلغ من رد عليها، وفند شبهاتها.

وأذكر من باب الإنصاف أن أخانا الشيخ عبد الله بن محمد الدويش -رحمه الله تعالى- لما أشار عليه بعضهم بتعقب الظلال، واستخراج ما وقع فيه، فكتب مسوّدة كتابه (المورد العذب الزلال) ورد على ذلك الموضع في سورة الإخلاص، فبلغني أنه فهم منه تقرير مذهب وحدة الوجود، فبعثت إليه مع بعض جيرانه بالموضوع المتعلق بذلك من كتاب «الخصائص» والذي هو بيان جلي للمسألة لا لبس فيه، فكان من إنصافه رحمه الله، أن أثبت ذلك في كتابه، ونقل عن الخصائص ما يرفع اللبس.

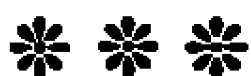
علمًا بأن الحري بالباحث إجمالًا أن يفهم كلام الشيخ أو العالم بحسب ما تقتضيه نصوصه الأخرى فيرد بعضها إلى بعض، ويفسر بعضها ببعض، ولا يتمسّك بكلمة يضع لها أقواساً، ثم يعقد لها محكمة! وقد يخطيء المرء في اللفظ وهو يريد معنى صحيحًا، كما وقع للذي قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربّك، يريد: أنت ربي وأنا عبدك، وما كفر بذلك ولا أثم، بل لعله كان مأجورًا مثابًا!.

ومن المعلوم المستفيض أن سيدًا رحمه الله مرّ في فكره وحياته بمراحل مختلفة، وكتب في أول حياته مجموعة كتب أدبية، مثل: كتب وشخصيات، مهمة الشاعر في الحياة، طفل من القرية، ومجموعة من الدواوين الشعرية. وكتب مجموعة من الكتب الإسلامية مثل: التصوير الفني في القرآن، مشاهد القيامة في القرآن، العدالة الاجتماعية في الإسلام.

ثم في مرحلة النضج كتب الخصائص، المعالم، الظلال، هذا الدين، المستقبل لهذا الدين، الإسلام ومشكلات الحضارة... وربما كتبًا أخرى نسيتها.

ومع ذلك كان يتعاهد كتبه بالتصحيح والمراجعة والتعديل – كما هو ظاهر في الظلال خاصة – حيث كان يُعمل فيه قلمه بين طبعة وأخرى، وهذا دأب المخلصين المتجردين.

وليعلم الأخ الكريم الناصح لنفسه أن الوقيعة في آحاد الناس، فضلًا عن خاصتهم من أهل العلم والإصلاح والدعوة، من شر ما يحتقب المرء لنفسه، ولا يغتر المرء بمن يفعل ذلك، كائنًا من كان؛ لأن الحساب في القيامة بالمفرد لا بالقائمة.



متى تعود الجماعة عن التبرير الاعتذاري للقطبية؟

محمد جمال باروت [1]



في ٢٣ فبراير ١٩٦٩م أنهى الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام الثاني لجماعة الإخوان المسلمين في معتقله، مراجعته لرسالة «دعاة لا قضاة» التي أعدها بعض فقهاء الجماعة، وصادق على تدريسها في حلقات الإخوان المعتقلين، للرد على أطروحات التكفير الراديكالية التي تنامت وتبلورت داخل المعتقل، ولاسيما بين من يُسَمون في حوليات الجماعة بـ«إخوان ١٩٦٥»، الذين حاولوا في ضوء كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» الذي كَتب معظم فصوله في المعتقل قبل الإفراج عنه في عام ١٩٦٤م، أن يعيدوا بناء الجماعة في طور محنتها الكبرى على أساس تنظيمٍ تكفيريٍ راديكالي طليعي جديد، تم القبض على أعضائه وإعدام رموزه، وفي مقدمتهم سيد قطب نفسه الذي كان كتابه «معالم في الطريق» أحد مستندات الحكم عليه بالإعدام .

بين «فتية قطب».. وتنظيم لينين الصلب!

في رسالة «دعاة لا قضاة» يرد الهضيبي على مفاهيم الأستاذ أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في الباكستان بالاسم، ويبدي قلقه من أن يتحول مصطلح الحاكمية - «الذي بلوره المودودي كمعادلٍ (إسلاميٍ) لمفهوم (السيادة) الأوروبي في نظرية الدولة الحديثة - إلى الحكم الكلي الجامع الذي تتفرع عنه مختلف الأحكام التفصيلية» فـ «يجعل بعض الناس أساسًا لمعتقدهم مصطلحًا لم يرد فيه نص في كتاب الله أو سنة الرسول»،

(١) كاتب وباحث سوري. والمقال سبق نشره في «الوطن» السعودية، بتاريخ ٢٥ -٩- ٢٠٠٣م، عدد (١٠٩١)، وقد أعدنا تحريره. (المحرر).

لكنه لا يذكر اسم سيد قطب ولا مرةً واحدةً، مع أن إستراتيجية الرسالة موجهة برمتها للرد على أفكار قطب التي طرحها في «المعالم»، وأعاد فيها تأويل مفاهيم المودودي في منظومةٍ تكفيريةٍ انقلابية راديكاليةٍ، تفتح الباب على مصراعيه إلى اعتبار المجتمعات الإسلامية مجتمعاتٍ مرتدة عن الإسلام بعد الإسلام، وتحولها من «دار إسلام» إلى «دار حرب»، وبالتالي لا تتوقف عند حدود تكفير الدولة بل تمضي فعليًا إلى تكفير الأمة، والدعوة إلى «أسلمتها» من جديد على أساس تنظيمٍ طليعيٍ نخبويٍ راديكاليٍ إسلاميٍ، استعاره فعليًا من نمط التنظيم اللينيني الصلب في الأحزاب الشيوعية.

لم يكن قطب بعيدًا عن معرفة ذلك النمط؛ إذ سبق له أن كان ممثلًا للجماعة في الجبهة الحزبية-السياسية التي تشكلت في عام ١٩٥٤ بين الإخوان والشيوعيين والوفد لإسقاط المجلس العسكري« الثوري» بقيادة عبد الناصر، وفي حدود أوائل الخمسينيات كان قطب قد استخدم مصطلح الحاكمية تحت تأثير الترجمات العربية المبكّرة لكتب المودودي، لكنه لم يعنِ به أكثر من مفهوم مساواة البشر أمام الله، في حين أنه شحنه في «معالم في الطريق» الذي كتب معظمه في المعتقل تحت تأثير المحنة، بتأويلٍ يصل إلى حدود التأويل التكفيري الراديكالي، الذي سيغدو أخطر مراجع التنظيمات الإسلامية الشبابية الراديكالية في السبعينيات، التي دمجت ما بين أدلوجة قطب وبين فهمٍ دوغمائي للسلفية، يحوّلها من رؤية إلى إسلام القرون الثلاثة الأولى بوصفها خير القرون إسلاميًا لدى عموم المسلمين، إلى مذهب متصلب قائم بحد ذاته، يقوم على التصادم مع المجتمع، ويعبر عن العسر وليس عن اليسر.

«الحاكمية».. في مقابل «الوسطية»

إنه واضح لشيوخ الجماعة يومئذ، وفي طليعتهم الأستاذ الهضيبي، أن سيد قطب قد بلور منطلقاتٍ أو معالم نظرية لا تستمد مرجعيتها من الرؤية الإخوانية التاريخية التي تمثل في بنيتها الأساسية رؤيةً «وسطيةً» أو «اعتداليةً»، بل ترتكز على مرجعيةٍ جديدة ستتكثف برمتها في نظرية الحاكمية الجديدة، التي تحولت فعليًا هنا مع قطب إلى نوعٍ من الأصول

«الاعتقادية» وليس الفروع «الفقهية». من هنا شكّلت هذه المنطلقات النظرية «منحنًى خطيرًا في فكر الإخوان يتناقض مع رسالة المرشد العام الأول المؤسس حسن البنا» على حد تعبير الدكتور عبد الله النفيسي، والذي يمكننا القول: إنه وضع الخلاف ما بين المسلمين في حيز «خطأ وصواب» وليس في حيّز «كفر وإيمان». وشكلت «فكرًا جديدًا أوجد مسارًا له بين نفرٍ من الإخوان وغيرهم في ظروف سياسية واجتماعية معقدة» على حد تعبير الشيخ محمد الغزالي.

في «دعاة لا قضاة» رفض الهضيبي «هذا الفكر ومضاعفاته وكتب ضده»، لكن دون الإشارة إلى اسم منظّره سيد قطب كما فعل مع المودودي، لكن كل من قرأ الرسالة في المعتقل وخارجه من الإخوان كان متيقنًا من أن المقصود بالرد هو فكر سيد قطب ومضاعفاته، التي بيّن الهضيبي بشكلٍ منهجيٍ محكمٍ، هشاشتها الفقهية. لا ريب أن الهضيبي قد حسمك في هذه الرسالة المنهج الحركي للجماعة في كونه منهج «الدعاة» وليس منهج «القضاة»؛ فالداعية -على حد تعبيره- «يقرّر الأحكام الشرعية.. لكنه لا ينصب نفسه قاضيًا ليحكم على الأفراد»، فالأصل لدى الهضيبي «ألا نتعرض للأشخاص بحكم»، ورسخ تصور الجماعة لموقعها في خريطة العمل الإسلامي بأنها «جماعة من المسلمين»، وليس «جماعة المسلمين» التي يشكل الخروج عنها أو تركها، خروجًا من الإيمان إلى الكفر على حد التأويل البسيط. ولقد قام **الهضيبي في ذلك بشكلٍ مبكّرٍ نسبيًا ببلورة معالم الأسس الجوهرية للقطيعة بين التيارين الراديكالي المتطرف والدعوي الوسطي المعتدل.**

ربما هذا ما يفسر محاولة الأستاذ الهضيبي بعد الإفراج عنه في عام ١٩٧١، إعادة «تمدين الجماعة» بلغة عبد الله النفيسي، أي تصفية آثار عسكرتها التي تجلت بالنظام الخاص، والذي كان من أعتى خصومه منذ أن تم نشر قرار مبايعته مرشدًا عامًا ثانيًا للجماعة في أوائل الخمسينيات خلفًا للمرشد الأول المؤسس البنا. ولم ير الهضيبي - على الأرجح حين رد على سيد قطب في «دعاة لا قضاة» - في فكرة «التنظيم الطليعي»

الإسلامي التصادمي أو الانقلابي التي طرحها قطب، أكثر من محاولة لاستعادة النظام الخاص القديم بإهابٍ تعبويٍ جديد، يديم من عمر المحنة.

أدلوجة قطب بين النقد والاستقطاب

لقد أخذ نقد أدلوجة قطب الانقلابية المبسّطة والمتصلبة التي فتحت الباب أمام تكفير المجتمعات الإسلامية القائمة، والقول المتعسف الخطر بارتدادها عن الإسلام بعد الإسلام، يأخذ طريقه عند بعض الإخوان في الخارج، وكان نقد الأستاذ حسن العشماوي، وهو من كوادر الجماعة التي اضطرت للجوء إلى خارج مصر إبان محنة الجماعة، والذي يمثل اليوم أحد مراجع التفكير التجديدي للجيل الجديد للجماعة: من أبرزها. وخلال صعود الجماعات الإسلامية في السبعينيات، كان الاستقطاب يشتد ما بين المدرسة الإخوانية – التي تؤول إلى مدرسة معتدلة وسطية فيما إذا قشرناها من تجربة النظام الخاص التي كانت وبالًا عليها – وبين الاتجاهات الإسلامية الشبابية الراديكالية الجديدة المسحورة بأدلوجة قطب.

في هذا الاستقطاب كان شيوخ الإخوان الخارجون من المعتقل، والذين أعادوا بناء التنظيم، قد أعلنوا في سياق منهج «دعاة لا قضاة» – وفق ما يستعيده كمال حبيب من حواراتٍ داخليةٍ في الجماعات يومئذ – **«أن سيد قطب لا يمثل الجماعة في أفكاره، وأن الشباب القطبي الذي تبنى أفكاره ليس من الإخوان»**، لكن الجماعة لم تجاهر بذلك في أدبياتها قط، إذ انحنت أمام الجائحة الراديكالية التي اجتاحت التنظيمات الإخوانية العربية في المشرق العربي، وانعكس ذلك في تهميش تدريس رسالة «دعاة لا قضاة»، في الوقت الذي أخذت فيه الاتجاهات الراديكالية تذهب إلى حد فتح باب تكفير الوسطية الإخوانية، واتهامهم بممالأة النظم «الجاهلية».

ربما قاد هذا الهجوم الجهادي الجماعة إلى تخفيف حدة نقدها لأفكار قطب، لكن **عدم تطوير الموقف من أدلوجة قطب ارتبط بالركود الفكري للجماعة**، التي لم يستطع مكتب إرشادها – على مستوى الوثائق التي تمثل وجهة نظر الجماعة كهيئة وليس كأفراد – أن

يبلـور منطلقـات نظريـة ذات روح نقديـة جديـدة سـوى في الـوثيقتين المتعلقتـين بـالمرأة، وبالشـورى والتعددية السياسـية. وبـدلًا مـن القيـام بعمـلٍ فكـريٍ جـادٍ ومؤصـل لـنقض أدلوجة قطب وتبيان قطيعتها المرجعيـة مـع الخطـاب الإخـواني الـدعوي التقليـدي الـذي يتسم تاريخيًا بالوسطية، **فإن الجماعة ذهبت إلى حد تفسيرها الاعتذاري المبسط، بأن قطـب قد كتبها في ظروف الاعتقال الخاصة، وأن الشباب الإسلامي قد غالى بفهمها الراديكـالي. وكان ذلك يعكس تساهلًا خجولًا مع الأدلوجة القطبية، وتركها دون نقدٍ جوهريٍ فعـلي، يطور موقف الهضيبي منها.**

أدى ذلك إلى وضع المواقع الإخوانية الالكترونية سيد قطب ضمن مفكري الجماعة، دون التوقف عند نقد أدلوجته في مرحلـة «المعـالم»، ودون مواصـلة تأكيـد وشرح مواقـف الهضيبي منها في «دعاة لا قضاة». وبرز التساهل أكثر في أن الجماعة كانت تـنشر تسـاهلها، وتتجه أكثر فأكثر إلى عدم المجاهرة بخروج أدلوجة قطب عن منظومتها، فتدرج قطـب - واستطرادًا أبا الأعلى المودودي - في منظومة المفكرين المـرجعيين للعمـل الإسـلامي، مـن دون أن تنشر الردود المبكّرة عليها، من نـوع نقـد حسـن العشـماوي الـذي تـم مـن داخـل المجال الإخواني نفسه، والنقد المبكر لمحمد عمارة.

إن التطور الموضوعي للجماعة باتجاه الاستيعاب الإسـلامي للمجتمـع، يتنـاقض مـع عمليـة السـكوت عـن أدلوجـة قطـب، والتراجـع عـن عمليـة نقـدها التـي بـدأها الأسـتاذ الهضيبي، ويفرض ذلك التطور إعادة النظر بطريقة تدريسها للعقيدة الطحاوية وللعقيـدة الواسطية لابن تيمية اللتين ليستا مما أقره الإجماع أو مما أقرته المذاهب الأربعـة التـي يقـول فقهاء الجماعـة: إنهـم ملتزمـون بهـا، ويغلـب عليهـا التشـدد والتكفـير. ولأنهـا ليسـتا مـن المذاهب الأربعة ولا من الإجماع الذي تلتزم به الجماعة، فإنه يجب أن تدرسا في إطار تاريخ الفكر الإسلامي وليس في إطار التربية العقائديـة. **فالجماعـة مـا تـزال في حالـة مـن الركـود الفكـري، بيـنما تتطلـب اتجاهـات تطورهـا الموضـوعي «الوسـطي» فكـرًا وأسـاليب عمـل ومنهج رؤية، إعادة القطـع الـذي بـدأه الهضيبي مـع الأدلوجـة القطبيـة التـي تركـت آثـارًا**

مدمرةً على وعي ومناهج عمل الشباب الإسلامي، وتقديم رؤية منهجية تقويمية لتجربة النظام الخاص ما تزال مفتقدة بشكلٍ رسميٍ حتى الآن.

إن جماعة الإخوان في مرحلة تطورها الموضوعي الراهن هي بأمس الحاجة اليوم لإجراء مراجعات جديدة حقيقية، وفي منظور إستراتيجية هذه المراجعات ما تزال الجماعة للأسف الشديد ما قبلها. لكن هذه القطيعة لن تتبلور إجرائيًا أو عمليًا إلا في شروط الاستقطاب الحركي ما بين التيارين في السبعينيات والثمانينيات.

لقد رسّخ الإخوان في مجرى هذا الاستقطاب الطلاق البائن بينهم وبين الأسلوب العنفي الراديكالي« الجهادي» بالمعنى الضيق والمبتسر لمفهوم الجهاد.

* * *

كلمة أخيرة حول سيد قطب

أ.د. يوسف القرضاوي

لا أريد أن أحول هذه المذكرات إلى مناقشة علمية تدور حول أشخاص أو أفكار، فهذا ليس من شأن السيرة الذاتية، وإذا تكرر ذلك واتسع فربما أفسدها.

ولم أكن أقصد أن أخوض هذه المعركة التي دخلتها على كره مني، فليس بيني وبين سيد قطب إلا كل مودة ومحبة واحترام، بل أكنّ له ما أكنه لأئمة الدعوة مثل حسن البنا، والمودودي، والسباعي، والغزالي وغيرهم. وأنا لست من أقران سيد قطب حتى يتصور البعض أن يكون بيني وبينه من التغاير ما بين الأقران بعضهم وبعض. على أنّا -وإن جمعتنا ساحة الدعوة- يظل لكل منا ميدانه وحلبته التي يصول فيها ويجول، فبيننا عموم وخصوص من وجه كما يقول المناطقة.

ولكني فوجئت بما أثارته مذكراتي من (وقفة مع سيد قطب) وما ذكرته عما تحمله في المرحلة الأخيرة من حياته الفكرية من ميل إلى (تكفير مسلمي اليوم) -مع محاولتي التخفيف من عباراتي ما استطعت- مما جعل كثيرا من قراء المذكرات يطالبونني بالأدلة التي تثبت هذه الدعوى. ولم يسعني إلا أن أنقل من ثلاثة كتب (نصوصا صريحة) تصرح بتكفير مسلمي اليوم.

واكتفى معظم القراء بهذه الشواهد الناطقة، ولكن عددا من الإخوان المتحمسين -الذين لا أشك في إخلاصهم-، مثل جمال سلطان وأحمد عبد المجيد ومحمود عزت وغيرهم- عز عليهم أن يتصف سيد بتلك الصفة (تكفير المسلمين) وأنا - والله - يعز علي ذلك، ولكن ما حيلتي والشواهد تدمغني، والنصوص الواضحة المتكررة لا تدع لي مجالا. وليست الأمور بالتمني!

فكر قطب والتكفير

على أن هذا الفكر لم يكن مجرد فكر نظري تجريدي معلق في الهواء، بل هو فكر موصول بالواقع بنى صاحبه على أساسه جدرانا وسقوفا، ورتب عليه نتائج وآثارا كررها وأكدها في كتبه.

ومن ذلك: أنه رأى التركيز على وجوب الدعوة إلى اعتناق هذه العقيدة، لا على عرض التشريع أو النظام الإسلامي السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي. فإنما يتأتى ذلك بعد وجود الجماعة المسلمة.

ومن ذلك السخرية بدعوى إحياء الفقه الإسلامي وتطويره وفق حاجات العصر، وتجديد الاجتهاد، ونحو ذلك، مع غيبة المجتمع المسلم، بل مع انقطاع الوجود الإسلامي منذ زمن بعيد!

وأذكر أن الأخ الفاضل عادل الصلاحي – مترجم (الظلال) إلى الإنجليزية – طلب لقائي في لندن، وأخبرني بأنه فوجئ بما كتبت عن سيد، وأنه لقي سيدا قبل استشهاده، وعلم منه: أنه يركز قبل كل شيء على التربية.

قلت له: وهذا صحيح، ولكن على أي شيء يربي من انضم إليه؟ هنا مربط الفرس كما يقولون.

ثم قلت له: كيف تترجم العبارات التي تحمل دلالة واضحة على تكفير مسلمي اليوم؟

قال: بصراحة أنا لا أترجمها حرفيا، بل أذكر معنى عامًّا يقرب من مدلولها إلى القارئ، وإن لم ينقل إليه المعنى المراد!

قلت له: وهل ترى أنك بهذا تكون قد أديت أمانة الترجمة؟ وماذا تصنع لو جاء معقب عليك، وقال: إن المترجم تعمد تحريف الترجمة؟!

فسكت الرجل، ثم قال: وما الحل؟

قلت: ولا حل عندي إلا الصدق ومواجهة الحقائق مكشوفة، وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ.

على أن الذي يهون من هذه القضية عدة أمور:

١- أن هذا الفكر نتيجة اجتهاد من قائله، أسسه على ظواهر واعتبارات شرعية وعقلية، وهو اجتهاد يعذر صاحبه، بل يؤجر عليه أجرا واحدا، وإن كان في القضايا الأصولية والعلمية كما حقق شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما من علماء الأمة.

٢- أن الظرف الذي ظهر فيه هذا الفكر، وصاحبه في سجن الطغاة، ودعاة الإسلام يشنقون ويعذبون ويشردون، والشيوعيون يمكّن لهم: يجعل لمتبنيه عذرا أكبر.

٣- أن صاحب هذا الفكر لم يكن من المتاجرين بالدين، أو المتزيين بزي أهله، بل كان رجلا صادقا مخلصا، وعاش لهذا الدين حتى قدم رقبته رخيصة في سبيل الله.

وعلى كره مني سأضطر أن أقول بعض كلمات أعقب بها على الذين ناقشوا هذه القضية على موقع إسلام أون لاين.نت، وبعضهم من إخواني وبعضهم من تلاميذي، وليس في العلم كبير «وفوق كل ذي علم عليم» ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

بعض الإخوة لم يعترضوا على الموضوع، ولكنهم اعترضوا على «التوقيت»، قائلين: ليس هذا أوان إثارة هذا الأمر، وقد قلت: إني دُفعت إليه دفعا، ثم ما هو الوقت المناسب لإثارة ذلك وقد مضى على الشهيد قطب ثلث قرن أو يزيد؟ ثم إن الأمانة العلمية، وما أخذه الله على العلماء من البيان وعدم الكتمان: يوجب علي أن أقول الحق لأمة الإسلام، وأنا هنا أقول ما قاله الحافظ الذهبي في ابن تيمية: شيخ الإسلام حبيب إلينا ولكن الحق أحب إلينا منه.

وتمنى بعضهم لو أني استمررت في نهجي الذي عرفت به، وهو نهج تجميعي يبني ولا

يهدم، يجمع ولا يفرق، فلماذا أثير هذه القضية وأفرق الصفوف اليوم؟

ومعاذ الله أن أكون داعي فتنة أو مفرق صف، وقد علم الجميع: أني أدعو إلى التقريب بين المذاهب والفرق الإسلامية من سنة وشيعة وزيدية وإباضية فكيف أفرق بين أهل السنة – بل أهل الدعوة – بعضهم وبعض؟!

ومما أذهلني وآذاني ما ذكره الأخ أحمد عبد المجيد – تعريضا – أن إلصاق تهمة التكفير بسيد قُصد بها الإساءة إلى الرموز الإسلامية.

ويعلم الله كم كنت حريصا على ألا أدخل هذا المعترك، وكم أجلته وأجلته، ولكن متى كان الأشخاص مقدسين عندنا؟

لقد كنت مترددا بين الإبقاء على سمعة الشهيد من ناحية، وبيان الحقيقة الشرعية من ناحية أخرى، فترجحت الثانية على الأولى؛ لأن البيان فريضة، ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وخطأ سيد لا ينقص من منزلته ولا من مثوبته عند الله، فإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.

ومما ذكره الأخ عبد المجيد بحق قوله: «حدث تغير في أفكار سيد قطب، فعندما كان في مستشفى ليمان طره، طلب من أسرته كتب الشهيد حسن البنا والأستاذ المودودي، فبدأ يتنبه إلى أمور كانت غائبة عنه وخصوصا في ضرورة التركيز على موضوع العقيدة، ثم بدأ يطلب كتب ابن تيمية وابن القيم، وبدأ التغير في تفكيره وكتاباته، وظهر ذلك جليا في الطبعة الثانية من الظلال، والأجزاء الأخيرة منه بدءا من الجزء ١٣، وكتاب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ومعالم في الطريق، ولو فرضنا أن هناك أخطاء عند سيد قطب –وهو بشر– فإن التقييم العادل أن نأخذ الأفكار الراشدة ونترك غيرها ولا نرفض المنهج بأكمله» انتهى.

وهذا كلام منصف متزن، وهو العدل الذي أمرنا به ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وأنا لا أقول غير ذلك، فلم أقل يوما: اعدموا تراث سيد قطب، أو

احرقوا كتبه كما أحرقت كتب الإمام الغزالي وغيره قديما، ففي هذا التراث كنوز لا ينبغي أن تهمل إلى جوار (المطبات) التي يجب أن تُحذر. وهذا ما أدين الله تعالى به.

ومما دهشت له أن أكثر المعلقين دفعهم الحماس بعيدا عن لب الموضوع، فتحدثوا في أشياء جانبية، وتركوا الجوهر، وهو (النصوص الصريحة) المنقولة من كتب سيد رحمه الله.

ومما قاله بعضهم: إن الناس قرءوا (الظلال) ولم يفهموا ما فهمته من فكرة (التكفير). وهذا الكلام غير صحيح، فقد أثار جدلا طويلا داخل الإخوان في السجون، ومن آثاره بحث قضية: هل نحن جماعة المسلمين؟ أم نحن جماعة من المسلمين؟ حتى أن مكتب الإرشاد أرسل إلى سيدٍ الأخَ عبد الرءوف أبو الوفا يسأله عن هذه المسألة، ومن ذلك سؤال الأستاذ عمر التلمساني له وسؤال الحاجة زينب الغزالي له.

وقد رأينا تجمعات في أقطار مختلفة يسمون (القطبيين)، يتبنون فكرة التكفير، وقد رأيت من آثار ذلك: من سألوني عن الصلاة في البيوت، وترك المساجد باعتبارها معابد الجاهلية، وهو مما فهموه من الظلال في تفسير قوله تعالى (واجعلوا بيوتكم قبلة)، وقد رددت عليهم في الجزء الأول من كتابي (فتاوى معاصرة).

ومن قرأ أدبيات جماعات التكفير يجد آثار هذا الفكر وعباراته المعروفة في صلب هذا الفكر، وإن لم يصرحوا بالنقل عنه.

وأنبه هنا على مسألة مهمة، وهي: أن أكثر الإخوان قرءوا الظلال، ولم يفهموا منه أمر التكفير، لأنهم قرءوه وهم يحملون فكر البنا، فلم يتأثروا بالفكر الجديد، وحملوه على ما في رءوسهم من أفكار سابقة غرستها فيهم تربية البنا، حتى أكثر الذين كانوا في تنظيم ١٩٦٥ -وسيد على رأسه- لم يكونوا يحملون مبدأ التكفير.

على أن هؤلاء -عادة- لا يقرءون الظلال، وإنما يقرءون فقرات منه على فترات، ربما كانت متباعدة، وقلما يربطون بين الفقرات بعضها وبعض.

على أن الذين لم يأخذوا فكرة التكفير لم تخطئهم رشحات من تأثير هذا الفكر الثائر

الرافض على مفاهيمهم وعلاقاتهم بالآخر، ورفض الانفتاح والحوار، والمفاصلة الشعورية مع المجتمع، وإعلان الحرب على العالم كله، حتى المسالمين، والسخرية بدعاة الاجتهاد وتطوير الفقه، وغير ذلك، واتهام دعاة التسامح والموسعين بالهزيمة النفسية والسذاجة الفكرية... إلخ.

قد ينطبق حكم سيد قطب على بعض الأنظمة الحاكمة التي تتبنى (التطرف العلماني) الذي يجاهر بالعداوة لشريعة الإسلام، ويحارب دعاته، ويعمل على تجفيف منابع التدين في الحياة من التعليم والإعلام والثقافة. وهم الذين تحدثت عنهم في كتابي (التطرف العلماني في مواجهة الإسلام)، هؤلاء فئة قليلة مبغوضة من الأمة وموالية لأعدائها.

أما تكفير الجماهير من مسلمي اليوم، كما تنطق بذلك ظواهر نصوص سيد قطب، فلا نوافقه عليها بحال من الأحوال والله يغفر له.

مسألة «الأدبية» و«الفقهية»

ومما أثاره عدد من الإخوة المعقبين: ما تعلق بـ (أدبية) سيد رحمه الله لا (فقهيته)، وأنه كان (أديبا)، ولم يكن (فقيها)، وأنه أعلن ذلك مرارا. فلا ينبغي أن نحاسبه بما يحاسب به الفقهاء بعضهم بعضا إذ لم يكن واحدا منهم.

وأود أن أقول لهؤلاء الإخوة: إنني أحترم النزعة أو الملكة الأدبية عند سيد، وأراه من أعظم أدباء العصر، ومن أجل هذا لا أطالبه بتدقيق الفقهاء، ولا بتعمق الأصوليين، وهذا ما أوافق فيه الإخوة المعقبين، ولا اعتراض لي عليه.

ولكن الذي أخالفهم فيه هو اعتبارهم الأدب أو التعبير الأدبي سببا في غموض الكاتب، وضبابية ما يكتب، والتباسه على قارئه؛ فالأمر عندي بالعكس تماما، فالكاتب الأديب الأصيل إذا كتب في أي علم أضفى عليه من إشراق يراعه ومن نصاعة بيانه ما يجليه ويقربه إلى القارئ، ويزيح عنه أي لون من الغموض، وهو ما يسمونه (الأسلوب العلمي المتأدب).

وقد رأينا هذا في كتابات العلماء الأدباء، مثل: محمد عبده، ود. محمد عبد الله دراز، وحسن البنا، ومحمد الغزالي، وعلي الطنطاوي، ومصطفى السباعي، والبهي الخولي وغيرهم.

وسيد قطب يأتي في مقدمة هؤلاء، فلم أر أديبا هو أنصع منه بيانا، ولا أوضح أسلوبا في كل ما يكتبه، في التفسير وفي غيره، وقد يقال: إنه لم يكتب (تفسيرا) بالمعنى الحرفي للكلمة، وهذا صحيح بالنسبة للنصف الأول من الطبعة الأولى من الظلال، ولكنه في الأجزاء الثلاثة عشر الأخيرة، وفي الأجزاء الأولى من الطبعة الثانية، اجتهد أن يكون مفسرا، ويكاد يكون أفرغ تفسير ابن كثير – أو خلاصته – في الظلال.

ولم يكن الرجل من دعاة الرمزية أو السريالية أو غيرها من المذاهب الأدبية التي تعمد إلى الغموض وتغلف مقولاتها وأفكارها بأغلفة تحجب معانيها عن جماهير القراء، ولم يكن سيد كذلك من دعاة الباطنية الذين يقولون القول، ولا يريدون به ما يفهمه سائر الناس. بل كان رجلا صريحا بيّنًا لا يحب الظلام ولا الضبابية فيما يقول ولا فيما يفعل.

والقضية التي نتحدث عنها – قضية تكفير مسلمي اليوم – ليست قضية فقهية بعيدة عن اختصاص سيد كما يتصور أو يصور بعض الإخوة المتحمسين، بل هي قضية فكرية محورية أساسية، أو قل هي: قضية أصولية اعتقادية، هي ألصق بعلم العقائد والكلام منها بعلم الفقه والفروع؛ ولأنها قضية فكرية محورية مركزية عند سيد، رأيناه يلح عليها، ويكررها ويؤكدها بأساليبه البيانية الرائقة والرائعة حتى تتضح كالشمس في رابعة النهار.

شهود النفي في القضية

ومما آلمني كثيرا دخول بعض الإخوة في هذا الميدان، وبضاعتهم مزجاة من العلم الشرعي، وحتى من المنطق العقلي، وظنوا أن الحماس ورص الكلام يغني شيئا في القضايا العلمية الكبيرة.

لقد جاءوا بمن يمكن أن يسموا (شهود النفي) في القضية، ليقولوا: إنهم لقوا سيدا

رحمه الله ولم يجدوه يكفر المسلمين، أو سألوه: هل تكفر المسلمين؟ فنفى ذلك، وقال من قال: يجب أن نضم أفعال سيد إلى أقواله حتى نكون منصفين معه.

ونسي هؤلاء ما قرره علماؤنا من (قواعد علمية) تحكم الأمور وتضبطها، من هذه القواعد: أن المثبِت مقدم على النافي، وأن من حفظ حجة على من لم يحفظ.

فإذا جاء عشرة ثقات وقالوا: لم نسمع فلانا يشتم فلانا، وجاء رجل ثقة، وقال: إنه سمعه يشتمه، وكان من أهل العدالة والضبط، أخذ بقول هذا الواحد؛ لأنه علم ما لم يعلموا، فهم حدثوا بما يعلمون وهو حدث بما يعلم، وحفظ ما لم يحفظوا، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ.

وما ذكره الإخوة من تعارض فعل سيد مع أقواله: قد غفلوا عن أصل مهم، وهو: أن الذي يحكم على العالِم ويعبر عن رأيه هو قوله لا فعله؛ لأنه فعل امرئ غير معصوم، فلا غرابة أن يناقض فعله قوله، وسلوكه عمله، ما دام لا عصمة له، وقد قال بعض الأئمة:

اعمل بقولي ولا تركن إلى عملي ... ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

وإن كنت أحيي -على وجه الخصوص- مقالة الأخ معتز الخطيب التي ناقشت الموضوع مناقشة علمية مستنيرة وموضوعية، كذلك أحيي مقالات أخرى جيدة مثل مقالة العالم الأزهري المتمكن الدكتور يحيى هاشم فرغلي، على ما فيها من تمحل، وإن كان يبدو لي أن بعض هذه المقالات لم تكتب تعليقا على كلامي.

وأريد أن أؤكد للمعلقين جميعا أني لم أدّعِ على الرجل دعوى من كيسي بل من كيسه هو، وما آخذته إلا بكلامه البين الجلي المفهوم، فإن كان رجع عن مضمون هذا الكلام الجلي في أواخر حياته - رحمه الله - فليُقَل هذا ولا حرج، إنه تراجع عن هذا الفكر ولم يعد يلتزمه أو يؤمن به.

وحبذا أن يقول ذلك أولى الناس به؛ شقيقه الكاتب الكبير الأستاذ محمد قطب حفظه

الله، فليت صديقنا العزيز يفعلها فيريح ويستريح، فيعلق على الأقوال التي نقلتها من الظلال ومن غيره وأمثالها بسطر واحد يضع الأمور في نصابها.

لقد درسنا على شيوخنا في الأزهر علما يسمونه (أدب البحث والمناظرة)، ومن قواعده المقررة: إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدعيا فالدليل، فلا يطلب من ناقل قول إلا أن يكون نقله صحيحا ثابتا عمن نقله عنه، ولا يطلب من صاحب دعوى إلا أن يقيم الدليل على ثبوتها.

وأنا ادعيت دعوى أقمت الدليل عليها بنقول صحيحة، ولا يشكِّك أحد في صحة النقول، وإنما يشكك المشككون في ثبوت الدليل، وأنا لا أدري وجها للتشكيك فيه بحال، وقد قيل: توضيح الواضحات من المشكلات، وقال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومن قال: إن سيد قطب غير قادر على الإفهام؛ لأنه أديب وليس بفقيه فقد أساء إلى سيد وأساء إلى الأدب والأدباء.

ولا يفوتني هنا أن أنبه على حقيقة لا ريب فيها وهي: أنني -وحاشى لله- لا أكفر سيد قطب، ولا أؤثمه ولا أضلله، بل أخطئه في اجتهاده، فلا يخلط الإخوة بيني وبين من اتهموا سيدا بالكفر والضلال ومن رموه بالقول بوحدة الوجود، أخذا من متشابه كلامه في سورة «الحديد» وسورة «الإخلاص»، ولم يردوا المتشابه إلى المحكم الذي امتلأت به كتبه كلها، وهي تكذِّب هذه الدعوى التي لا تقوم على رِجلين.

بين حسن البنا وسيد قطب

ويحلو لبعض الإخوة أن يعقدوا مقارنة بين حسن البنا وسيد قطب، محاولين أن يثبتوا أنهما كانا على خط واحد، ونهج واحد، وأن سيدا لم يتجاوز خط البنا ورحم الله الرجلين.

وأنا أقول: إن سيدا أشاد بالبنا في كتاباته القديمة التي جمعها في كتاب (دراسات إسلامية) فكتب عن حسن البنا وعبقرية البناء. ولكنه لم يتحدث -فيما علمت- عن فكر

البنا ومقاصده، ولم ينقل عنه في كتبه كما نقل عن المودودي والندوي، وإن كان يجمعه بحسن البنا الاتجاه العام لنصرة الإسلام، والذود عن حماه.

أما المنهج فكان لكل منهما شخصيته وتميزه، من حيث المنطلق، ومن حيث الغاية، ومن حيث الوسيلة ومن حيث الروح العامة.

فأما المنطلق وإن كان إسلاميا لكليهما نجده مختلفا كثيرا بينهما؛ فحسن البنا ينطلق من أن الأمة الإسلامية موجودة، وأن المسلمين موجودون، ولكنهم يحتاجون إلى عمل كبير لتفقيههم بالإسلام، وتربيتهم عليه، بدءا بالفرد المسلم، فالبيت المسلم، فالشعب المسلم، فالحكومة المسلمة، فالأمة المسلمة.

وسيد قطب ينطلق من أن الأمة المسلمة قد انقطع وجودها منذ زمن، ولا بد من إعادتها من جديد، وكل الموجودين اليوم من سلالات أقوام كانوا مسلمين، وأوطانهم كانت من قبل دارا للإسلام، ولم تعد اليوم دارا للإسلام، وإذا لم يكونوا مسلمين، فعلينا أن ندعوهم إلى اعتناق العقيدة الإسلامية، وأن يدخلوا في الإسلام من جديد.

حسن البنا يرى أن الإسلام -باعتباره دينا- قائم وموجود، وأن هناك أمة تؤمن به من المحيط إلى المحيط، وأن الأمة المسلمة من أشد الأمم في الأرض تمسكا بدينها، وأن الإنسان العاصي أو المفرط من عامة المسلمين نجد أصل الإيمان مغروسا في أعماقه، ولكنه إيمان نائم أو مخدر، وهو في حاجة إلى إيقاظ وبعث وتنبيه، وهذه مهمة الدعوة الإسلامية ورجالها.

نجد حسن البنا يقول في رسائله: يا قومنا -وكل المسلمين قومنا- ندعوكم إلى كذا وكذا.

بخلاف سيد قطب، فهو يرى أن الإسلام قد انقطع وجوده من الأرض، فلا توجد أمة مسلمة، ولا يوجد مجتمع مسلم، بل لا يوجد أفراد مسلمون، لا بمعنى أنهم ارتدوا عن الإسلام، بل لأنهم لم يدخلوا أصلا في الإسلام؛ لأن دخول الإسلام لا يتحقق إلا

بشـهادة أن (لا إلـه إلا الله)، بـما تتضـمنه مـن إفـراد الله تعـالى بالحاكميـة، وهـم لم ينطقـوا بالشهادة بهذا المدلول.

وهذا هو المفهوم الذي أنكره العلامـة النـدوي عـلى سـيد وعـلى المـودودي مـن قبلـه، وسماه (التفسير السياسي للإسلام).

حسن البنا يشعر بوجود الإسلام وأمته، ويتعاطف معهـا، ويعـيش بهمومهـا، وسـيد قطب لا يحس للإسلام ولا لأمته بوجود من حوله، بل يقول: قومنا على ملة، ونحن على ملة، وهم على دين ونحن على دين آخر.

غاية حسن البنا أن يصحح فهم المسلمين للإسلام الـذي يعتنقونـه بحيـث لا يقـتصر على المعنى اللاهوتي أو التعبدي الشعائري، بل يجب أن يفهموه بشموله وتكامله وتوازنه: عبادة وجهادا، ودينا ودولة، خلقا وقوة، ثروة وغنى، تربية وتشريعا، وبعد تصحيح الفهم تبدأ عملية تجديد الإيمان وغرس المعاني الربانية والأخلاقية.

وغاية سيد قطب: أن يعلن رفض هذا المجتمع كله من حوله - فهو مجتمع جـاهلي، لم يدخل بعد في الإسلام المطلوب - وأن ندخل الناس في الإسلام من جديد، وندعوهم إلى اعتناق عقيدته، كما دعاهم الرسول وأصحابه، وأن نشعرهم بأنهم شيء ونحن شيء، وأن نصارحهم بذلك بلا وجل ولا خجل حتى يعرفوا حقيقة أنفسهم.

وسيلة حسن البنا: هي الدعوة والحـوار والتربيـة والتغلغـل في المجتمـع، والعنايـة بـه بحل مشاكله وأخـذه بـالرفق والتـدرج والانفتـاح عـلى المخـالفين، والتسـامح معهـم دون تفريط في حقوق الأمة.

وسيلة سيد قطب: هي الدعوة والتربية أيضـا مـع غـرس الشـعور في العصـبة المؤمنـة القليلـة -التـي هـي المسـلمة دون مـن عـداها- بالعزلـة الشـعورية مـن المجتمـع، ورفـض الانفتاح والتحاور مع الآخر، بل وتجب التعبئة الفكرية والشـعورية ضـده، وتقـديم سـوء الظن بهؤلاء الذين لا يضمرون إلا الشر والعداوة لمسلمين.

الروح العامة في منهج حسن البنا هي: التسامح والانفتاح والحكمة والتدرج.

والروح العامة في منهج قطب هي: التشدد والصرامة وإغلاق الأبواب.

ومن أجمل ما عبر عن اختلاف المنهجين: المفكر المؤرخ المستشار طارق البشري حين قال: «إن سيد قطب صاحب فكر يختلف كثيرا عن فكر حسن البنا -رحمهما الله- ولكن الأمر لا يقوم بالمقارنة بموازين مطلقة، إنما يجري وصف كل فكر وظروف إعماله، وفكر حسن البنا -لمن يطالعه- فكر انتشار وذيوع وارتباط بالناس عامة، وهو فكر تجميع وتوثيق للعرى، وفكر سيد قطب فكر مجانبة ومفاصلة، وفكر امتناع عن الآخرين.

فكر البنا: يزرع أرضا وينثر حبا، ويسقي شجرا وينتشر مع الشمس والهواء.

وفكر قطب: يحفر خندقا ويبني قلاعا ممتنعة عالية الأسوار، والفرق بينهما هو الفرق بين السلم والحرب»[1] .

موقف الإخوان في معتقل ١٩٦٥

وقد حاول بعض الإخوة المحبين لسيد والمعظمين له أن يؤولوا كلماته هذه الظاهرة في دلالاتها على ما نقول. وقال أحدهم – الأخ د. إبراهيم عبيد – في تعقيب له: أليست هذه العبارات التي قالها سيد مثل ما قاله الإمام حسن البنا في بعض الناس: ليسوا إخوانا، وليسوا مسلمين!

ونقول: إن هذه العبارة التي صدرت من حسن البنا –برغم شدتها وقسوتها حتى أن بعضهم أنكر صدورها عنه، وبعضهم زعم أنه أكره عليها– لا يمكن أن تحمل على ظاهرها؛ لأنها ضد منهج حسن البنا، وضد كتاباته كلها، وضد الأصل العشرين الذي ختم به الأصول التي وضعها لفهم الإسلام في إطارها وفي حدودها. فلهذا يجب أن تؤول لتتفق مع الاتجاه الفكري والعقدي العام لحسن البنا؛ فهي كلمة متشابهة، يجب أن ترد إلى

(١) من مقالة المستشار البشري (الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر، نشرت ضمن كتاب (الحركة الإسلامية.. رؤية مستقبلية) لعدد من الباحثين والمفكرين، تحرير د.عبد الله النفيسي.

سائر كلامه المحكم.

وهذا بخلاف ما نقلناه عن سيد قطب، فهي ليست كلمة ولا كلمتين، ولا عبارة ولا عبارتين قيلت في موضع أو موضعين، بل هي فكرة تجري في كتبه الأخيرة مجرى الدم في العروق، ولا نجد في كلامه الآخر ما ينقضها إلا كلامه القديم.

وقد نقلها كثيرون عنه ممن لقوه وسمعوا منه في مستشفى طره، كما حكى ذلك الأخ إبراهيم عبده نفسه حين قال: لما دخلنا المعتقلات سنة ١٩٦٥ فوجئت -كما فوجئ كثيرون غيري من الإخوان- بفتنة عارمة، تقول بتكفير المسلمين جميعا! وتزعم أن هذا القول مرجعه الأستاذ سيد قطب، أوحى به إلى الذين التقوه في مستشفى طره. وكانت فتنة مزلزلة، رفضناها جميعا، واستبعدنا أن تصدر من الأستاذ سيد. وكانت فتنة هددت المجتمع الإخواني داخل السجن بالانقسام، حتى وصل فضيلة المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي، فحسم هذه القضية، وقف -كعهدنا به- وقفته الصلبة المنضبطة، وأصدر دراسته تحت عنوان (دعاة لا قضاة). وانتهت الفتنة والتزم الإخوان إلا قليلا.

وقد بدأت الدراسة التي أملاها الأستاذ الهضيبي -أو أقرها- بنقد بعض كلمات الأستاذ المودودي في تفسير (لا إله إلا الله) وهو بهذا يرد -ضمنيا- على سيد قطب؛ لأن سيد أخذ كلام المودودي وعمقه وفصله، ورتب عليه آثارا وأحكاما، لم يرتبها المودودي نفسه.

وأعتقد اعتقادا جازما أن الأستاذ الهضيبي لم يقرأ ما كتبه سيد، ولا أحد من إخوانه في ذلك الوقت، وإلا لرد عليه. إذ لم تكن كتاباته الجديدة قد انتشرت في ذلك الوقت، ولذلك كانت كل المحاورات والمجادلات حول ما سمعه بعض الأشخاص من سيد مشافهة.

وهذا باستثناء جماعة (القطبيين) الذين قرءوا ودققوا وعرفوا وآمنوا بما دعوا، والتزموا به وتحمسوا له، ودافعوا عنه، ودخلوا السجون في سبيله.

موقف سيد قطب من جمهور المسلمين

كما لاحظت أن الإخوة الذين عقبوا علي كلهم -إلا واحدا- أغفلوا شيئا مهما، هو محور القضية، وهو ما نقلته عن سيد رحمه الله من كتبه. فقد تناسوا هذا تماما، وظلوا يركضون بعيدا: يبحثون عمن لقي سيدا، من سأله فأجابه. ومن سمع منه كذا وكذا، وأنا لا دخل لي بهذا كله. أنا أحكم على فكر الرجل من خلال نصوصه المكتوبة. والنص المكتوب هو أدل شيء على فكر الإنسان. بخلاف ما يقوله شفهيا، مما قد لا ينقل بنصه تماما، وما قد ينقل حسب فهم السامع، وما ينقل بعيدا عن سياقه وملابساته.

كنت أود من الإخوة المعقبين -ما داموا يحترمون المنطق العلمي، والبحث الموضوعي- أن يقفوا عند النصوص التي نقلتها -وهي ليست كل ما قاله الشهيد رحمه الله- ويبينوا لنا المراد منها نصا نصًّا. لينظر القارئ في تفسيرهم لها؛ أهو مقبول أم مرفوض؟ طبيعي أم متكلف؟ ولكنهم -للأسف- لم يجشموا أنفسهم مشقة هذا الجهد.

وعندي رأي في تفسير الموقف العلمي لسيد، وهو ما شهده الناس منه، وسمعوه منه في الفترة التي خرج فيها من ضيق السجن إلى باحة المجتمع، فقد واجه الجمهور الأعظم من الناس -التي شهدت نصوصه بأنه لم يدخل في الإسلام بعد، ولم يفهم (لا إله إلا الله) بمدلولها الحقيقي الذي حدده- فوجد هذا الجمهور يستقبله في كل مكان بالفرحة والترحاب، ويتعاطف معه، من كان منهم من الإخوان ومن لم يكن، ووجدهم في المساجد مقبلين على الله، تالين لكتاب الله، أو مستمعين له، متأثرين به، فلم يكن من السهل عليه أن يحكم على هؤلاء الناس بالكفر. حقيقة الناس في الواقع الذي يراه أوضح وأكبر مما سطره في الكتب. فلهذا سمعوا منه ما سمعوا، ورأوا منه ما رأوه، وأجابهم حين سئل بما أجاب. مما قد يعتبر تراجعا عما قرره في كتبه.

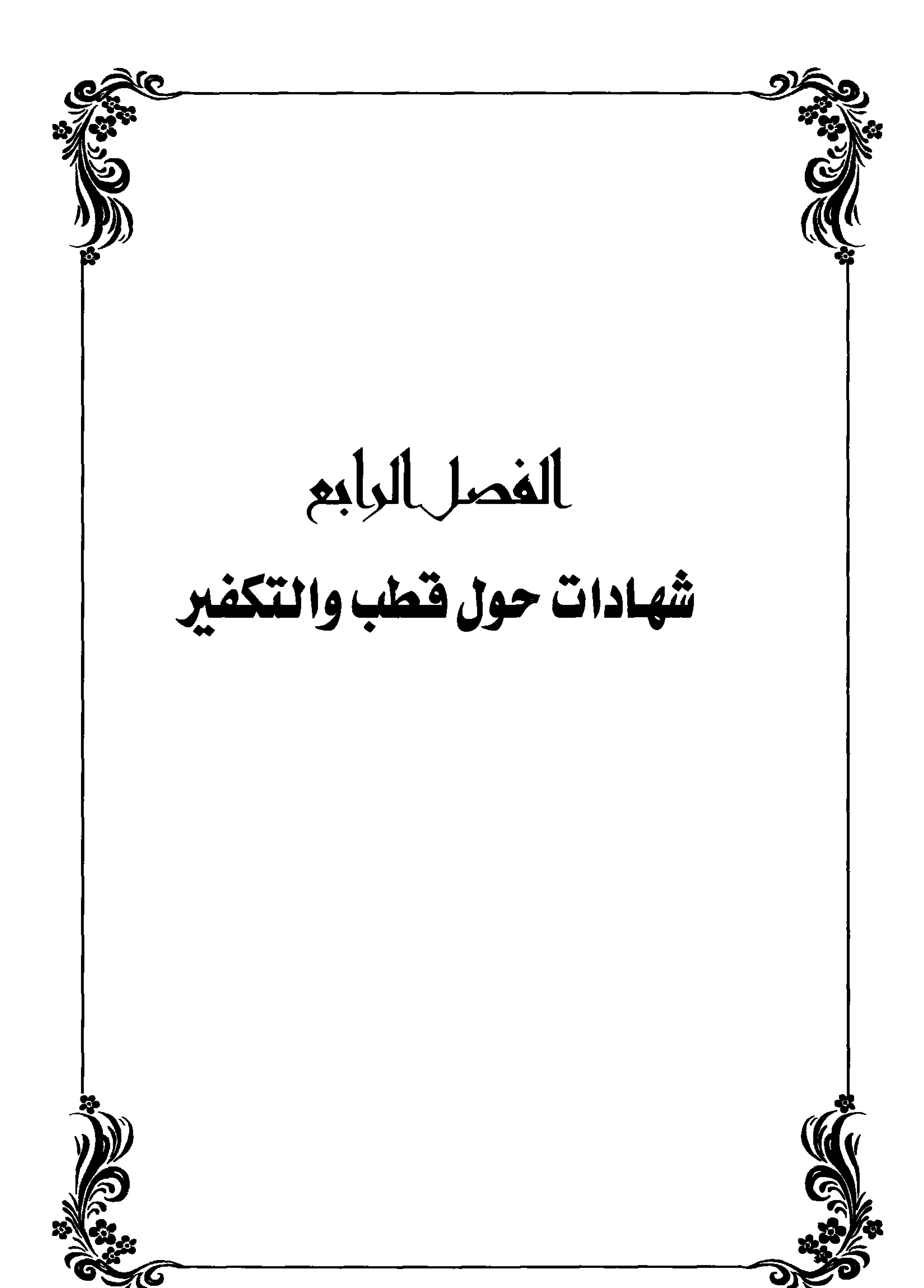
ولكن ما في الكتب من نصوص، ناصعة البيان، ظاهرة الدلالة، يبقى كما هو، لا نملك أن نغيره، أو نسقط منه حرفا، أو نزيف دلالته. فالحقيقة لا تقبل هذا، والشهيد سيد قطب نفسه لا يرضى هذا التزييف.

وأعتقد -والعلم عند الله- أن الشهيد، لو قدر الله أن ينسأ في أجله، ويعايش الناس في حياة طبيعية، ويتحدث إليهم ويسمع لهم، ويناقشهم ويناقشوه لغير رأيه فيهم، وعدل مما كتبه من قبل. فقد عرفنا من خلائقه: أنه كان رجلا صلبا في دين الله شجاعا في الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يبالي أن يقول: أخطأت، فيما أخطأ فيه.

ولا يسعني إلا أن أدعو الله له بواسع المغفرة والرحمة، وأن يجزيه بنيته وبذله لدينه، وأن يأجره الأجرين فيما أصاب فيه من اجتهاد، ويجزيه الأجر الواحد فيما أخطأ فيه.

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.

***



الفصل الرابع

شهادات حول قطب والتكفير

شهادة سيد قطب نفسه

أرسل أعضاء مكتب الإرشاد «عبد الرؤوف أبو الوفا» إلى سيد قطب في سجن طرة يستفسر منه؛ لأن المخالفين اتهموه بأنه يكفر الناس! فقال سيد في كتابه «لماذا أعدموني»[1]:

«وقد حضر من عندهم للعلاج في طره الأخ عبد الرؤوف أبو الوفا فأبلغني خبر هذا الانزعاج من ناحية، واتجاه المجموعة في الواحة إلى عدم تكفير الناس من ناحية أخرى!

وقد قلت له: **إننا لم نكفر الناس، وهذا نقل مشوه، إنما نحن نقول: إنهم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة، وعدم تصور مدلولها الصحيح، والبعد عن الحياة الإسلامية، إلى حال تشبه حال المجتمعات في الجاهلية**، وإنه من أجل هذا لا تكون نقطة البدء في الحركة هي قضية إقامة النظام الإسلامي، ولكن تكون إعادة زرع العقيدة والتربية الأخلاقية الإسلامية.. فالمسألة تتعلق بمنهج الحركة الإسلامية أكثر مما تتعلق بالحكم على الناس!

ولما عاد أبلغهم الصورة الصحيحة، بقدر ما فهم منها، ولكن ظل الآخرون في القناطر يلحون عليهم بوجوب وقف ما أسموه بالفتنة في صفوف الجماعة. وظل الحال كذلك حتى نقل إلى مستشفى طره الأستاذان عبد العزيز عطية وعمر التلمساني من أعضاء مكتب الإرشاد الباقين في السجون، والتقيا بي وأفهمتهما حقيقة المسألة فاستراحا لها».

وكانت بداية هذه الأفكار والأحداث عام ١٩٦٢م واستمرت حتى ١٩٦٤م[2].

---

(١) لماذا أعدموني، ص٣٦-٣٧.

(٢) كما ينص على ذلك صلاح الخالدي في: سيد قطب - سلسلة أعلام المسلمين ص٤٧٦.

شهادة المرشد العام عمر التلمساني

قال الأستاذ عمر التلمساني في كتابه «ذكريات لا مذكرات» [(١)]:

«... وأذكر أن الشهيد سيد قطب له مؤلفات عدة وجيدة، وعلى مستوى رفيع، منها في ظلال القرآن»، و«العدالة الاجتماعية في الإسلام»، و«معالم في الطريق». وتمتاز هذه المؤلفات بالنقمة على الظلم في كل مظاهره، والحرص على رفع المعاناة عن كلّ الطبقات، وأن تسود مصر الحرية التي ليس لها حدود إلا فيما أحلّ الله وحرم، وما تواضعت عليه الأمم الراقية ذات الحريات الواسعة.

وهذه هي المبادئ والمتطلبات التي تسود مؤلفاته، والتي سعى إلى تحقيقها طوال حياته، مع إيمانه الكامل بأن ذلك لن يكون إلا إذا طبقت الحكومات شرع الله. فهو لا يرى في غيره إصلاحًا ولا نجاحًا.

فليس في «معالم في الطريق» جديد في فكر سيد قطب، ولكن بما أن الشهيد كتبه في السجن، بعد أن ذاق ألوان العذاب على مختلف قسوتها ووحشيتها، فقد بدتْ نقمتُه على مخالفة الشرع أوضح وأظهر!..

وما أراد الشهيد الأستاذ سيد قطب في يوم من الأيام أن يكفِّر مسلمًا؛ لأنه من أعلم الناس بأن رسول الله ﷺ قال في أكثر من حديث: «إن مَن قال لا إله إلا الله موقنًا بها قلبه لن يخلد في النار». ونحن نعلم أنه لن يخلد في النار إلا الكافرون! وهم الذين ينكرون وحدانية الواحد القهار! هذه واحدة.

والثانية: إن كثرة ترداده «**للمجتمع الجاهلي**» لم يقصد بها تكفير المجتمع، ولكن

(١) ذكريا لا مذكرات، ص٢٨٠-٢٨١.

تشديد النكير على الظلمة والطغاة والمستغلِّين والمشكِّكين.. وهو أسلوب تعرفه اللغة العربية، ففي العذاب- وهو ترهيب وتخويف- يقول الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، والبشرى لا تساق إلا في مجال الخير والنعيم.. وفي كثير من أحاديث رسول الله ﷺ: «ليس منا من فعل كذا»، أو «قال كذا». ولم يقصد بذلك التكفير، ولكن: أنّ ذلك ليس من سنتنا أو عملنا، والقصد تقليل الدرجات!.

والذين يعرفون الشهيد سيد قطب، ودماثة خلقه، وجمَّ أدبه، وتواضعه، ورقة مشاعره، يعرفون أنه لا يكفِّر أحدًا!

إنه داعية إسلامي، من عيون دعاة المسلمين.. ظلمه من أخذ كلامه على غير مقاصده، ومن هاجموه متجنِّين، لما رأوه من عميق تأثير كلماته وكتاباته على الشباب الطاهر النظيف..

هذا موجز مقتضبٌ للمبادئ التي قام عليها كتاب «معالم في الطريق» وقد كان لي شرف الاطلاع عليه قبل طبعه، ونحن في مستشفى ليمان طرة».

* * *

شهادة زينب الغزالي وعبد الحليم خفاجي

أثير لغطٌ على كتاب «معالم في الطريق» في حياة سيد قطب وبعد استشهاده، وصدر هذا اللغط في محيط الإخوان المسلمين وغيرهم، واعتمدوا عليه في تكفير المسلمين، وردَّ عليهم آخرون متهمين سيدًا بأنه خرج عن خطِّ الإسلام والدعوة وفهم الإخوان؛ لأنه يكفِّر المسلمين!.

أجرت مجلة المجتمع الكويتية عام ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م[1] مقابلة مع المجاهدة زينب الغزالي، وطرحت عليها في المقابلة هذا السؤال: **هل حقًّا أن الفكر الذي كان يتبناه سيد قطب ويُدرِّسُه للإخوان، هو تكفيرُ أفراد المجتمع؟**

أجابت زينب الغزالي على ذلك فقالت: **هذا وهم، توهَّمهُ بعض تلاميذ الشهيد سيد..** لقد جلستُ مع سيد في منزلي عندما سمعت بتلك الشائعة. وقلت له: إن منزلتي عند «السيدات المسلمات» تجعلهم يحترمونني احترامًا عظيمًا، ولكنَّهم مستعدون أن ينسفوا كل هذا الاحترام إذا علموا أنني أقولُ عنهم – أو عن أحدٍ من أقاربهم – إنهم كفار!

واستغربَ نفسُه هذا القول! وبيَّن أن هذا فهم خاطئ لما كتبه.. وبيَّن أنه سيوضِّحُ هذا في الجزء الثاني من «المعالم».

ويروي الأخ عبد الحليم خفاجي في كتابه «عندما غابت الشمس»[2] أن فكرة

(١) مجلة المجتمع، عدد ٥٦٥، ١٢ جمادى الآخرة ١٤٠٢هـ ص٢١. عن صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب، أعلام المسلمين، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٠م، ص٤٨٢.

(٢) عندما غابت الشمس، ص٤٤٦-٤٤٧ عن المرجع السابق، ص٤٨٣

التكفير نبَتت في السجون، من قِبَل بعض الشباب، وأنهم ادَّعوا نسبتها لسيد قطب، وزعموا أنه يقول بها، وهذا في حياته، فتبرأ من ذلك!

قال خفاجي: «وحمَّلنا الأخ إبراهيم الطناني المرحَّل إلى سجن طرة للعلاج رسائل للأستاذ سيد قطب، بتفاصيل تفكير وسلوك هؤلاء الإخوة.

فأرسل منكرًا عليهم ذلك، وقال عنهم: **لقد فهموني خطأً!**

وقال سيد قطب أيضًا: «**لقد وضعتُ حملي على حصانٍ أعرج!!**».

***

شهادة «سيد نزيلي» من قيادات تنظيم ٦٥

إعداد: مصطفى عاشور [١]



كان لدعوة الإخوان المسلمين أثرها الملحوظ على كثير من رجالات مصر منذ نشأتها وحتى اليوم، غير أن أثرها الأكبر وزخمها الأكثر كان على رجالاتها الأُوَل الذي عاصروا ولادتها ونشأتها، وإذا كان الشهيد «سيد قطب» قد انضم إلى الدعوة بعد وفاة مؤسسها الأول «حسن البنا»؛ فإن تأثير الرجل في الدعوة وفي الفكر الإسلامي المعاصر كان كبيرا وغير محدود، بل ومتجددًا أيضا، ومن ثم كانت موجات المد والانحسار متكررة في مسيرتنا الفكرية والحركية الإسلامية حول الرجل وأفكاره، بل وحول ما فهمه البعض من أفكاره فرفعه بعضهم مكانا عليًّا، أما الآخرون فتوزع موقفهم منه بين متهم له بـ«التكفير» أو «المنهج العنيف» الذي نمت جماعات عالة على ما كتب وأنتج من أفكار.

وإذا كان الشهيد «سيد قطب» هو في ذمة الله، فإن من الحق والإنصاف ألا نصدر الحكم عليه من خلال انتزاع بعض أفكاره من سياقها ثم تحميلها ما لا تحمل ثم إصدار الحكم على الرجل، وإذا كان تاريخنا الثقافي غير مدون في كثير من فصوله، فإن شهادة المعاصرين للتجربة ونمو الفكرة قد تمثل ضوءا هاديًا في الحكم على الأشخاص والأحداث؛ خاصة أن الفترة التي نشأت فيها أفكار «قطب» وتجربته كانت فترة عصيبة في وجدان من عايشها من أبناء الحركة الإسلامية في مصر، وكانت فترة يدون فيها تاريخ وفكر الحركة من خلال المحاكمات والتحقيقات، وليس من خلال التفاعل الفكري الحر والديمقراطي.

وشهادة الأستاذ «سيد نزيلي» لها أهمية كبيرة، **فهو من كبار قيادات الإخوان المسلمين،**

---

(١) صحفي مصري.

وأحد قيادات تنظيم ١٩٦٥م الذين تأثروا وتربوا على أفكار سيد قطب، وما يزال متأثرا بها، ويعتبرها من أدبيات الإخوان المسلمين التي من الواجب التمسك بها، ويرفض ما يتردد عن وجود تعارض بين ما جاء به «حسن البنا» وما طرحه «سيد قطب» من أفكار، بل يرى أنها اجتهادات متنوعة في حقل دعوة الإخوان، و«سيد نزيلي» من مواليد قرية كرداسة بمحافظة الجيزة في مارس ١٩٣٨م، وخريج كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٦١، و«العريس» الذي لم يهنأ بعرسه إلا أياما معدودات حتى سيق إلى السجن الحربي، وتعرضت قريته الكبيرة لمحنة كبيرة ذكرتها أدبيات الإخوان، وكان ممن حكم عليه بالمؤبد في تنظيم ١٩٦٥، وكان من آخر من خرج من السجن في مارس ١٩٧٥.

أثار «نزيلي» عددا من القضايا فيما يتعلق بسيد قطب، وما يتردد من كونه كان يتبنى منهجًا تكفيريًّا، فأكد أن «قطب» عندما رأى الهجمة الشرسة على الإسلام في تلك الفترة من الصهيونية العالمية، والصليبية العالمية، والشيوعية الدولية، غلف أفكاره بعبارات حماسية حتى يوقظ الشباب والأمة المسلمة، **فكانت أفكاره أجراس إنذار، وليست تكفيرا**، بل كانت اتهاما بالسير في طريق العلمانية للدولة عشية استقلالها، وليست دعوة للتمرد عليها وتكفيرها، وساق الرجل بعض المواقف لسيد قطب تؤكد صدق ما ذهب إليه، **كما أنه والشباب الموجودين في تنظيم ١٩٦٥ لم يعرفوا فكرة التكفير**، وهم من أقرب الناس إليه، وإنما **كانوا يفهمون أفكار سيد قطب على أنها أفكار مغلفة بشحنات عاطفية وأدبية، وليست أحكاما على المجتمع**.

وأكد «نزيلي» على أن **قضية التكفير نشأت بفعل الأهوال التي تعرض لها الشباب المسلم في السجون**، والتي جعلته يصل إلى قناعات بتكفير النظام الذي يظلمه ويتعمد إيذاءه، ومن ثم **فإن «التكفير» نشأ بعيدا عن «سيد قطب» وأفكاره**، وبفعل ضغوط وظلم الدولة في تلك الفترة، ولم ينشأ كتعبير عن منهج فكري لهؤلاء الشباب في تلك الفترة، وأن التكفير كان سينشأ حتى إن لم يوجد «سيد قطب» لأنه في الأساس هو رد فعل على الظلم والتعذيب.

شخصية سيد قطب

تحدث الأستاذ «نزيلي» عن شخصية سيد قطب وأدبه حديثا مستفيضا، ومما ذكره «أن للأديب العقاد بصماته الواضحة على سيد قطب، وأن قطبًا تأثر بالمناخ الفكري والثقافي والكتابات في الفترة التي سبقت انتماءه للإخوان، إلا أنه كان متأثرا بالفكرة والمرجعية الإسلامية، وظهر ذلك في كتابيه «دراسات إسلامية» و«العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وكانت نزعته الأدبية تلمح فيها النضج الروحي واللمسة الأدبية والعاطفية التي لم تقتصر عليه وحده، بل شملت أخاه محمدًا وأختيه حميدة وأمينة حيث أخرج الأربعة ديوانًا واحدا باسم «الأطياف الأربعة».

وتعرض الأستاذ «نزيلي» لكيفية انضمام «قطب» لجماعة الإخوان حيث جاءت استجابة لما لاحظه من ابتهاج غربي أثناء بعثته في الولايات المتحدة الأمريكية لمقتل الشهيد «حسن البنا»، ومن ثم عزم على الانضمام لصفوف الإخوان، وبايع الأستاذ «حسن الهضيبي»، ووضعته الجماعة في مكانته اللائقة به، فكان مسؤولًا عن جريدة «الإخوان المسلمون».

قطب.. والتكفير

أكد الأستاذ «نزيلي» أن «للمحنة بصماتها على فكر سيد قطب، ليس من حيث انقلابه على الماضي، ولكن من ناحية شحنة العاطفة التي غلفت كل أفكاره، وفتحت عينيه على أمور كثيرة تحاك للإسلام، حيث وقف طويلا أمام الآيات التي تتحدث عن الصراع بين الحق والباطل، ومن تداعيات المحنة عليه: أنها جعلته يتعمق في جذور هذا الصراع، ووجد ضالته عندما دخل السجن، وذاق ما ذاق، ورأى ما يُفعل به وبإخوانه من صنوف العذاب، والإعدامات، وما حدث في مذبحة طرة (٢٢ شهيدا من الإخوان)، ولكن كل هذا لم يجعله ينقلب على ماضيه، وإنما نظر للصراع نظرة معمقة، ولم يكن يرى أن هذا الصراع هو صراع بينه وبين الأنظمة التي تحكم العرب والمسلمين، وإنما ذهب بعيدا ورأى أنه صراع الإسلام مع الصهيونية والصليبية والشيوعية، فهذه هي رءوس العداوة

للمسلمين، ولم يكن ينشغل بزعامات أو رئاسات البلاد العربية.

ولم يعرف عنه قبل السجن أنه يميل إلى التكفير على مستواه الشخصي أو الفكري، فهو لم يتهم عامة المسلمين بالكفر، وكان يصلي خلف الإمام العادي، وكان يأكل ذبائح المسلمين، ويؤثر عنه في سجنه أنه سئل: «**هل أنت تكفر عامة المسلمين؟**». **فقال: كيف أكفر عامة المسلمين، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وحب الدين متغلغل في وجدانهم وقلوبهم، ثم نادى على سجين من أرباب الإجرام والمعروفين بالشراسة وسوء الخلق، وقال له: يا فلان: إذا قابلك رجل ولعن دينك ماذا يكون موقفك؟. فقال هذا السجين: أقتله.**

فاستشهد «سيد قطب» بذلك في أن للإسلام قدسية واحترامًا حتى في نفوس الذين يُخيل إلينا أنهم أبعد ما يكونون عن الإسلام بأعمالهم، فوجدانهم ومشاعرهم متقدة بالإسلام.

ومن يتعمق في كتاباته يجد أنه **لم تحكمه قضية التكفير، ولم تكن هدفه وغايته التي يجند فكره لها، بل كانت قضية الإسلام في العصر الحاضر المحارب من كل الاتجاهات** الراغبة في اجتثاثه من جذوره، وانتزاعه من قلوب المسلمين، ولا شك أننا نسلم بهذه القضية، ومن هنا كانت كتاباته للدفاع عن الإسلام، وبعث الغيرة في نفوس أبنائه، وبث الإيمان في قلوب الطليعة المؤمنة حتى تبقي هذا الدين حيًّا في النفوس أمام هذه الهجمات.

ونحن الجيل الذي تربى على فكر سيد قطب لم نلحظ هذه الدعاوى التي تتهمه بالتكفير، وهو لم يطلب منا ذلك في الكتابات التي كان يرسل بها إلينا ويربينا عليها نحن جيل ١٩٦٥، نحن كنا نعيش بإسلامنا بين أهلينا ومجتمعنا، ولم يخطر على بالنا أننا متميزون بأي شيء عن غيرنا من المسلمين، اللهم إلا أننا نعتبر أنفسنا أكثر الناس غيرة على الإسلام وحدوده وثوابته، وكنا ندعو الناس إلى ذلك، و«سيد قطب» لم تكن كتاباته لانعزال هذه الفئة التي يربيها؛ **بل كان يطلب من الشباب أن يندمجوا مع المجتمع حتى يغيروا هذا المجتمع.**

تجربة شخصية مع دعوى التكفير

ففي سجن قنا أثيرت قضية التكفير عام ١٩٦٨م، بعد تلك الفترة العصيبة الدامية في السجن الحربي (١٨ شهرا) حيث كنا محبوسين سبعة أفراد في زنزانة واحدة ضيقة لا يكاد المرء ينام فيها على شقه (استمرت ٢٢شهرا)، هذه المرحلة تركت بصماتها على ذوي النظرة المحدودة وغير المتعمقة في الفقه الإسلامي، والذين لم ينالوا قدرا مناسبا من التربية الإخوانية، وما يتصل فيها بقضية التكفير، مما جعل البعض يتجه نفسيًّا إلى التكفير، فكيف يساوي بينه وبين الجلاد، أو بينه وبين من يأمر بتعذيبه، ومن ثم فإن **التكفير هو في حقيقته «فكر أزمة» معاصرة لم تخضع للدراسة، ووجد التكفير بعيدا عن «سيد قطب»**، حيث وجد التكفير بعد عام ١٩٦٥م، وكان متغلغلا في الجيل الذي لم يدخل الإخوان، ولم يتأثروا بسيد قطب، وفي هذه الفترة تدخل الأستاذ «حسن الهضيبي» وأرسل إلينا ملازم من الكتاب الفيصل في هذه القضية وهو «دعاة لا قضاة» الذي كنا نسميه «البحث»، وقد دفعني ذلك إلى أن ألتقي بمن كان معي قبل ١٩٦٥، وأتذكر معهم ما كنا عليه قبل السجن، والحال الذي وصلنا إليه بعد أربع سنوات، وكانت الأسئلة التي طرحتها محددة وهي:

- هل كنا نُكفر قبل دخولنا السجن؟

الجواب: لا

- هل كنا لا نصلي وراء الإمام الذي ليس منا؟

الجواب: لا

- هل كنا لا نأكل ذبيحة المسلمين العادية؟

الجواب: لا

- هل كنا نُكفر والدينا وأشقاءنا؟

الجواب: لا

إن ما دخل على فكر بعض الذين يتمسحون في فكر سيد قطب هو من آثار المحنة، وكرد فعل على القسوة التي تعرضوا لها في السجن، وهو ما انعكس على أحكامهم وتعاملهم مع آيات القرآن الكريم، وبعضهم لصق ذلك زورًا بسيد قطب.

وقد انتهيت بعد لقائي بإخواني واستجلاء حقائق الأمور إلى: **أننا لم نكفر مسلمًا، ولم نعلم من الأستاذ سيد قطب أنه يأمرنا بالتكفير، أو الانعزال عن المجتمع، أو المفاصلة الشعورية التي يفهمها البعض خطأ بمعنى الانعزال. والذي كنا نفهمه من «المفاصلة الشعورية» هو البعد النفسي عن المسلم الذي يرتكب المعاصي والموبقات**، وهذه مسألة مطلوبة منا جميعا، ولكن ليس معناها أن أشعر أنني مسلم، وأن هذا المسلم العاصي كافر!.

وعموما فإن سيد قطب كان أديبا يمتلك ناصية قلمه، وتعبيره في أغلب القضايا التي عالجها هي تعبيرات المحب لدينه، الغيور على دعوته، الكاره للظلم والظالمين، المشفق على أمته من الانزلاق بعيدا عن دينها، وهداية ربها.

التغير في فكر سيد قطب

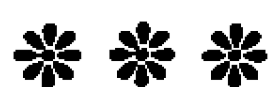
ما طرأ على فكر «سيد قطب» في المحنة من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٥م لا نقول إنه انقلاب على أفكاره السابقة، ولكن أعطى لكتاباته لونًا متميزا، فقد لاحظ بثاقب نظره أن المشروع العلماني الذي تبنته الأنظمة الحاكمة في البلاد الإسلامية، من شأنه أن يفصل بين الدين والدولة، بحيث يتسنى للدولة أن تصبغ حياة المسلمين بعيدا عن الإسلام، وهو ما أصاب «سيد قطب» بنوع من القلق والخوف على الدعوة، وهذا الأمر مؤكد ومهم في أدبيات هذه الفترة، فليس عندنا الكنيسة المتسلطة، وليس لدينا الذين يستعبدون الناس بذواتهم أو برامجهم، وكما نعلم أن شعار العلمانية: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، **ومن هنا فإن «قطب» استشعر خطورة الفصل العلماني بين الدين والحياة، وكانت كتاباته تنقض هذه الأفكار، وتربي أجيال المسلمين على الإسلام الشامل، ويفهم من كتاباته أن عامة المسلمين ليسوا متهمين بالعلمانية، وأنه كان يتهم الأنظمة القائمة التي تحذو حذو العلمانية**

الغربية، وكانت آراؤه اتهامًا لهذه الأنظمة بالسير في العلمانية، وليست تكفيرا.

وإن محاولة إلصاق تهمة التكفير بسيد قطب إنما يخدم دوائر معينة، خاصة في ظل حالة الاستعداء الدولي ضد الحركة الإسلامية، ومحاولة استعداء هذا المجتمع على الإخوان، والادعاء بأن الإخوان خرجت من عباءتهم كل الأفكار العنيفة والمتطرفة، وهذا ظلم لفكر سيد قطب.

إلى فضيلة الشيخ القرضاوي!

وبعث «نزيلي» برسالة إلى فضيلة الشيخ القرضاوي في هذا الشأن حيث قال: «كنت أود أن يظل الأستاذ الفاضل يوسف القرضاوي على ما هو عليه من تجميع الأمة والعاملين للإسلام بكل توجهاتهم، بعيدا عن نقاط الاختلاف والخلاف، وألا ينكأ جراحًا قديمة، حيث إن الوقت غير مناسب، خاصة مع الحملة الشرسة ضد الإسلام والمسلمين ببرامج ووسائل معلومة ومعروفة، يرصد لها الأعداء الأموال الطائلة، ويضغطون على الأمة بكل الوسائل حتى يغيروا من هوية الأمة، وأريد أن أستعير الكلمات الآتية: «إننا نجمع ولا نفرق، ونتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه» والله على ما أقول شهيد.



شهادة أحمد عبد المجيد من تنظيم ٦٥

إعداد: مصطفى عاشور[1]



يبدو أن الأفكار الحية لا ينتهي ما تثيره من جدل وتجاذب واختلاف في القراءة، رغم مضي السنين، وقد أثارت مقالات العلامة الجليل فضيلة الشيخ القرضاوي حول الشهيد «سيد قطب» وأفكاره وقراءته الفقهية لما ورد في بعض كتابات «قطب»، خاصة تفسير «في ظلال القرآن» وكتاب «معالم في الطريق»، كثيرا من ردود الأفعال، خاصة ممن عاصر «قطب» وأخذ عنه واقترب منه، كما أن تأكيد فضيلة الشيخ «القرضاوي» على أن «أخطر ما تحتويه التوجهات الجديدة لسيد قطب في هذه المرحلة (منتصف الستينيات) هي ركونه إلى التكفير»، وأن «سيد قطب ينظر إلى مسلمي اليوم نظرته إلى مشركي الجزيرة العربية قبل البعثة»، وأن «مشكلة سيد قطب أنه لا يعرف سوى الإيمان والكفر»، دفع بعض المعاصرين للمرحلة والتجربة إلى الإدلاء بشهاداتهم اعتقادًا منهم بأن هذه الشهادة هي واجب ديني وتاريخي.

وإذا كانت فكرة أو منهج التكفير نشأ في نهاية الستينيات نتيجة للضغوط القاسية التي تعرض لها الشباب المسلم في السجون الناصرية، والتي جعلت البعض يصدر أحكامه من واقع ما يعانيه من ضغوط وتعذيب، قبل أن يستند إلى آراء فكرية وفقهية، فإن التكفير في حقيقته هو «فكر أزمة» وليس منهجًا في الحركة الإسلامية، رغم جنوح البعض إليه.

ومن هنا تأتي شهادة المعاصرين والقريبين للشهيد «سيد قطب» والمتأثرين بأفكاره، أو بالأحرى الذين أخذوا منه مباشرة، وتربوا على يديه، وملأت أفكاره نفوسهم، وكانت

(١) صحفي مصري.

سببًا في تعرضهم للإيذاء الشديد، كنوع من الدليل القوي على منهج الرجل الذي تعرض لكثير من الظلم في حياته وبعد مماته.

تأتي شهادة الأستاذ «أحمد عبد المجيد» لتلقي الضوء على شخصية الشهيد «سيد قطب» باعتباره **كان من الدائرة الأولى التي تجالس «قطب» وتأخذ منه مباشرة، وتأثرت بأفكاره تأثرا كبيرا**، لم تستطع أربعة وثلاثون عامًا أن تمحو منه هذا التأثير رغم تقلبات الدهر؛ لذا يحسبه البعض على التيار القطبي، والرجل حقوقي من مواليد ١٩٣٣م، وحكم عليه بالإعدام في قضية تنظيم ١٩٦٥م، لكن خفف الحكم إلى المؤبد، وبالمناسبة فإنه متزوج من ابنة الشهيد «محمد هواش» الذي كان من كبار قادة تنظيم ١٩٦٥م، ونُفذ فيه حكم الإعدام، ثم خرج الأستاذ «أحمد عبد المجيد» في السبعينيات، وله كتاب حول حقيقة تنظيم ١٩٦٥ صدر عن دار الزهراء للإعلام العربي، وعدد من المقالات عن الحركة الإسلامية في مجلة «المنار الجديد».

وقد نبه الرجل في شهادته **إلى أن فكرة التكفير كانت بعيدة عن «قطب»، وأن التكفير لم يتبنَّه القريبون منه أو الذين تربوا على يديه، ولم يتبنَّه تنظيم ١٩٦٥م**، ولكن الذي تبنى التكفير هم الذين لم يتربوا على يد «قطب»، ولم يكونوا من الإخوان المسلمين، وأشار إلى حقيقة تاريخية وهي أن التكفير نشأ عام ١٩٦٨م، وأنهم (أي قيادات تنظيم ١٩٦٥) عاشوا في عزلة تامة في السجن الحربي لمدة تزيد على السنتين، وعندما تم ترحيلهم إلى سجن قنا فوجئوا أن قدامى الإخوان في السجن يسألونهم عما تردده الصحافة عنهم من أنهم يكفرون المجتمع ويسعون لقتل «أم كلثوم»، فكان الحديث مفاجأة، ويذكر الرجل أنه عندما أخبر عن «التكفير» لم يسترعِ الأمر انتباهه؛ **لأن المسألة لم تكن مطروحة في فكرهم الذي فهموه من «قطب»**.

وأشار -أيضا- إلى حقيقة، وهي **أن الذي أطلق عبارة «نحن دعاة ولسنا قضاة » هو الشهيد «سيد قطب»** وهي العبارة التي صارت منهجًا للإخوان في عهد المرشد الثاني للإخوان «حسن الهضيبي».

شخصية سيد قطب

تحدث الأستاذ «أحمد عبد المجيد» عن شخصية «قطب»، وأشار إلى نقطتين مهمتين كانت تتميز بهما تلك الشخصية وهما: الحب للمجتمع، وعدم الانعزال عن هذا المجتمع، فأكد أنه «كان رحيمًا لا يغضب، عف اللسان لا تفارقه الابتسامة الوقور، وذا دعابة مؤدبة، رقيق المشاعر مرهف الحس، وأنه كان في فترة شهرته الأدبية من مؤيدي »العقاد«، وكان ممن له سبب في شهرة الأديب الكبير «نجيب محفوظ»، وأن «محفوظ» ممن زاره في بيته بعد خروجه من السجن عام ١٩٦٤م، بحكم الصلة والمعرفة القديمة بينهما، وهو دليل على أنه غير منغلق، وغير انعزالي، كما كانت صلته بالضباط والجنود في السجن صلة طيبة، حتى إن مأمور سجن طرة قال: إن سيدًا هو مدير السجن لصلته القوية بالجميع«.

سيد قطب.. والتكفير

وتعرض الأستاذ «أحمد عبد المجيد» في شهادته لمسألة «التكفير»، وأكد «أن **سيد قطب لم يكن من دعاة التكفير، لأن هذا الاتجاه نشأ في سجن «مزرعة ليمان طرة»** عام ١٩٦٨م **وما بعدها، على يد «شكري مصطفى» وأمثاله**، ولو كانت هذه الفكرة عند سيد قطب لكان من باب أولى أن تكون عند من تتلمذ على يديه، ومن كان يقابله ويجالسه، وهو ما لم يحدث، وأحب أن أقول: إنه هو أول من قال عبارة «نحن دعاة ولسنا قضاة»، وأذكر أنه قال لنا: «عندما تعرضون الإسلام على الناس، اعرضوا الإسلام بوضوحه ونصاعته، وإياكم أن تعرضوا عليهم النتائج، اتركوا للمستمع أن يستنتج موقعه في أي مرحلة هو من هذا الدين».

«فلم تكن قضية التكفير تشغل باله، وإنما الذي كان يشغله هو قضية الدعوة، وكشف مخططات أعداء الإسلام، والدليل على أننا لم نعرف قضية التكفير إلا أوائل عام ١٩٦٨م عندما ذهبنا إلى سجن قنا أبلغنا الإخوان القدامى في المعتقل أن موضوع التكفير أثير حولنا في الصحف، ولم نكن نعلم عنه شيئا منذ اعتقالنا؛ لأننا كنا نعيش في عزلة تامة لأكثر من عامين عن العالم، أما المرة الثانية التي سمعنا فيها عن موضوع التكفير فكان في نهاية ١٩٦٨ عندما أثير في سجن مزرعة طرة».

التغير في أفكار سيد قطب

وتناول الأستاذ «أحمد عبد المجيد» مسألة التغير في أفكار «سيد قطب»، التي ظهرت بوضوح في السجن، لكن **عزا التغيير إلى الدراسة والبحث، وزيادة إدراكه لمخططات أعداء الإسلام ضد هذا الدين، وليس انعكاسا للمحن التي تعرض لها في السجن** فقال: حدث تغيير في أفكار سيد قطب، فعندما كان في مستشفى ليمان طرة، طلب من أسرته كتب الشهيد «حسن البنا»، والأستاذ «أبو الأعلى المودودي»، فبدأ يتنبه إلى أمور كانت غائبة عنه، خاصة في ضرورة التركيز على موضوع العقيدة، ثم بدأ يطلب كتب «ابن تيمية» و«ابن القيم»، وبدأ التغير في تفكيره وكتاباته، وظهر ذلك جليًّا في الطبعة الثانية من الظلال، بدءا من الجزء (١٣) والأجزاء الأخيرة، وكتاب «خصائص التصور الإسلامي»، و«مقومات التصور الإسلامي» و«معالم في الطريق»، ولو فرضنا أن هناك أخطاء عند سيد قطب، وهو بشر، فإن التقييم العادل أن نأخذ الأفكار الراشدة، ونترك غيرها، ولا نرفض المنهج بأكمله، **ومن عناصر هذا التغير**:

- وصوله إلى شمولية الإسلام، وضرورة التعامل مع أعداء الإسلام من علٍ، وتجاهل التعامل معهم من باب الدفاع عن الإسلام، وكأن الإسلام مهزوم في المعركة، وظهر ذلك في فصل «استعلاء الإيمان» في كتاب «معالم في الطريق».

- الحديث عن المفاصلة الشعورية التي تكون بالقلب ولا يطلع عليها أحد إلا الله، فلا مناصرة ولا محبة مع أهل الباطل، وأما المفاصلة المادية فهي تكون في المعاملات المادية الظاهرة، وقد تكون في موقف أو أكثر، ولا يعني ذلك العزلة عن الناس، وبالتالي **فهو لم يدع إلى الخروج على المجتمع أو الانعزال عنه.**

- فكرة الحاكمية، وهو أخذها من «أبو الأعلى المودودي» وهي رد الحكم والتشريع إلى الله وحده، وليس لأحد كائنا من كان أن ينتزع هذه الحاكمية لنفسه أو لأي شخص، **ومفهوم الحاكمية عنده يختلف عن مفهوم الدولة الدينية.**

- فكرة الجاهلية، وهذه الكلمة هي مصطلح قرآني، وهي تعني الجهل بحقيقة الألوهية، والجهل بما يحبه الله سبحانه؛ من إخلاص العبادة له وحده دون شريك، وهي ليست محددة بزمن معين أو مكان معين (أفحكم الجاهلية يبغون)، ولا يعني ذلك إطلاق الحكم بالكفر على من يقع تحت الحكم الجاهلي، وأذكر أن الشهيد «محمد هواش» كان يقول لنا ونحن في السجن الحربي: «**الجاهلية كالمظلة التي تحتها أصناف شتى من الناس**»، وهذا ما فهمه الرجل القريب جدا من سيد قطب الذي عايشه في السجن عشر سنوات، فالجاهلية ليست تحديدا لمجتمع معين».

- الاهتمام بمخططات أعداء الإسلام، وقد أوضح لنا الشهيد سيد قطب أن «الاستخبارات الفكرية» اكتشفت ما في الظلال من خطورة عليها، ولعل هذا ما جعله يدرك قرب نهايته.

أما محاولات إلصاق تهمة التكفير بـ«سيد قطب»، فهي محاولة للإساءة للرموز الإسلامية، لأن الإساءة للرمز تحول دون الأخذ عنه، أو التقدير له أو الاحترام له، وعلى سبيل المثال قال لنا «سيد قطب»: إن بعض رجال المباحث عرض عليه وحاول إغراءه بالكتابة في الصحف، وقال لنا: «إنهم حريصون دائما على تلويث الراية، وتلويث راية الإخوان المسلمين ومن ينتمي إليها»، كما أن إلصاق تهمة التكفير تعطي تبريرا لممارسات الأنظمة ضد أبناء الحركة الإسلامية.

الموقف مما طرحه الشيخ القرضاوي

وأبدى الأستاذ «أحمد عبد المجيد» استغرابه مما طرحه فضيلة الشيخ «القرضاوي» حول «سيد قطب» وأفكاره، وتوقيت طرح هذا الكلام بعد مرور (٣٤) عاما عليه فقال: «**أنا أعجب لإثارة مثل هذا الموضوع حاليا بعد مرور حوالي (٣٤) عاما عليه، وما الدافع له وما المصلحة في ذلك؛ في وقت نحن محتاجون فيه إلى التئام الصف**، وسد الثغرات، وما المصلحة الدافعة لمثل هذا الكلام، وكنت أتمنى أن ينأى فضيلة الشيخ القرضاوي عن الخوض في هذا الموضوع؛ وإن كانت هذه ليست المرة الأولى التي يقول فيها فضيلته مثل

هـذا الكـلام، ففـي مقـالات نشرهـا بجريـدة الشـعب الصـادرة ١١، ١٨، ٢٥ نـوفمبر ١٩٨٦م، انتقد فضيلته وعقب عـلى آراء سـيد قطـب، وكـذلك في نـدوة »اتجاهـات الفكـر الإسلامي المعاصر« ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م قـدم الشـيخ »جعفـر شـيخ إدريـس« - وهـو مـن إخوان السودان - بحثًا بعنوان «قضية المنهج عند سيد قطب في معـالم في الطريـق»، وكـان تعليق الشيخ «القرضاوي»: «وهذا اتجاه يجب أن يُقوّم» يعنى اتجاه سيد قطب كله يجب أن يُقوّم وليست مسألة أو مسائل فيه، وأخشى أن يستفيد أعداء الحركة الإسلامية مـن كـلام فضيلته.

وأستند إلى كلام الدكتور «بكر أبو زيد» عضو هيئة كبار العلماء بالسعودية الذي دافع فيه عن سيد قطب بالرد على أحد المهاجمين لقطب، ومما قال: «لكن هول ما ذكرت، دفعني إلى قراءات متعددة في عامة كتبه؛ فوجدت فيها خيرا كثيرا، وإيمانـا مشرقـا، وحقـا أبلجـا، وتشريحا فاضحا لمخططات أعداء الإسلام».

***

شهادات حول «قطب والتكفير»

د. محمود عزت [1]

أنا أحد الذين عايشوا الأستاذ سيدًا - رحمه الله تعالى- أثناء محاكمات الإخوان أمام الفريق الدجوي عام ٦٥، وأورد شهادتي وبعض شهادات من عاصروه من إخواننا وأساتذتنا.

الشهادة الأولى:

قبيل انتهاء محاكمة الأستاذ سيد سنة ٦٥، وهو داخل قفص الاتهام سأله أحد الإخوان: هل يا أستاذ قد تم البلاغ المبين الذي علينا أن نقوم به؟ فقال الأستاذ سيد: »لا، إنكم لا تدرون ما يقال عنكم وعن الدعوة في الصحف وفي وسائل الإعلام، وإن كنا أدَّينا بلاغا فقد أديناه أمام من يحاكموننا على قدر ما أفسحوا لنا«. فإذا كان الأستاذ سيد - رحمه الله - لا يعتبر نفسه، ولا يعتبر أن إخوانه أتيحت لهم الفرصة لإبلاغ الناسِ الحقَّ، فهل يعقل أن يكون الأستاذ يقصد من كلامه في الظلال وغيره إلى إصدار حكم على الأفراد والمجتمعات بالكفر المخرج من الملة؟!

الشهادة الثانية:

وأضيف إلى الشهادة السابقة شهادة المرشد العام الأسبق لجماعة الإخوان المسلمين الأستاذ عمر التلمساني - رحمه الله - الذي تحرى هذا الأمر وسأل الأستاذ سيدًا رحمه الله سؤالا مباشرا، **هل يا أستاذ سيد أنت تحكم على الناس بالكفر؟ فأجاب: »لا«.**

ونقل الأستاذ عمر -وكان وقتها أحد أعضاء مكتب الإرشاد المحبوسين- هذه

---

(١) داعية مصري.

الشهادة إلى الإخوان عندما كثر اللغط في السجون عن شائعة الكفر التي أشاعها بعض من كان ينزل إلى العلاج في مستشفى ليمان طرة، حيث كان يعالَج الأستاذ سيد رحمه الله.

والشهادة الثالثة:

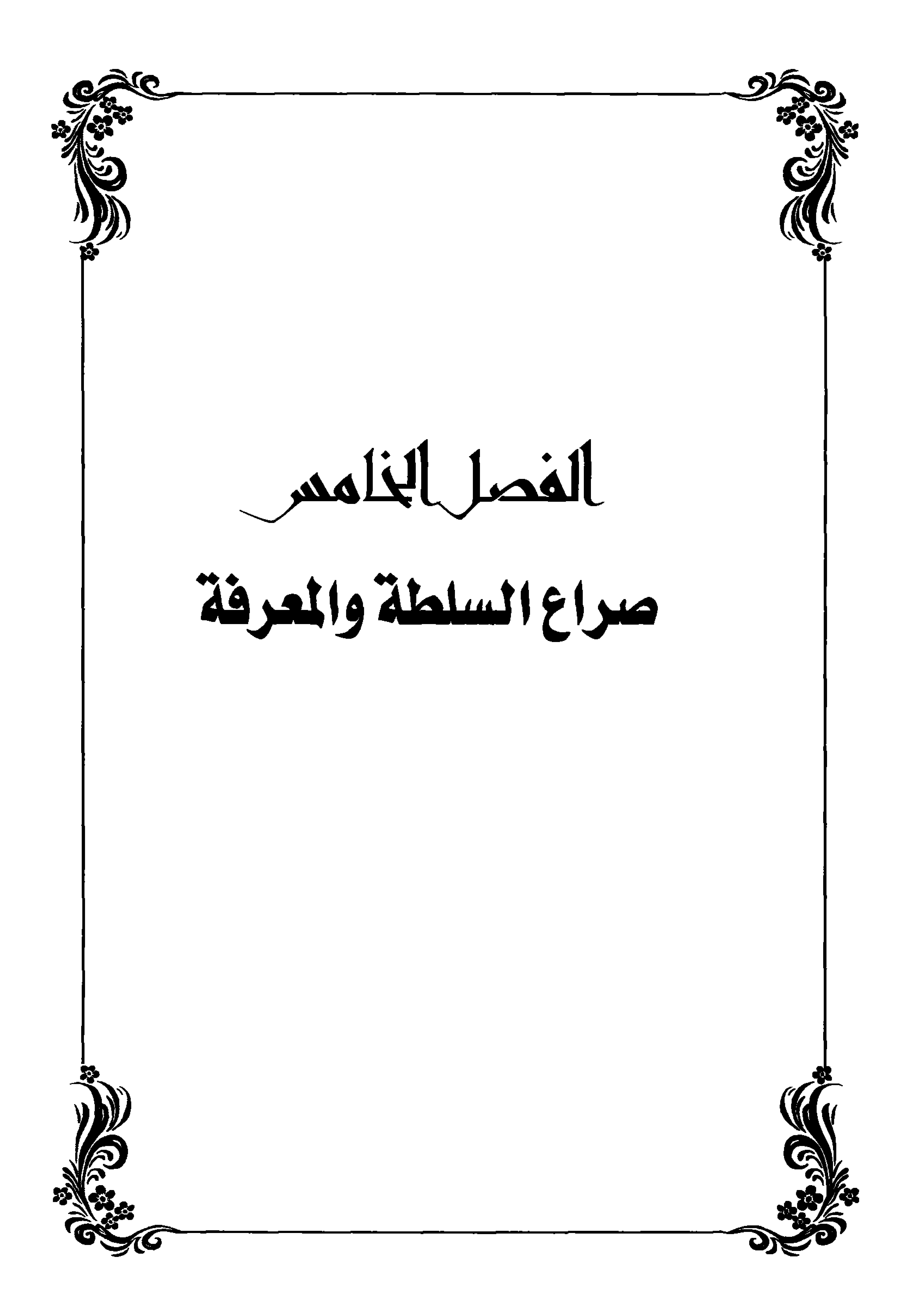
أن فضيلة العالم الجليل الشيخ محمد عبد الله الخطيب عضو مكتب الإرشاد في جماعة الإخوان المسلمين، أخبرني أنه زار الأستاذ سيدًا في الفترة القصيرة التي خرج فيها من السجن عام ٦٤، حيث أعيد إليه عام ٦٥ قبل استشهاده، وأنه في هذه الفترة زاره في بيته يوم جمعة فوجده عائدًا من صلاة الجمعة، وحكى لأحد الإخوان أنه **رأى الأستاذ سيدًا يصلي خلف أحد المسجونين الجنائيين في فترة محبسه.**

فهل يعقل أن الأستاذ يحكم بالكفر على عموم الأفراد والمجتمعات؟!!

وأضيف على ذلك **شهادة آخر من لقي الأستاذ سيدًا قبل استشهاده** وهو أحد كبار الإخوان وما يزال على قيد الحياة، حكى لي أنه يوم استشهاده ﷺ أخذوه من زنزانته في المستشفى «شفخانة السجن الحربي»، وكان هذا الأخ الكبير بجواره في زنزانة أخرى والباب مفتوح، فجاء الجندي، وقال للأستاذ سيد: إن عليه أن يأتي معه، فلما أخذ الأستاذ سيد يجهز الأدوية التي يتعاطاها أثناء ذلك، قال له العسكري: لست في حاجة إليها، فعلم الأستاذ أنه سينفذ فيه الحكم، فطلب من الأخ الكبير الذي يجاوره في الزنزانة الأخرى أن يبلغ فضيلة المرشد الأستاذ حسن الهضيبي **أنه على العهد، ولم يبدل ولم يغير، وأنه على بيعته ثابتٌ إن شاء الله حتى يلقى الله.**

ولا شك أن هذه اللحظات هي لحظات تمام الصدق والعبد مقبلٌ على لقاء ربه. اللهم تقبله في الشهداء، واحشرنا وإياه مع الصادقين ومع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

* * *



الفصل الخامس

صراع السلطة والمعرفة

صراع السلطة والمعرفة في المجتمع العربي

- «معالم في الطريق» نموذجًا-

د.رضوان جودت زيادة [1]

يخطئ من يعتبر أن مصادرة أو منع كتاب ما من التداول أو النشر يتعلق فقط بالنص الذي يقدمه هذا الكتاب أو تلك المطبوعة، ذلك أن هذا الأمر غالبًا ما يتداخل مع إرث تاريخي وصراعات سياسية واجتماعية وبنى ثقافية وحتى مصالح اقتصادية، فهل تشكل المعرفة المسلوبة من كل دعم مادي هذا الخطر السياسي والاجتماعي؟

لقد تمكن ميشيل فوكو في حفرياته أن يقرأ هذه العلاقة المشتبكة بين المعرفة والسلطة لا بوصفهما نقيضين وإنما بكونهما متحالفين، فالسلطة والمعرفة تقتضي إحداهما الأخرى، إذ لا توجد علاقة سلطة بدون تأسيس مناسب لحقل معرفة، ولا توجد معرفة لا تفترض ولا تقيم بذات الوقت علاقة سلطة[2]، وربما هذا ما يفسر كيف أن السلطة قد مارست الرقابة على المعرفة منذ زمن الشاعر الروماني أوفيد (٤٣ق.م – ١٧م) وأجبرت سقراط على تجرع السم بسبب آرائه[3]، لكن، هل المعرفة بريئة أم أنها تتلوث وتخضع لرغبات مريديها وأصحابها، لقد أوضح فوكو أن المثقفين بشكل عام يبررون خصوصيتهم عن

---

(١) كاتب وباحث سوري.

(٢) ميشيل فوكو: المراقبة والمعاقبة ولادة السجن، ترجمة د. علي مقلد (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠)

(٣) تستعرض موسوعة (الرقابة والأعمال المصادرة في العالم)المطبوعات من كتب ودوريات التي منعت من بداية نشأة الكتاب في العصور التاريخية القديمة وحتى العصر الحالي، وتظهر العلاقة المتوترة باستمرار بين السلطة ذات التكثيف الديني والثقافي والتاريخي وبين المعرفة التي غالبًا ما كانت توضع في خانة الإدانة والرفض، انظر: موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة في العالم، إعداد وتعريب رمسيس عوض (القاهرة: مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، ١٩٩٨).

طريق إظهار عالم المعرفة على أنه عالم الحقيقة والحرية، وأن عالم السلطة هو منبع الشر والخطيئة، لذلك فالمعرفة تمارس سلطتها عن طريق إرادتها الكامنة في خفاياها، إذ هي تمارس نوعًا من الضغط على الخطابات الأخرى من أجل إظهار زيفها وبنفس الوقت تجنح من أجل كسب المتخيل الجمعي الذي هو ساحة السلطة ومنبع وجودها.

فالصراع إذًا في حقيقته هو صراع في المجتمع ومن أجله، بغية اكتسابه، فالسلطة السياسية إنما تستمد شرعيتها من تعاقدها مع المجتمع وعندما ينأى المجتمع بشرائحه عن السلطة بوصفها لا تعبر عن آماله وطموحاته تهتز صورتها وتتآكل مظاهر شرعيتها بشكل يؤدي إلى انهيارها. أما المعرفة عند أصحابها فتكتسب سلطتها عبر حصرها لمفهوم الحقيقة فيها، فهي بذلك مالكة الحقيقة التي تحمل الخلاص للمجتمع، وهو ما يعطيها القدرة الأكبر على التجييش، فالحقيقة المجردة في وجه القوة الغاشمة، عندها يصبح المجتمع أمام خيارين لكل منها آلياته ووسائله في مخاطبته والتأثير فيه وبذلك نكون أمام حقلٍ من القوى التي تتصارع على السلطة، وكل قوة تتضمن علاقات سلطة تتوزع وتتنوع من الفاعلية والعنف إلى التلقائية وقابلية التأثير[1].

لكن السلطة السياسية المحتكر الشرعي لممارسة العنف - بحسب تعبير ماكس فيبر - لا تترك المجتمع الذي هو منشأ شرعيتها لنهب قوى أخرى كي تمتلكه وتسيره، إذ هي تمارس توظيفها الخاص لمنظورية الحقيقة، فضلًا عن أنها لا تتورع عن استخدام ميزتها الاحتكارية القائمة على استعمال العنف، وهنا تصبح الحقيقة ليست خارج السلطة، ولا مجردة منها وإنما تصبح ناتجة عن إلزامات مجتمعية عدة، ولما كان لكل مجتمع نظام حقيقة خاص به وسياسته للحقيقة، فإن أنماط الخطاب التي يستقبلها والآليات والحوافز والإجراءات التي تقرأ بها من أجل الحصول عليها وامتلاكها تختلف بحسب الوضع

(١) جيل دلوز، المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة سالم يفوت (بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧) ص٧٩.

الشرعي لكل من يدعي امتلاك الحقيقة أو يعمل من أجلها[1]، فمصادرة أو منع كتاب ما هو في جوهره صراع على الحقيقة، فالسلطة السياسية لم تكن طرفًا دائمًا في المنع أو المصادرة، إذ تدخلت فيها أحيانًا أخرى السلطة الدينية وتارة أخرى السلطة الاجتماعية ومرات عديدة السلطة الثقافية التي لا يتحدث أحدٌ عن احتكارها المستمر وممارسة سلطتها الدائمة من خلال تظهيرها لنوع وحيد من اللغة أو المعرفة أو الكتابة بحكم امتلاكها لوسائل الخطاب والإعلام وترذيلها المستمر للثقافة الشعبية مقابل الثقافة العليا ونبذ ثقافة المجتمع لأنها تمثل ثقافة العامة، ويزداد احتكارها هذا عن طريق تحالفها مع النخبة السياسية، فهي تمثل السلطة وإن كانت خارجها لأنها تتحدث لغتها، وتطلب نفس مطالبها مع اختلاف بسيط وهو رغبتها في تغيير أدوار اللاعبين وتعديل وظائفهم.

غير أننا سنركز على تتبع خفايا الصراع بين السلطة السياسية والمعرفة – الحقيقة التي يطرحها الإسلاميون والكائن في ثنايا نص (معالم في الطريق) لسيد قطب، الكتاب – الدلالة على الصراع من أجل امتلاك الرأسمال الرمزي من قبل القوى المتنازعة في المجتمع العربي، وكيف أفضى هذا الصراع في النهاية إلى مجتمع منهك غير قادر على الفعل والتأثير منزوع من أسلحة المقاومة وبين سلطة سياسية مهترأة الشرعية ولكن دون أن تعبأ بذلك مستمرة في احتكار الحقيقة الرمزية ورفض التفاوض عليها، هذا بالضبط هو وصف اللحظة الراهنة في سوسيولوجيا المجتمع العربي الذي يجب أن ترتكز فيه الكتابات من أجل التفكير بمستقبلٍ مختلف والبحث في إمكانيات تصور آفاق للمأزق العربي الراهن الممتنع على التغيير والمستعصي على النهضة.

السلطة والإسلام السياسي.. الصدام المبكر:

ربما كانت الفرضية التي انطلق منها جيل كيبل في قراءته لنشأة جماعة الأخوان

(١) انظر : الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠)ص٢١٢.

المسلمين في مصر، (أي بداية صعود الإسلام السياسي) القائمة على أن وفاة مؤسسها حسن البنا في فبراير ١٩٤٩ كان يمثل تراجيديا ذات أبعاد لا يمكن حصرها[١] كما وصفها ريتشارد ميتشل، ولذلك يرى كيبل أن ما تركه من إنتاج[٢] لم يكن كافيًا بكل حال من الأحوال لمعالجة المشاكل والتحديات التي واجهها الإخوان بعد موته، خاصة خلال معاناتهم لاضطهاد ١٩٥٤ بعد استلام عبد الناصر السلطة في مصر والذي باغتهم أيديولوجيًا، إذ ظلت أدبياتهم حتى عام ١٩٥٢ لا ترى سوى في الإنجليز العدو الأساس، وقد أضاف بعض الأخوان القصر والرأسمالية فيما بعد، فلم تكن لديهم إذًا الأدوات النظرية القادرة على تحليل هذا النظام الجديد الذي وجدوا أنفسهم في صراعٍ معه على أساسٍ من مقومات الإسلام[٣].

إن الصدام المبكر الذي عاشه الإخوان المسلمون كحركة سياسية فرض ثقله على أدبياتهم فيما بعد، وبرز حاضرًا في نصوصهم مما جعله يتضخم في بعض الأحيان لينتج نوعًا خاصًا من الأدب، أطلق عليه أدب المعتقل[٤]، وسيكون تربة مناسبة لإصدار الكثير من الأحكام الحدّية والقصوى لوصف السلطة السياسية الحاكمة، وكما لاحظ تيموتي ميتشل أن الصنعة الأدبية ستطغى على النص المكتوب المتماهي مع لغة الإسلام التي يجب عليها أن تعطي جوابًا شافيًا على سلطة الدولة القمعية، فالمذكرات المكتوبة لا تستهدف إلا مجرد إبراز وصف مطول لحالة الاستجواب والتعذيب بقدر ما تطمح إلى إظهار الحكم

(١) ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، ترجمة محمود أبو السعود (القاهرة: [د.م]، ١٩٧٩).

(٢) ينحصر إنتاج حسن البنا في عدد قليل جدًا من الكتب كتفسيره لسورة الفاتحة ومجموعة محاضراته التي كان يلقيها في مراكز الدعوة التي أنشأها الأخوان المسلمون في أنحاء متفرقة من الريف المصري، ولعل كتابه الأهم هو مذكراته التي حملت عنوان (مذكرات الدعوة والداعية) والذي ضمنّه الكثير من آرائه ومواقفه السياسية والدينية والفكرية.

(٣) جيل كيبل، النبي والفرعون، ترجمة أحمد خضر (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٨) ص٢٢.

(٤) انظر : تيموني ميتشل، تجربة الاعتقال في الخطاب الاسلامي، ضمن كتاب (المثقف والمناضل في الإسلام المعاصر) إعداد جيل كيبل ويان ريشار، ترجمة بسام حجار (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٤).

الإسلامي الذي يجب أن يبرز ليواجه الجاهلية، وهذا ما جعل السجن يصبح لدى الإسلاميين بمثابة المحنة التي تثبت صدق التوجه الذي عليه الحركة، وهو لذلك يصبح نعمةً أكثر من كونه نقمة[1]، لكننا إذا عدنا إلى ما قبل لحظة الصدام المبكر لوجدنا أن التطور الطبيعي لحركة الإخوان المسلمين وعلى يد زعيمها ومرشدها الروحي حسن البنا كان تطورًا سياسيًا سلميًا، فقد شارك الإخوان في الانتخابات النيابية مما يعكس قبولهم بمبدأ التعددية السياسية، كما تظهر مواقفه وكتاباته القليلة اندماجه في الهمِّ الوطني وقضاياه القائمة على التحرر من الاستعمار وتحقيق الاستقلال وإنجاز الازدهار الصناعي والاقتصادي[2]، إلا أن تناقض مواقف البنا بين اعتبار حركته جماعة دعوية تحمل الإسلام إلى العالم وبين حصرها كحركة سياسية داخل السياق المصري جعله يقف مواقف متشجنة ومتحاملة على الحياة الحزبية والأحزاب داخل مصر في تلك الفترة مما يكشف غياب الوعي المتكامل بالنظرية السياسية لديه، كما أن تأسيسه للحركة على أساس الزعيم المرشد ترك غيابًا بعد وفاته إذ لا نلحظ كوادر قيادية تتمتع بأهلية القيادة من بعده إن على المستوى الفكري أو على الصعيد الحركي والسياسي، إلا أن النقد الرئيس الذي يتوجه إلى البنا يتعلق بضعف إشرافه على النظام الخاص، أي الجناح العسكري للجماعة الذي اعتمد بداية على فرق الرحلات والجوالة وأنشئ برغبة البنا نفسه من أجل أن تواجه الجماعة مسؤوليتها إزاء الانجليز والصهاينة في فلسطين كما عبر هو نفسه، إلا أن هذا الجهاز تطور إلى أشبه بنظام خاص تورط فيما بعد في عدة عمليات اغتيال داخل مصر نفسها، وأصبح بمثابة الذراع العسكري أو أداة الردع من أجل تخويف أعداء الإخوان في داخل مصر [3]، ومما زاد من حرج الإخوان فيما يتعلق بجناحهم العسكري هو وصول قيادة لا مسؤولة

---

(١) خالص جلبي، ظاهرة المحنة محاولة لدراسة سنية (عمان: دار البشير، ط٢، ١٩٨٩).

(٢) للمزيد حول ذلك راجع: محمد جمال باروت، موسوعة الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية (دمشق: المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، ط٢، ٢٠٠٠)ج١،ص٤٣وما بعدها.

(٣) د. كمال حامد مغيث، الحركة الإسلامية في مصر في العصر الحديث (القاهرة: مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، ط١،١٩٩٧) ص١٠٢ وما بعدها.

وغير واعية ولا تحكم تصرفاتها رؤية تاريخية وموضوعية علمية[1]، أي لا تأخذ في الحسبان الأداء السياسي بقدر ما ترى بعيون الربح والخسارة في الضحايا، وإذا كان التأريخ لحركة الإخوان يخرج بنا عن الهدف من البحث فإن تسليط الضوء على بداية النشأة السياسية للحركة يبرز التناقضات التي ولدت داخل الحركة نفسها والتي ستتضخم فيها بعد لتأخذ مسارات متعددة

فوفاة المؤسس حسن البنا سيترك فراغًا يزيد حجمه طبيعة المتغيرات السياسية التي ستمر بها مصر في تلك الفترة، ولما كان البنا قد أنشأ الحركة بشكل تراتبي وهرمي فإن وفاة رأس الهرم لن يؤثر على الكادر السياسي المحيط به فحسب، بل ستهتز القاعدة نفسها وستصبح مهمة خلفه أشبه بإعادة الهرم من جديد، ولما كان الهضيبي لا يمتلك تأثيرًا كاريزميًا، بل إن اختياره كان مجرد حلٍ وسط كي تخرج الجماعة من ورطتها، فإن الهضيبي وبما عرف عنه من توفيقية وبرود لم يستطع أن يمتص الغضب العارم الذي اجتاح أفراد جماعته بعد لحظة الصدام مع السلطة، إذ وجد أفراد الجماعة أنفسهم داخل أقبية السجون فجأة، هم الذين حلموا مرارًا وتكرارًا بإعادة الخلافة الإسلامية إلى زمن عزتها وجمع كلمة العالم الإسلامي الذي تفرق شيعًا، وما بين الفجوة التي تشكلت والواقع الذي حدث لن يستطيع أحد أن يردمها نظريًا على الأقل سوى سيد قطب نفسه، فقد أعاد الاعتبار إلى الحق والباطل، وهو ما يعني وفق منظورية الحقيقة وسياستها نبذ الآخر ورفضه ووسمه بالجاهلية ووسمه الأنا والذات بالصفاء والفرادة[2].

---

(١) د. عبد الله فهد النفيسي، الإخوان المسلمون في مصر: التجربة والخطأ، ضمن كتاب (الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية أوراق في النقد الذاتي) تحرير وتقديم د. عبد الله النفيسي (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩) ص٢١٩.

(٢) احتوى كتاب (معالم في الطريق) على فصل خاص عنوانه (جيل قرآني فريد) وفيه يصف العقبات التي تعرض لها صحابة الرسول الكريم ومقارنًا (الصفوة) كما أسماها والتي تعيش في المجتمع الجاهلي الحالي بما عاشه الصحابة ومطالبًا إياها بالاستعلاء على هذا المجتمع وقيمه وتصوراته، ذلك أننا نفترق وإياه تمامًا وحين نسايره خطوة واحدة نكون قد فقدنا المنهج كله نفقد الطريق، انظر سيد قطب، معالم في الطريق ([د.م] [د.ن]، ١٩٦٨)، ص ١٩.

لقد أعطى قطب من خلال كتاباته المتأخرة، وحصرًا (معالم في الطريق)، الثقة إلى نفوس الجماعة التي اهتزت، ورسم لها معالم الطريق الذي أصبح جليًا. فالمحنة كما تطلق عليها الأدبيات الأخوانية هي جزء من النصر الذي وعدها به الله، يقول قطب في ذلك (سنلقي في ذلك عنتًا ومشقة، وستفرض علينا تضحيات باهظة، ولكننا لسنا مخيرين إذا نحن شئنا أن نسلك طريق الجيل الأول الذي أقرَّ به الله به منهجه الإلهي، ونصره على نهج الجاهلية[1]).

من طفل القرية إلى منقذ الأمة :

تكشف الحياة الاجتماعية التي عاشها قطب في طفولته عن مستقبل مغاير لما انتهى إليه واقعًا وحقيقة، فطفل قرية (موشا) الأسيوطية المولود عام ١٩٠٦ نشأ ضمن بيئة ريفية فلاحية، وانفتح على الأدب واتصل برواد عصره من الأدباء كطه حسين وعباس محمود العقاد وغيرهم، بل إنه صاغ سيرته الذاتية (طفل من القرية) على هيئة (أيام) طه حسين وأهداها إليه[2].

لقد درس قطب في قريته مراحله الأولى ثم انتقل إلى القاهرة عام ١٩٢١ بهدف استكمال تعليمه، واشتغل مبكرًا في الصحافة كي يستطيع الانفاق على نفسه واستكمال دراسته، لقد كان اهتمامه منصبًا على الأدب فكتب المقالة والقصة والقصيدة وقد تركزت كتاباته على الإصلاح الاجتماعي ولاسيما مقالاته المنتظمة في (الرسالة)، ولا نلحظ حضورًا للمقال السياسي لديه، كما أنه عمل رئيس تحريرٍ لعددٍ من المجلات قصيرة العمر، هذا بالإضافة إلى عمله الثابت في وزارة المعارف التي أرسلته في بعثة وظيفية إلى الولايات المتحدة أواخر عام ١٩٤٨ لدراسة أصول المناهج والتربية، وقد كانت هذه البعثة بمثابة

(١) سيد قطب، معالم في الطريق[م،س]ص١٩.

(٢) للاطلاع على سيرة قطب الذاتية يمكن مراجعة العديد من الكتب، انظر مثلًا: محمد توفيق بركات، سيد قطب خلاصة حياته ومنهجه في الحركة (بيروت: دار التوحيد، [د،ت]) وعادل حمودة، سيد قطب من القرية إلى المشنقة تحقيق وثائقي (القاهرة : سينا للنشر، ١٩٨٧).

الفترة المفصلية بين زمنين عاشهما قطب. سيد قطب الأديب الذي ما برح يفتش عن دور (مهمة الشاعر في الحياة) [1] مطالبًا إياه بأن يكون ذا شخصية واضحة يعتز بها ولا يفرط فيها، وسيد قطب الذي أصبح بعد عودته من الولايات المتحدة ناقمًا على الحياة التي يقضيها معظم الناس في قضاء المصالح الرخيصة والسعي وراء الشهرة، إلا أنه من الضروري أن نذكر أن علاقة قطب بالفكر الإسلامي ابتدأت قبل رحلته إلى الولايات المتحدة ولاسيما أنه أنجز عددًا من الكتب تمحورت حول (التصوير الفني في القرآن) [2] وانتهت بكتابه (العدالة الاجتماعية في الإسلام) [3] الذي أراد منه أن يوفق بين المذهب الاشتراكي الذي وجد أنه يحقق عدالة اجتماعية لا تكفلها الرأسمالية وبين الإسلام الذي يحض على المساواة والعدل.

إلا أن سيد قطب يبقى رغم ذلك مفكرًا ليبراليًا أكثر منه إسلاميًا، إذ هو يدرك الوظيفة الاجتماعية للدين وقدرته على الحشد والتعبئة لذلك يرغب في استثمار هذا المخزون الرمزي مع انفتاحه على التجارب الماركسية والليبرالية، إذ هو اقتنع بالبعد الاجتماعي الذي تدعو إليه الاشتراكية ولاسيما أن ذلك كان يمثل المناخ الذي سيطر على النخبة المصرية والعربية في تلك الفترة، لكن كيف تحول قطب إلى مفكر إسلامي يحض على الانغلاق والانعزال على المجتمع الذي يصفه بالجاهلية بعد أن كان داعيًا للانفتاح في مناخاته الإنسانية المتعددة.

يقرأ الكثير من الباحثين في رحلته إلى الولايات المتحدة نقطة فاصلة بين رؤيتين للعالم عاشهما قطب، حيث إنه اطلع على التجربة الأمريكية التي تمثل عالمًا جديدًا ومختلفًا لكنه اقتصر في قراءته لها على البعد الأخلاقي الكامن فيها، سواء في سياستها المتناقضة مع مبادئها أو في الحياة التي يعيشها البشر هناك، والتي وصفها بأنها حياة خاوية بل وصل

---

(١) يعتبر كتاب (مهمة الشاعر في الحياة) من كتب سيد قطب المبكرة التي تجلت فيها نزعته الأدبية.

(٢) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن (القاهرة : دار الشروق ١٩٩٥) وأيضًا، انظر: سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٥).

(٣) سيد قطب ، العدالة الاجتماعية في الإسلام (القاهرة : دار الكتاب العربي، ١٩٤٩).

أحيانًا إلى وصف الثقافة الأمريكية بأنها ثقافة بدائية في كل شيء، في الأفكار والمعارف وفي الآداب والفنون وفي أذواق الطعام والشراب والجنس والشهوات [(١)].

وتكشف قصائده المتعددة التي أرسلها من أمريكا ونشرها في الصحف المصرية عن اغتراب حقيقي عاشه قطب في أمريكا وولّد لديه إحساسًا مكبوتًا بالتفوق والتميز الإسلامي على الحضارة الغربية بأجمعها، وأمريكا التي تمثل أفضل ما فيها، وهو ما ظهر فيما بعد بمصطلحات الصفوة والعزلة و«النظرة من علٍ» إلى المجتمعات الجاهلية، ولم يكتف قطب بذلك بل رسخ ما يسمى بالعداء التاريخي لأمريكا، إذ كتب في أحد مقالاته (عدونا الأول: الرجل الأبيض) مطالبًا العالم العربي والإسلامي بالحذر من الرجل الأبيض أينما كان، إذ هو يرمز إلى الاستعمار الأوربي والأمريكي وليس هناك أي فرق بينهما، ويمكن القول إن النقد المبكر الذي وجهه قطب إلى أمريكا كان فاتحة موجة عداء جذرية بين الإسلاميين والولايات المتحدة، دون محاولة تغيير النظر إليها بوصفها مجتمعًا متعدد الأعراق والديانات والاثنيات، أي بوصفها مجتمعًا مفتوحًا بحسب تعبير كارل بوبر، وإنما إعادة استنساخ التراث الفقهي التقليدي عن طريق وصفها بدار الكفر، وهو المنطق نفسه الذي نجده حاضرًا في خطاب تنظيم القاعدة بعد التفجيرات الكارثية التي حدثت في واشنطن ونيويورك في ١١ سبتمبر.

وإذا كان التفسير النفسي لموقف قطب يلعب دورًا كاشفًا في إظهار مدى التحول العميق في الوعي، إلا أن هذا التحول لم يدفع به إلى أحضان الشيوعية مثلًا، بل عاد أكثر عدائية للشيوعية وواضعًا إياها بالمرتبة نفسها مع الرأسمالية الأمريكية [(٢)]، غير أن ما يجب

---

(١) انظر: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب (دمشق: دار القلم، ط١٩٩٥،٧)ص٣٥.

(٢) يحاول شريف يونس في كتابه (سيد قطب والأصولية الإسلامية) (القاهرة: دار طيبة، ١٩٩٥) أن يظهر أن عداء قطب لأمريكا كان ناتجًا عن فشله في تحقيق إنجازٍ في الحقل الأدبي أو عدم قدرته على التأثير في الثقافة الأمريكية، ويظهر هذا التعليل سذاجة في فهم سيد قطب نفسه الذي لم يكن متوجهًا للأمريكي ولا يعنيه بأي حال من الأحوال بقدر ما يرغب في إحداث تغيير في علاقة العالم الإسلامي فيما يتعلق بالثقافة الأمريكية.

ذكره أن زيارة سيد قطب لأمريكا جعلته يضفي على خطابه بُعدًا عالميًا، وهذا ما ظهر في كتابيه (السلام العالمي والإسلام)[1] الذي سعى من خلاله إلى إبراز حقيقة هي عنده كالمسلمة أو البداهة وتتعلق بأن الإسلام يحقق عدالة أشمل وأكمل من كل ما تملك تحقيقه المذاهب الاجتماعية الأخرى، ولما كان العالم اليوم معنيًا بمشكلة السلام العالمي التي تواجه البشرية، فإن الإسلام قادرٌ على إيجاد الحلول المثلى لها، أما الكتاب الآخر فهو (الإسلام ومشكلات الحضارة)[2] الذي ينطلق فيه من الهاجس نفسه الذي برز في كتابه السابق الذكر، وهي قدرة الإسلام على إيجاد الحلول الشافية لجميع المشكلات التي تعاني منها البشرية ولاسيما الأزمة الوجودية التي يعيشها الإنسان وطبيعة النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي يخضع له، ونراه يتكيء في تشريح الحضارة المعاصرة بشكل كبير على كتاب ألكسيس كاريل (الإنسان ذلك المجهول) لينتهي إلى أن الحضارة الغربية السائدة حاليًا هي حضارة لا تلائم الإنسان طالما أنها مضادة لفطرته، وهو لذلك يرسم للحضارة طريق خلاصها عن طريق تبنيها للإسلام منهجًا وعقيدة، فالإسلام اليوم هو ضرورة إنسانية وحتمية فطرية، وحتمية الميلاد آتية لا محالة[3].

يبدو جليًا أن قطب يستنسخ هنا لغة الحتمية من المثقفين الماركسيين الذين أطنبوا في الحديث عن حتمية الحل الاشتراكي، إلا أن قطب هنا يوجه خطابه إلى متلقين عربًا ومسلمين أكثر من رغبته في إيصال كلامه إلى الرأي العام الغربي، وغايته من ذلك إظهار البعد الخلاصي لجماعة الأخوان المسلمين التي تحمل على كتفيها - حسب قطب - النجاة للبشرية جمعاء، لذلك فإن عليها أن تتحمل مسؤولياتها بالمستوى نفسه الذي تفرض عليه تحدياتها، وبنفس الوقت يخلق لديها هاجس التمركز الذاتي النرجسي والصفوي الذي

(١) سيد قطب، السلام العالمي والإسلام (القاهرة: دار الشروق،١٩٩٥) وقد صدرت الطبعة الأولى منه في عام ١٩٥١.

(٢)سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة (القاهرة:دار الشروق،١٩٩٥) وقد صدرت الطبعة الأولى منه في عام ١٩٦٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٨.

تشعر بعده أن العالم أجمع يعيش في جاهلية ولا يشعر بها، لذلك يتخبط فيها ويحارب من يدعوه إلى التخلص منها، وإزاء ذلك على هذه الجماعة أو العصبة - كما يطلق عليها - أن تنظر باستعلاء إلى هذا العالم المتخبط الذي سيعود حتمًا إلى دعوتها ونبوءتها، ويكفي أن نقرأ نهاية كتابه (هذا الدين) [1] الذي يكشف عنوانه عن أيديولوجيا التمحور على الذات ورفض الآخر، إذ يصف البشرية (بأنها ما تزال في هياجها الحيواني، وفي خمارها الجنوني، وفي نشوتها المعربدة.. وقد ينقضي هذا القرن كله قبل أن تتفتح العيون فعلًا وتصحو الأدمغة من هذا الخمار وتكف البشرية أو تفكر، في أن تكف عن هذا الدوار) كما أن (البشرية اليوم تعاني من التميع والاستهتار والاستخفاف بكل عقيدة وكل رأي وكل مذهب، كما تعاني من نفاق القلب وكيد الضعف وخبث الاحتيال) وما الخلاص من ذلك؟ يجيب قطب بأنه (أمر العصبة المؤمنة التي تضع يدها في يد الله، ثم تمضي في الطريق، وعد الله لها هو واقعها الذي لا واقع غيره، ومرضاة الله هي هدفها الأول وهدفها الأخير، وهذه العصبة هي التي تجري بها سنة الله في تحقيق منهج الله، وهي التي تنفض ركام الجاهلية عن الفطرة، وهي التي تمثل فيها قدر الله في أن تعلو كلمته في الأرض ويتسلم منهجه الزمام).

وإذا كان قطب قد عاد من أمريكا شاهدًا على مجتمعها الجاهلي، فإن اصطدام جماعة الإخوان المسلمين بالسلطة آنذاك انتهى بهم إلى السجن والتعذيب ليصبح شاهدًا مرة أخرى، ولكن على مجتمعه الجاهلي هذه المرة، وهو ما جعل خطابه يأخذ سمتًا حادًا ويحمل في طياته الكثير من الأحكام القيمية المطلقة، فقد رجع قطب وهو يحمل كل رغبة عارمة في تحقيق شيء أكبر من الكتابة[2]، ولقد راوده الحلم في تغيير الأوضاع الراكدة وبعث الأمة الإسلامية من جديد، لقد طال ليل الظلم وطال ارتقابنا للفجر الجديد، كما أنهى

---

(١) سيد قطب، هذا الدين ([د،م]:[د،ن]،١٩٧٠)ص٩٢، وانظر أيضاً: سيد قطب المستقبل لهذا الدين (القاهرة:دار الشروق،١٩٩٥).

(٢) انظر : محمد حافظ دياب، سيد قطب الخطاب والأيديولوجيا (بيروت: دار الطليعة،ط٢،١٩٨٨) ص٧١.

إحدى مقالاته المعنونة بـ (نار..ودم) في مجلة الرسالة، لذلك بدا جذلًا وفرحًا بثورة الضباط الأحرار في ٢٣يوليو ١٩٥٢، إذ حملت معها بواكير النصر الذي لاح أفقه كما بشر به وانتظره طويلًا وبنفس السياق بدا مهجوسًا بالتنظير الفكري لمستقبل الأمة الإسلامية شاحذًا قلمه، إذ تعد سنينه تلك من أغزرها إنتاجًا وبدأ ينظر إلى الإسلام بوصفه قطب الحضارة القادم، فراهن على نهاية الرأسمالية وفشلها بعد نجاح الشيوعية في إسقاطها[١]، ونظّر بكثير من الجدية والدقة معًا لخصوصية الأمة الإسلامية وتصورها الذي سيحمل الخلاص للبشرية[٢]، إلا أن الأمور لم تسر كما تمنى قطب ورغب، فعلى الرغم من اختياره مستشارًا لمجلس قيادة الثورة للشؤون الثقافية إلا أنه بدا متشككًا من نوايا الضباط ولاسيما إخلاصهم لمشروعه الإسلامي، لذلك وجد في الإخوان المسلمين ملجأ حنينيًا[٣] يحقق هدفه الذي طالما سعى إليه، وبدأ يعقد اجتماعاته معهم حتى عيّن مشرفًا على قسم نشر الدعوة التابع لمكتب الإرشاد ورئيسًا لتحرير جريدة الإخوان المسلمين التي يصدرها المكتب، إلا أن قطب استشعر أن فقدان الإخوان لمرشدهم الروحي حسن البنا خلّف وراءه فراغًا فكريًا لم يستطع من أتى بعده أن يملأه أو حتى أن يحقق الاستمرارية التواصلية التي يفترضها مثل هذا النوع من الحركات الدعوية، غير أن لحظة الصدام المبكر التي كنا قد تحدثنا عنها قد حان وقتها وبدأت الأزمة بين عبد الناصر وجماعة الإخوان

(١) انظر: سيد قطب، معركة الإسلام والرأسمالية (القاهرة:دار الشروق،١٩٩٥) وقد صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٩٥١.

(٢) انظر: سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته (القاهرة :دار إحياء الكتب العربية،١٩٦٢).

(٣) يكاد يجمع غالبية الباحثين على أن انضمام سيد قطب للإخوان المسلمين كان متأخرًا حتى بعد عودته من أمريكا أي في عام ١٩٥٣، وعلى الرغم من أن آخرين يصرون على أن انضمام قطب كان قبل سفره إلى أمريكا، إلا أن صلاح عبد الفتاح الخالدي الذي يعد متخصصًا بالتأريخ لحياة سيد قطب الفكرية والسياسية يرى أن انضمامه إلى الإخوان المسلمين كان في مطلع عام ١٩٥٣، هذا رغم حماسه الدائم للتأكيد على علاقة سيد قطب المبكرة مع الإخوان واعتباره جزءًا فكريًا منهم إلا أنه تنظيميًا تأخر في الانتساب إليهم، انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد (دمشق:دار القلم، بيروت: الدار الشامية،ط١٩٩١،٢).

المسلمين بعد حادثة المنشية في ٢٦اكتوبر ١٩٥٤، واعتقل على إثرها سيد قطب وعدد من رفاقه مما جعل للكتابة من داخل السجن مذاقًا خاصًا عرف سيد قطب كيف يضفيه على أسلوبه وكتاباته، ولاسيما أنه لم يعد يفكر بأزمته الشخصية كي يخرج منها فقد استشعر أن أزمته تلك دليل على صدق مقولاته التي ابتدأها، لذلك أعطى لفكره العنان ليبحث عن منفذٍ يحقق من خلاله للأمة عزتها وقيوميتها، ذلك أنه أصبح منذ الآن «منقذ الأمة» وحامل خلاصها.

معالم السجن وطريق التغيير:

ابتدأ قطب بكتابة صفحات «معالمه» أثناء اعتقاله[1] ورغب أن تكون فصوله تلك جزءًا من البرنامج التثقيفي للإخوان المسلمين، ورغم أن فصول الكتاب تشكل جزءً من تفسيره المسمى (في ظلال القرآن) إلا أنه أدخل فصولًا جديدة بشكل جعل الكتاب يأخذ منظومة فكرية متكاملة سنحاول قراءة معالمها ومفاتيحها بشكل يكشف عن الخطاب القطبي الذي يعد نموذجًا متكاملًا لاحتكار الحقيقة وتوظيفها، وبنفس الوقت يعد نصًا معلمًا للصراع الخفي الثاوي أحيانًا والظاهر أحيانًا أخرى بين السلطة والمعرفة.

بعد انتهاء فصول الكتاب وتداوله بين أعضاء جماعة الأخوان المسلمين كان مرشد الجماعة حسن الهضيبي أول من تنبأ بخطورة وعنف الأفكار التي يحتويها الكتاب مما جعله يتصدى له بكتابٍ يكشف عنوانه عن وصول الرسالة التي أراد قطب إيصالها لقراء كتابه، فالهضيبي أعلن أن وظيفة الجماعة أن تكون (دعاة لا قضاة)[2]

(١) اعتقل سيد قطب للمرة الأولى في ٢٨فبراير أثناء تنظيم الإخوان لمظاهرة حاشدة تطالب بعودة محمد نجيب إلى الرئاسة، إلا أنه أفرج عنه في شهر مارس، ثم أعيد اعتقاله في ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤ مع حادثة المنشية وقد عانى أثناء فترة اعتقاله كغيره من التعذيب الذي كانت تمارسه المخابرات المصرية آنذاك وبقي في السجن إلى أن أفرج عنه عام ١٩٦٤أي بعد عشر سنوات تقريبًا.

(٢) حسن الهضيبي، دعاة لا قضاة (بيروت:دار السلام، ط١٩٧٨،٢)

مستنكرًا إطلاق لفظ «الجاهلية» على المجتمع المسلم، ومفسرًا «الحاكمية» التي رفع لواءها قطب بأنها (لم ترد بأية آية من الذكر الحكيم أو أحاديث الرسول الكريم إلا أنها مما وصفه الناس واستقل في أذهانهم على أنه الأصل وغاب عنهم أن مراد واضعي المصطلح لم يكن غير التعبير عن معانٍ عامة أرادوا إبرازها وجذب انتباه الناس إلى أهميتها، دون أن يقصدوا وضع أحكام فقهية، خاصة التفصيلية منها) [(١)] فالهضيبي يرفض إذًا التسييس والتحريف الذي تعرض له مصطلح «الحاكمية» على يدي أبو الأعلى المودودي أولًا ولحقه سيد قطب فيما بعد، فيقول عن تعريف المودودي بأنه (فهم خاطىء لم يقله قائل، كما أن عقولنا ليست حاكمة على الله بشيء، ولا يجوز لمسلم أن يجعل من عقله حدًا لسلطان الله تعالى.. ومن يجعل عقله حاكمًا على الله عز وجل ومشيئته فهو بذلك يقع في المحظور إذ يجعل من نفسه ندًا وقيّمًا على الله عز وجل) [(٢)] كما أنه يتحفظ على وصف المجتمعات العربية والإسلامية بأنها «مجتمعات جاهلية» لأنها تخضع لغير حكم الله، إذ يرى في هذا الوصف نفسه الذي اعتاد قطب على استخدامه وتوظيفه ايديولوجيًا في الكثير من كتبه[(٣)]، لا يصح أو لا ينطبق شرعيًا، ذلك أن «الجاهلية» هي وصفٌ لفترة تاريخية فلا يصح استحضار المصطلح لإطلاق

---

(١) المرجع نفسه، ص٨٣-٨٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٩٥.

(٣) انظر: سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي ([د،م]:[د،ن]، ط١٩٦٩،١) وقد حوّل أخوه محمد قطب مصطلح «الجاهلية» إلى شعار تأسيسي عن طريق التنظير له في عدد من الكتب، انظر: محمد قطب، جاهلية القرن العشرين (القاهرة:دار الشروق،١٩٨٨) وأيضًا :محمد قطب ، هل نحن مسلمون ([د،م]:[د،ن]،[د،ت]) ونلحظ أن كثيرًا من كتب سيد قطب وأخيه محمد قطب قد أعيد طباعتها عن طريق النسخ والتصوير وعدم احترام حقوق النشر أي بدون ذكر أي مكان للنشر أو دار النشر أو حتى تاريخ النشر أحيانًا، مما يدل على رواجها لدى المجتمعات العربية بشكل كبير ومنعها من قبل السلطات الرسمية، إذ لم تجرؤ أي دار نشر على تحمل تبعات إعادة طباعة كل من كتب سيد قطب ومحمد قطب، إلى أن أخذت حقوقها دار الشروق بالقاهرة وفي وقت متأخر جدًا في بداية التسعينات، وهذا يعتبر فصلًا جديدًا ومختلفًا من فصول مصادرة الكتاب ومنعه في الوطن العربي.

أحكامٍ قيمية وفقهية على المجتمعات العربية في العصر الراهن، وربما هذا ما يدفعنا إلى الدخول إلى نص الكتاب لتلمس نسيجه السياسي المتراكب مع الفقهي، والمتداخل معه، إذ يعتمد سيد قطب كثيرًا على الاستخدام العبر تاريخي (TRANS-HISTORICAL) للمصطلحات كما فعل مع «الجاهلية» و«الحاكمية» التي كان لها معنى مغاير تمامًا أثناء فترة نزول النص القرآني، إلا أن أبو الأعلى المودودي مؤسس «الجماعة الإسلامية» في الهند ثم في باكستان بعد استقلالها عن الهند، أضفى على الكلمة معنى جديدًا، إذ أصبحت تعني لديه السيادة المطلقة لله بموازاة مفهوم السيادة (SOVREIGNTY) في علم السياسة، عندها تصبح الحاكمية (حكم الله وحده، وليس لأحد –وإن كان نبيًا– أن يأمر وينهي من غير أن يكون له سلطان من الله) [(١)] وهو وفقًا لذلك يعيد تعريف المصطلحات الأربعة كما أطلق عليها وهي (الإله والرب والعبادة والدين) [(٢)] بشكل يضعها ضمن منظومة متكاملة إطارها الكلي هو مفهوم «الحاكمية»، مما دفع سيد قطب إلى إعادة إنتاجها ضمن كتابه (معالم في الطريق) بالتوازي مع مصطلح «الجاهلية» بحيث انتهت نظرية الحاكمية لدى قطب إلى أحكام «تكفيرية» استدعت مرشد الجماعة أولًا إلى الرد عليه كما لحظنا ذلك، فالمجتمعات العربية والمسلمة هي مجتمعات «جاهلية» لا لأنها تعتقد بألوهية أحد غير الله، أو لأنها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضًا، وإنما لأنها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها، فهي تدين بحاكمية غير الله، وتتلقى من هذه الحاكمية نظامها

(١) محمد جمال باروت، نظرية الحاكمية في الخطاب الإسلامي المعاصر، ضمن موسوعة (الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية) تحرير فيصل دراج وجمال باروت (دمشق:المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، ط٢٠٠٠،٢)ج٢،ص٨، وانظر أيضًا : أبو الأعلى المودودي، الخلافة والملك ،تعريب أحمد إدريس (الكويت:دار القلم ،ط١٩٧٨،١)ص١٣.

(٢) أبو الأعلى المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، ترجمة محمد كاظم سابق (الكويت:دار القلم، ١٩٦٩) وانظر أيضًا: أبو الأعلى االمودودي ، مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة (الكويت :دار القلم، ط١٩٩٤،٥).

وشرائعها وقيمها، وموازينها وعاداتها وتقاليدها، وكل مقومات حياتها تقريبًا[1].

لقد اتكأ قطب إذًا في مفهومه عن «الحاكمية» على أبو الأعلى الودودي غاضًا النظر عن الظرف التاريخي والاجتماعي الذي استولد هذا المفهوم مع المودودي، ولكن ليعطيه أبعادًا جديدة مع الظرف التاريخي والسياسي الذي خضع له، فسنوات الاعتقال والتعذيب التي تعرضت لها «الطليعة الإسلامية» - كما يسميها قطب - استدعت منه إعادة إنتاج خطاب تحريضي وتعبوي يقطع مع مفاهيم العدالة الاجتماعية وغيرها من المفاهيم التي تعكس بعدًا توفيقيًا وتصالحيًا مع الواقع والخطاب السياسي الموجود آنذاك، ويؤسس خطابًا يستند على عدد من الكلمات المفاتيح (key word) «كالجاهلية» و«الحاكمية» و«المفاصلة» و«الاستعلاء».

ولا يحضر مفهوما «المفاصلة» و«الاستعلاء» إلا بوصفهما آليات التنفيذ الراهنة التي تمتلكها «الطليعة» في الوقت الحالي لتحقيق «الحاكمية». «فالمفاصلة» التي تعني أبعد من المقاطعة، تتطلب رفضًا نفسيًا ووجوديًا للمجتمع الجاهلي، وطهرانية ونقاء ذاتيين من أجل ضمان البعد عن التلوث الفكري أو النفسي أو المادي الذي يعيشه «المجتمع الجاهلي» واستمراء العيش فيه، لكن هذه العزلة الاختيارية ليست نتيجة خوف من هذا المجتمع بقدر ما هي حزنٌ وأسفٌ على حالته، وهذا ما يولد معنى «الاستعلاء» الذي يجب أن (يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره، إنها حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء، الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان)[2]. والاستعلاء هذا لا يتهاوى أمام قوة باغية ولا عرف اجتماعي ولا تشريع باطل ولا وضع مقبول عند الناس دون أن يكون

---

(١) سيد قطب : معالم في الطريق [م،س]، ص ٩١-٩٢، وللمزيد حول نظرية الحاكمية في رؤية تاريخية مقارنة، راجع: هشام أحمد عوض جعفر، الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية رؤية معرفية (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،ط١٩٩٥، ٢).

(٢) سيد قطب، معالم على الطريق [م،س]، ص١٦٣.

له سند من الإيمان، وبذلك يزرع قطب لدى المؤمن - كما يسميه - مفهوم «التميّز»، ويؤكد فوقيته وعلويته على الآخرين، طالما أنه الأعلى تصورًا للقيم والأعلى ضميرًا وشعورًا وخلقًا وسلوكًا، والأعلى شريعة ونظامًا، إنه ينظر إلى البشرية الضالة من علٍ في عطفٍ وإشفاق على بؤسها وإشفاقها، ولا يجد في نفسه إلا الاستعلاء على الشقوة والضلال[1].

فجوهر الخطاب القطبي إذًا هو الرفض، لكن رفضه هذا لا يأخذ شكل معارضة محض سياسية عن طريق النقد المباشر للسلطة السياسية لعهد الرئيس عبد الناصر، بقدر ما رَغِبَ أن يأخذ رفضه هذا شكل أيديولوجيا دينية متصاعدة ومتكاملة تستثمر النص الديني بشكل يمكنها من التجييش والتحريض بصيغة أكثر قدرة وقوة من خلال الإسقاط المباشر لمعاني النص الديني على الواقع السياسي المعاش والمباشر، لذلك لا عجب أن يشعر الكثيرون من الإسلاميين عند قراءتهم لكتابات سيد قطب، وخاصة تفسيره للآيات القرآنية، وكأنها تخاطبهم مباشرة، ومما ساعد قطب على ذلك هو ابتكاره - بشكلٍ ناجح إلى حد بعيد - لمفهوم «الثنائيات الحدية» على مبدأ (من ليس معنا فهو حتمًا ضدنا) (فالإسلام لا يعرف إلا نوعين من المجتمعات.. مجتمع إسلامي ومجتمع جاهلي، «المجتمع الإسلامي» هو المجتمع الذي يطبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة، وشريعة ونظامًا وخلقًا وسلوكًا، و«المجتمع الجاهلي» هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته، وقيمه وموازينه ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه)[2]، لذلك (لا ينبغي أن تقوم في نفوس أصحاب الدعوة إلى الله تلك الشكوك السطحية في حقيقة الجاهلية وحقيقة الإسلام وفي صفة دار الحرب ودار الإسلام، إنه لا إسلام في أرض لا يحكمه الإسلام، ولا تقوم فيها شريعته، ولا دار إسلام إلا التي يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونه، وليس وراء الإيمان إلا الكفر، وليس دون الإسلام إلا الجاهلية وليس

(١) المرجع نفسه، ص١٦٦.

(٢) المرجع نفسه ص١٠٥.

بعد الحق إلا الضلال) [1] وهذا ما كثّفه في شعارٍ أصبح رائجًا وشائعًا لدى الكثير من الإسلاميين في مواجهة النظم الحاكمة (خذوا الإسلام كله جملة واحدة أو دعوه) بشكلٍ ينفي تمامًا إمكانية وجود أي تصور أو مفهوم عن الإسلام مختلف عما تعتنقه هذه «الطليعة» المنادية «بالحاكمية لله».

لقد كان كتاب سيد قطب «معالم في الطريق» بمثابة الطريق الذي يرسم معالم التغيير في المستقبل لدى الكثير من الحركات الإسلامية، ومما أضفى عليه قيمة رمزية هو أنه كان آخر ما كتب قطب نفسه بحيث أصبح بمثابة «الوصية» التي تركها قطب للأجيال الآتية من بعده، ولاسيما أن إعدام قطب من قبل عبد الناصر حوّله إلى شهيدٍ بنظر أتباعه ومناصريه، طالما أن سبب إعدامه وإدانته لم يكن سوى كتاب «المعالم»، وهذا ما حوّله إلى نموذج المفكر الذي يعيش أفكاره ويموت في سبيلها، لقد وصف أحد أصدقائه ما انتهى إليه قطب قائلًا (لقد انتهت المعركة التي كان قطب يتهيبها ويستعظمها في قرارة نفسه، وقد انتصر فيه اليقين على الشك والسكينة على التردد، والعزم على ضعف الإرادة، فما كان الاعتقال والتنكيل والشهادة إلا نتيجة حتمية، وصورة صادقة لهذه المعركة التي خاضها في أعماق نفسه وقرارة بيته، قبل أن يخوضها في الزنزانة وعلى المشانق) [2].

---

(١) المرجع نفسه ص١٤٧.

(٢) أبو الحسن علي الحسني الندوي، شخصيات وكتب (دمشق:دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ط١، ١٩٩٠) ص١١٠، يبدو حجم الكتب التي ألّفت عن حياة سيد قطب وفكره ضخمًا ولا سيما أنه كان محط دراسة من قبل التيارات الأيديولوجية العربية كافة، إلا أن الإسلاميين أضفوا على حياته وشهادته هالة رمزية وقدسية بحيث يصبح كل ما كتبه ذا أهمية استثنائية لذلك تعاد طباعة كل ماكتب وتخصص الرسائل والندوات لإبراز نهجه وملاحظاته في المجالات كافة، انظر: عماد الدين خليل، المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (دمشق: دار القلم، ١٩٩٤) وصلاح عبد الفتاح الخالدي الذي كتب كتبًا عدة عنه، سيد قطب الشهيد الحي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، المنهج الحركي في ظلال القرآن إلى غير ذلك من المؤلفات التي حصرها بشكل دقيق الدكتور محمد حافظ دياب ضمن بيلوغرافيا تتبعت كل كتابات سيد قطب الأدبية والصحفية والشعرية والسياسية، وكل ما كتب عنه، انظر: محمد حافظ دياب، سيد قطب الخطاب والأيديولوجيا (بيروت:دار الطليعة، ط١٩٨٨،٢).

لكن كتاب قطب كان أيضًا المبرر الشرعي لكثيرٍ من الجماعات الأصولية التي نشأت فيما بعد متخذة من مفاهيم «الحاكمية» و«الجاهلية» مبادىء سياسية، وموظفةً إياها ضمن صراعها العقائدي والأيديولوجي مع النظم الحاكمة في البلدان العربية كما حدث مع جماعة (التكفير والهجرة) و(جماعة الجهاد الإسلامي) في مصر و(الجماعة الإسلامية المسلحة) في الجزائر وغيرهم من الحركات التي ازدادت ونشطت في الثمانينيات والتسعينيات في الوطن العربي، غير أن ما يجب ذكره أن قطب لم يكن فقيه هذه الجماعات أو مفتيها كما تصور ذلك جميع الباحثين والدارسين لكتاباته، بقدر ما كان مجرد «مدخل» أو بالأصح حلقة ضرورية لا بد منها من أجل التعامل والتعاطي المباشر مع النص، فالجماعات السلفية والجهادية لم تتكئ في كتاباتها على سيد قطب الذي لا نلحظ حضوره في نصوصها[1]، بقدر ما كان خطوة لازمة في إزاحة التراث الفقهي الكلاسيكي لخلق علاقة مباشرة من أجل تأويل النص القرآني، وهذا ما أسميه (الجرأة على النص) بمعنى أن سيد قطب تمكن من تحرير العلاقة مع النص بحيث أصبحت مباشرة، وأصبح بإمكان هذه العلاقة أيضًا أن تمد طالبها بأحكام فقهية جديدة ومختلفة لم تكن واردة قبلًا لدى الفقهاء السابقين عليه، وما أعطاه الشرعية الكافية لذلك هو قيامه بتفسير القرآن كاملًا، بحيث بدا مؤهلًا لاستصدار الأحكام الفقهية التي سيتبعها الكثيرون من بعده، ولذلك نجد أن الكثير من الفقهاء التقليديين في زمنه قد وقف معارضًا له، وعلى رأسهم شيخ الأزهر، هذه «الجرأة على النص».

إذًا خَلَقت كتاباته لدى الجماعات السلفية - خاصة ضمن متنها الاجتماعي والسياسي المكبوت -قدرةً على العودة إلى النص القرآني والحديثي مباشرة لاستخراج الأحكام القاطعة بشكل يبرر رغبتها في الجهاد ضد من تسميهم «بالأنظمة الكافرة»، لقد تمكنت هذه الجماعات السلفية من قراءة النص القرآني بشكل دلالي مختلف بحيث تعمل على

(١) من الممكن مراجعة نصوص هذه الجماعات في: رفعت سيد أحمد، النبي المسلح (بيروت: دار رياض الريس للنشر والتوزيع،١٩٩١).

توظيف المخزون التاريخي والإرث الكامن في المتخيل الشعبي، ومما عزز ذلك قدرة أدائية بارعة في البلاغة على مستوى النطق الخطابي بالعربية وإمكانيات حقيقية في حشد عدد من النصوص بشكل يدعم «الحجة» ويثبتها. لذلك من الخطأ أن نحمّل قطب تبعات نتائج هذه الجماعات السلفية وأعمالها، بل يجب أن نقرأها في متنها السياسي والاجتماعي أولًا، ثم العودة إلى خطابها النظري الذي يتصل مباشرة مع النص الديني، في حين أن قطب مثّل الخطوة الأولى التي ما كان لمن بعده أن يبني عليها لولا جرأته على النص التي كان لها ما بعدها.

النص الممنوع والخوف الكامن:

بغض النظر عن الاعتبارات التقييمية لنص (معالم في الطريق) فإنه يبقى نصًا فاعلًا، بمعنى قدرته التأثيرية على المستوى الفقهي والسياسي والاجتماعي، وهو ما استدعى دراسته من قبل عدد كبير من الباحثين، لكننا إذا توقفنا عند الغاية الثاوية لدى السلطة في منع تداوله والمتعلقة برغبتها في عدم شيوع مثل هذه الأفكار التي تهدد وجودها وبقاءها، لذلك جمعت قواها لتبقى «المعرفة الملغومة» كامنةً في مخبئها، فالسلطة هنا مازالت تلعب دور الوصاية على المجتمع الذي يجب أن تختار له ماذا يقرأ، وتمنعه مما لا ترغب هي في قراءته، وهذا هو جوهر مصادرة الكتب ومنع تداولها في العالم العربي، فالصراع الخفي على المتخيل الاجتماعي الذي ترغب كلّ من السلطة والمعرفة في الاستئثار به وامتلاكه إلى جانبها في حين تنازع المعرفة التي تحتكر الحقيقة - بزعمها - السلطةَ على هذا المتخيل بغية تحريضه وكسبه إلى طرفها، ويبقى الشد والجذب بين الطرفين قائمًا ومتخذًا شكل الصراع الدموي حينًا، وشكل الهدنة الخفيّة أحيانًا أخرى، لكن تحقق نوع من التوازن بين الطرفين لن يتحقق بدون امتلاك هذا المجتمع لوعيه الحقيقي المتعلق بقدرته على ممارسة حرية التعبير وإبداء الرأي دون أن يكون ثمن هذه الممارسة مكلفًا بواجبه في الارتقاء بثقافته التي هي حصنه الحقيقي من السلطة الجامحة ومن المتلاعبين بالعقول - على حد تعبير شيلر - من أجل الاستئثار بالحقيقة والمعرفة.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

هذا الكتاب

هل كان سيد قطب من رجال المغالاة والتطرف؟ وهل في كتاباته ما يحمل على تكفير مسلمي اليوم؟ وهل يتحمل سيد مسؤولية العنف الذي ظهر بعده؟

هذا الكتاب يبحث علاقة فكر قطب بقضيتي التكفير والعنف، وهو إذ يفعل ذلك يُظهر اختلاف أنظار الناس في فهم مقولاته، وقراءة فكره في سياقه العام، ولكلٍّ وجهةٌ هو مُوَلّيها. والجدل حول "سيد" ليس جديدًا، ولا ضيقًا، ومع ذلك فهو يلقى تعاطفا كبيراً في أوساط الإسلاميين، مقابل خصومة شديدة من غيرهم، والبعض يرى فيه ابتعاثًا لفرقة الخوارج التي ظهرت في القرن الهجري الأول ورفعت شعار "لا حكم إلا لله"، وبعضٌ آخر يرى أنه أسس للتشدد الديني ومهّد لحركات التكفير والهجرة التي عرفتها الساحة العربية والإسلامية في الثمانينيات وما بعدها.

يتنوع المشاركون في هذا الكتاب بين إسلاميين وغيرهم، وبين إسلاميين مستقلين غير منتمين، وبين منتمين، وبين بعض الإخوان في توجههم العام وبين توجه تنظيم 1965م، ومن ثم فهو يجمع بين مختلف الآراء لعله يوفي الموضوع حقه .

هذة السلسلة

سلسلة متخصصة في البحث في شئون الطرق الصوفية والحركات الإسلامية تصدر عن موقع إسلاميون.نت أول موقع متخصص في دراسة الحركات الإسلامية على مستوى العالم، يهدف إلى بحث ودراسة الظاهرة الإسلامية والمتابعة الدقيقة لكل جديد يتصل بها، وذلك لإنجاز الأخبار والتقارير والأبحاث التي تفيد في تقديم رؤى تحليلية، ومقاربات نقدية، ونماذج تفسيرية من شأنها أن ترصد وتحلل وتفسر لنشأة الظاهرة وحركتها ومساراتها، بعيداً عن فخ الانحياز الأيدلوجي، والتوظيف السياسي، والاختراق المعرفي.

ويهدف موقع إسلاميون من خلال إصداره لهذه السلسلة إلى إتاحة أهم ما تناول الظاهرة الإسلامية من دراسات وأبحاث لها أهمية تحليلية ومقدرة تفسيرية من شتى المدار ... قع الفكرية، ما يؤدي ... في مساحة دراسة و ... مية يعالج حالة التشد ... نها والتي تولدت ... ت الدرس والتباعد ... رفي بين الباحثين.

إسلام أون لاين.نت
www.islamonline.net
الدوحة - قطر
ص.ب - 22212
ت: 4457744-974+
مكتب القاهرة:
ص.ب - 12582 - 6 أكتوبر
ت: 38274200-202+
publishers@iolteam.com

مكتبة مدبولي
6 ميدان طلعت حرب - القاهرة - مصر
ت: 25756421 - 00202
ف: 25752854 - 00202
طيبة 2000 طريق النصر - مدينة نصر - القاهرة - مصر
ت: 24015602 - 00202
www.masboulybooks.com
Email: Info@madboulybooks.com